قضايا ثقافية

الأستاذ الدكتور
السيد محمد الديب

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ليست هذه مقدمة خالصة لكتاب **[قضايا ثقافية]** ، وإنما هى مقدمة لمجموعة من الكتب مؤتلفة مع بعضها فى غلاف واحد ، تعبر عن هوية واحدة ، وتمثل رؤية من تجربتى مع الحياة الثقافية ، فتحدثت فى البداية عن **(العولمة والهوية الثقافية)**، وهو موضوع شغل الناس به مدة ، وزاد الاختلاف والجدل حوله، ومن هنا كانت الدعوة للمشاركة به فى مؤتمر بجامعة القاهرة ، وجاء بعده موضوع **(المرأة والقيم الدينية)** ، وموضوع آخر بعنوان **(باحثة البادية ودورها الرائد فى إصلاح الأسرة والمجتمع)** ، وقد شاركت بهما فى مؤتمرين عن المرأة عقدا بجامعة أسيوط ، وكنت راغبا فى أن يكونا بداية لكتاب عن أثر المرأة فى الحياة الثقافية، لكننى اكتفيت بهما ، ونحيت عدة دراسات أخرى من أهمها بحث بعنوان (محوالأمية وتعليم الكبيرات فى مدينة الطائف) لعل الله يأذن بأن يتشكل منه ومن غيره كتاب آخر ٠

وعرضت لثلاثة موضوعات متصلة أولها (المنهج الإسلامى فى تربية الأبناء) ، وثانيها (مخاطر العمالة الأجنبية فى خدمة البيوت وتربية الأطفال)، والثالث عن (الشباب العربى بين القيم الثابتة والمتغيرات الطارئة) ٠

وتعد تربية الأبناء ، والمحافظة على الأطفال مقدمات متصلة لمرحلة الشباب ، وما فيها من متغيرات تتصل بالقضايا التى تشمل المجتمع كله ٠

ويقترب من القضايا السابقة بدرجة كبيرة موضوع (البحث العلمى) الذى يشغل به شباب الباحثين فى الجامعات ، ومراكز البحوث وإعداد الرسائل الجامعية وغيرها٠

وقدمت ثلاث موضوعات متصلة اتصالا مباشرا بالبيئـــة، وهـــى (البيئة وأهمية المحافظة عليها) ، و(دور الإعلام فى خدمة المجتمع) و(مشكلات الانسان مع القرن الحادى والعشرين)٠

وجاء الحديث عن (التصوف بين الدين والأدب) مرتبطا فى شـــق منه بما يجرى فى موالد الأولياء التى تتميز بطقوس خاصة تســـتهوى كثيرا من العامة مع ما فيها من ظواهر وممارسات كثر الحديث عنها٠

أما الكلام عن (حـــدود الاســـتطاعة فـــى الفـــرائض والأحكـــام الإسلامية) فقد تناول فى جانب منه كثيرا من تصرفات الذين يشـــقون على أنفسهم فى الأفعال والأقوال٠

وعرضنا لموضوع (الإساءة إلى الرسول صلى الله عليه وســـلم فى صحيفة بالدنمارك)٠

ثم قدمنا موضوعين متصلين ببعضهما أيضا، وهمـــا (مظـــاهر الفرقة والخلاف بين المسلمين) ، و(الحياة الإسلامية بـــين الاعتـــدال والتطرف) ٠

أما الموضوع الأخير فكان عن (دروس مـــن الزلـــزال) ذلـــك الحادث الذى ضرب مصر كلها فى مقتل ، عام ألف وتسعمائة واثنـــين وتسعين، وكان تجربة عشتها مع أبناء جيلى ، والألم يعصـــر نفوســـنا على الأرواح التى أزهقت ، والبيوت والممتلكات التى دمرت، ولكـــن هذه الأحداث شكلت نوعا من التكافل الاجتماعي، وضربا من الخروج عن القيم الثابتة التى تألم الناس منها وحزن الكثيـــرون عليهـــا، وهـــو ماض لازلنا نذكره بما فيه من دروس وتجارب ٠

والله يوفقنا لخدمة ديننا ووطننا، وهو نعم المولى ونعم النصير ٠

الثلاثاء ٩ من جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ
٤ مـــن يوليـــو ٢٠٠٦م

الدكتور / السيد محمد أحمد الديب

العولمة والهوية الثقافية(*)

الحوار الحضارى :

ظهرت بواكير الدراسات المقارنة فى القرن التاسع عشر الميلادى، والتى تراعى المضمون قبل الشكل ، وتشترط اختلاف اللغة بين الآداب؛ حتى تدرج بحوثها فى العلم الذى نبت فى فرنسا، وعرف بالأدب المقارن، وانتقل منها إلى كثير من الجامعات، واتسعت الدعوة إلى عالمية الأدب والنقد والبلاغة .

ولا شك فى أن اللغة العربية التى كانت محصورة أو محاصرة فى نطاق ضيق بشبه الجزيرة العربية قد اكتسبت قوة وانتشارا فى ظلال الإسلام، فقد نزل القرآن الكريم بها، وخرجت إلى أماكن جديدة فى الشام والعراق ومصر وفارس، وغيرها من البلدان التى كانت تستقبل اللغة العربية ، وتتخذها لغة إضافية جديدة تحيا وتنمو بالتداول والاستعمال إلى أن يتخلص أهل البلاد المفتوحة من لغاتهم القديمة ، وتصبح العربية لغة للحديث والتعليم والتأليف .

وكانت اللغة أهم الروافد الثقافية للحضارة الإسلامية التى تفاعل الناس معها خاصة فى القرن الثانى من الهجرة (الثامن الميلادى وما تلاه) فنشطت حركة الترجمة إلى العربية، وتعرف العرب على

(*) بحث مقدم لندوة (الثقافات المحلية فى ظل العولمة) والمزمع عقدها فى الثالث والرابع من مايو عام ٢٠٠٣م بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية — قسم الأنثروبولوجيا — جامعة القاهرة.
وقد نشر الموضوع فى جريدة صوت الأزهر بالعددين الصادرين فى ٢٠٠٤/١٢/١٠م و ٢٠٠٤/١٢/١٧م.

حضارات الأمم الأخرى، وترعرعت الثقافة العربية في شمال أفريقية والأندلس، ووصلت آثارها إلى جنوب أوربة وأنحاء كثيرة في بلاد فارس وما وراءها ناحية الشمال والشرق، حتى إن الثقافة العربية في تنوعها ظهرت آثارها في البلاد الأوربية، وتجلى ذلك في شتى النواحي الثقافية، فكان ذلك دافعا في مراحل تالية لإنشاء أقسام للدراسات الشرقية في معظم الجامعات الأوربية ، وتشجيع كثير من العلماء والأدباء الغربيين على التخصص في الدراسات الشرقية وهم الذين عرفوا بالمستشرقين؛ إذ كان الاستشراق في بعض نشاطاته حركة من حركات التواصل بين الغرب والشرق ، وإن لم يسلم بعض المستشرقين من التحامل على الثقافة العربية والحضارة الإسلامية ، وقام الكثيرون منهم بجهود متميزة في خدمة اللغة العربية والتراث الإسلامي من جمع للمخطوطات وتحقيقها، ومن تأليف للكتب والمراجع الكبيرة، ومن تدريس في كثير من الجامعات العربية، وكانت مشاركات بعضهم في المجامع العربية إثراء وإحياء للثقافة العربية، ولم تتوقف حركات التأثير والتأثر بين الشرق والغرب عند هذا الحد ، وإنما اتجهت العناية إلى إرسال العلماء العرب إلى أوربة؛ لينهلوا من نهضتها العلمية وثقافتها الإنسانية، ولا ننسى البارزين من هذه البعثات ومنهم رفاعة رافع الطهطاوى الباحث المصرى المستنير، ولا زالت حركة التواصل عبر هذه الإرساليات قائمة ومستمرة تؤتى ثمارها في سائر العلوم التجريبية والإنسانية، حتى إن بعض الباحثين الذين

يغتربون لاستكمال دراساتهم يطيب لهم المقام فى البلاد التى ارتحلـوا لها أو هاجروا إليها ، ويحققون نجاحات مبهرة وغير متوقعة •

ولم يجد الناس غضاضة فى السفر لطلب العلم ، أو استقدام مـن يستفيدون به، وإن خضعت العلاقة بين الشرق والغرب لكثير من المـد والجزر ، ولكثير أيضا من الثقة أو الريب، خاصة أن الشرق العربـى والإسلامى تراجع شيئا فشيئا علميا وتكنولوجيا عن كثير مـن الـدول الغربية التى أبعدت الدين جانبا، وفصلت الدين أو عزلته عـن الحيـاة تحت شعار (العلمانية)، وبدأت الهوة تتسـع بـين المجتمـع الشـرقى والمجتمع الغربى •

وقد تشكك المشرق العربى فى الدول الأوربية؛ لأنهـا تمثـل ــ بالنسبة له ــ المستعمر أو المستخرب الذى أذل الإرادة العربية، ونهب الثروات القومية، وجعل كثيرا من بلدانه مزرعـة لمصـانعه وسـوقا لمنتجاته، وزرع شوكة فى جنبه، ومسمارا فى أرضه، ومقتطعا جزءا من كيانه؛ لتكون بؤرة للصهيونية العالمية، ولم تتوقف أطماع الـدول الغربية عند هذا الحد، فمزقت أوصال الوطن العربى نتيجـة لـذلك ، ووضعت الحدود فيما بين أجزائه ، إلى أن أصبحت الخطوط الفاصـلة بين كل دولة وأخرى من أخطر المشكلات الإقليمية التى تمثل تهديـدا للواقع العربى المعاصر •

وقد تجاوز العرب فى علاقاتهم ومـواقفهم مـن أوربـة همـوم الماضى الذى انطوت صفحاته ، وأقبلوا فى واقعهم المعاصـر علـى

الحضارة والتكنولوجيا الأوربية التى عمت واشتملت كل نواحى الحياة، ومن أهمها وسائل الاتصال بين دول العالم كالأقمار الصناعية والإنترنيت وأجهزة الهاتف (المحمول) والحاسب الآلى، وأدوات التشخيص والعلاج وحساب الزمن حتى الأسلحة المتطورة التى تفتك بالبشر، وهكذا نجد أنفسنا فى اختلاف وصراع حول العلاقة بالغرب فقد أذلنا ، ونهب ثرواتنا ، وقدم لنا التكنولوجيا التى لا نقدر على تصنيعها، ولا نستطيع التخلى عنها ٠

أما الغرب فلم ينصرف عن البلدان العربية والإسلامية ؛ إذ كانت محلا لأطماعه وموضعا لاهتمامه وعنايته، فالمنطقة العربية بخاصة منطقة حاضنة للحضارات من فارسية ورومانية ويونانية، وتركت كل منها أثرا فى شعوب المنطقة فى الثقافة والفكر وبعض المكونات الأخرى لكل حضارة، كما أنها حاضنة للأديان ــ مع اختلاف البواعث والأسباب ــ اليهودية والمسيحية والإسلام، وكانت موطنا لهجرة كثير من الأنبياء والرسل إليها فعاشوا فيها، وتركوا آثارا من دياناتهم بها ، كما أنها حاضنة للثقافات المختلفة التى وفدت إليها، وتركت الكثير من المظاهر بها، وهى حاضنة أيضا للثروات المختلفة مثل الموقع المتميز، والأنهار المتعددة والبترول والبحار والثروات الطبيعية المخبوءة والأراضى الشاسعة الصالحة لأغراض مختلفة ، ولذلك اتجهت إليها أطماع الغزاة والمحتلين مثل الهكسوس والتتار والصليبين، والاستعمار الأوربى الحديث، ولكن الدول الغربية لم تقتنع بكثير من

سلوكيات الشرق العربى، وإنما مزقت أو قسمت بلاد الشرق فيما بينها، ولا زالت تلك الأطماع ماثلة للعيان إلى وقت كتابة هذه السطور .

وقد كره الغرب أشياء كثيرة فى بلدان العالم الإسلامى، كره فيـــه تمسكه الشديد بالدين واللغة ، وغياب الديمقراطية الحقيقيـــة، وأشـــياء أخرى كثيرة .

ومن هنا تجددت الدعوة لحوار الحضارات والتقريب بين الأديان ونبذ الحروب والدعوة إلى السلام ، واحترام حقوق الجـــوار الـــدولى، والشراكة فى اتخاذ القرار ، ونبذ الإرهاب، والقبول بحق الشعوب فى تقرير المصير .

والمقلق أن بعض الكتاب والساسة والمفكرين فى أوربة وأمريكـــا يوغرون الصدور، ويحركون العداوة بين الغرب والشرق ، فيزعمون أن الإسلام هو الخطر القادم على الغرب بعد سقوط الاتحاد السوفيتى ، لأن الغرب ــ قبل هذا السقوط ــ كان يتعاون مع الإســـلام لضـــرب الشيوعية ، أما وقد تحقق انهيار الاتحاد السوفيتى، فلم يعد أمام الغرب إلا الإسلام، ومن هنا ظهرت بوادر الصراع بين الحضـــارات ، لكـــن الأمر ليس فى مجموعه على هذه الصورة، ففى الغرب أيضـــا تعلـــو الأصوات العاقلة التى تدعو لحوار الحضارات، وهذه الأصوات تمثـــل تيارا قويا وحريصا على بناء جسور الثقة بين الحضـــارة الإســـلامية والحضارة الغربية ، وقد عرض الدكتور محمود حمدى زقزوق لهـــذه القضية ، ومما قاله فى ختام حديثه عنها :

" وأعتقد أنه قد آن الأوان لأن نعطى لهذه الأصوات الأوربية العاقلة فرصة لتأخذ مكانها فى خضم المناقشات الجارية حول صراع الحضارات فى عالمنا الإسلامى ، وفى مصر بصفة خاصة ، وأن نتجاوب معها بهدف تعبيد الطريق أمام حوار حضارى بناء من أجل خير وسلام أبناء الحضارتين الإسلامية والغربية، الأمر الذى من شأنه أن يسهم بدوره فى أمن واستقرار عالمنا المعاصر ، وسوف تثبت الأيام أى الفريقين — من أنصار الصراع أو الحوار — أرسخ جذورا وأبقى تأثيرا وأقوم سبيلا"(١) .

الدعوة إلى العولمة :

العولمة GlobAlization فى أبسط معانيها جعل الشئ على مستوى عالمى.

ومن حيث الاشتقاق اللغوى فإن "العولمة" مصدر للفعل "عولم" المشتق من كلمة "عالم" ويقصد بها "الكرة الأرضية وما عليها من بشر ملحوظا فى ذلك كل أنواع نشاط هذا البشر"(٢) .

ويفسر الاصطلاح بمعنى الفرض والهيمنة ، ويفضل آخرون معنى العالمية أو الكوكبة، وأفضل من كل ذلك المعنى الذى شاع أخيرا

---

(١) الإسلام فى عصر العولمة د. محمود حمدى زقزوق صـ٤١ إصدار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية العدد ٥٣ .

(٢) العولمة وموقف الفكر الإسلامى منها — أعمال مؤتمر كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات جامعة الأزهر بالإسكندرية من بحث بعنوان (لغة القرآن الكريم فى عصر العولمة) للدكتور / محمد حسن جبل صـ٢١٩ نشر الدار المصرية بالإسكندرية .

وهو المفهوم من عبارة "[توفيق أوضاع]" فمعنى عولمة قطر هـــو أن يوفق ذلك القطر أوضاعه مع ما فى العالم من أساليب تقنية حديثة فى الإنتاج والنقل والاتصالات وما إلى ذلك"(١) والهدف المعلن عنه فى هذا الخصوص تحويل العالم إلى شكل جديد موحد يلغى الحدود الفاصـــلة بين الدول٠

ومدلول هذا الاصطلاح قديم ، ومفرداته أو أكثر متطلباته لم تكن غائبة أو مغيبة عن الساحة العالمية، وهو دعـــوة جديـــدة أو متجـــددة لتوحيد النظام العالمى ، وتقريب وجهات النظر المختلفة بين الدول فى الاقتصاد والثقافة والإعلام ٠

وقد تجلى ذلك بعد انهيار الاتحاد الســـوفيتى، وتفكـــك الأنظمـــة الاشتراكية أو الشيوعية، وأسهم فى انتشار هذا المصطلح تقدم وســـائل الاتصال بين دول العالم ، فظهرت الأجيـــال المتعاقبـــة مـــن أجهـــزة الحاسب الآلى والفاكس والأقمار الصناعية، وانتقال المعارف والأخبار من خلال شبكات الإنترنيت، ولم يكن كل ذلك موجودا فـــى الماضـــى بهذه الصورة٠

وتقترن الدعوة إلى العولمة بالجانب الاقتصادى بهـــدف تكـــوين عالم بلا حدود ، وتوحيد السوق وحرية رأس المال تحت مظلة الهيئات العالمية مثل صندوق النقد الدولى، ومنظمة التجارة الدولية (الجـــات)، وتشجيع المنافسة على الإنتاج ٠

وتنعكس آثار العولمة على ثلاثة أمور هى :

---

(١) السابق صـــ٢١٩ ، ٢٢٠ ٠

١ ـ الاقتصاد والسياسة :

والمعيار المختار والمحدد لدى الكثيرين فيما يتصل بهذا الأمر يحتم أن يكون للأمة الإسلامية والدول التى تنتمى إلى هذه الأمة خصوصية تحمى بها مصالحها، وتتعامل مع العالم تعاملا يرمى إلى تحقيق هذه المصالح، وأن هذه الندية فى التعامل لا تتحقق إلا للدول التى استكملت مقوماتها السياسية والاقتصادية، وفى ظل الحالة التى تحياها كثير من دول العالم الإسلامى ستكون فى ظل العولمة هى الأضعف والأقل تأثيرا والأكثر تقليدا واعتمادا على الآخرين.

٢ ـ الثقافة والحضارة :

ومسئولية هذا الجانب تقع على الكتاب والمفكرين والمثقفين ورجال الإعلام؛ لأنهم يشكلون ضمير الأمة، ويجددون تشكيله من وقت لآخر، وكلما كان تشكيل ضمير الأمة معبرا عن ثقافتنا وحضارتنا الأصلية استطاعت الأمة أن تكون على قدم المساواة وندا لأصحاب الثقافات والحضارات الأخرى(١) .

وكلما قصر المفكرون الإسلاميون والكتاب والباحثون فى تجديد معالم حضارة الأمة كانت الأمة تابعة لغيرها، ففى هذا الجانب نلوم الكتاب والمثقفين الذين يكتفون بالترجمة عن الغرب والنقل منه، دون أن يقدموا شيئا أصيلا جديدا نابعا من خصوصيات حضارتنا، وهى

---

(١) جريدة الأهرام يوم ٢٢/ ١٢/ ١٩٩٨م فى تحقيق صحفى مع الأستاذ الدكتور محمد سليم العوا.

شديدة الثراء .. هذا التقصير سوف يجعلنا مرة ثانية فى أسـر التلقـى بدلا من أن نكون فى إطلالة المعطى، وهى المكانة اللائقة بحضـارتنا وثقافتنا"(١).

٣ ـ العقائد والأديان :

وهذا الجانب من أخطر الجوانب المتصلة بالعولمـة، كمـا قـال الدكتور محمد العوا ، مؤكدا أن "كل الذى يجرى من حوارات الأديـان هو جزء من خطة العولمة، والمقصود من هذه الخطة أن يصل الناس إلى مرحلة القبول الكلى بما هو قائم فى الحضارة الغربية .

ونؤكد أن هذه الأمور الثلاثة فى الشرح السابق لا تمثـل رؤيـة كلية للموقف العام من العولمة؛ إذ لا يوجد موقف عام منها، والنـاس متباينون فيما بينهم،وتحدد مواقفهم على ضوء التصورات التى يؤمنون بها،أو يعترضون عليها، وليس هذا التباين قاصرا على المنطقة العربية فحسب، وإنما يشمل كثيرا من دول العالم، فيوجد فيها مـن يعـارض العولمة؛ لأنها اعتداء على خصوصيات كل دولة، وأداة لمحو الهويـة الثقافية، ولا ننسى ما ثار من خلاف بين الدول عند التوقيع على اتفاقية الجات ، فقد تحفظت عليها بعض الدول الأوربية فى البداية، ورفضت فرنسا التوقيع عليها، وما شاهدناه أخيرا من رفض عـالمى للحـرب الأمريكية والبريطانية وبعض الدول المتحالفة معهما علـى العـراق، فكانت المظاهرات الصاخبة تجتاح كل مدن العـالم تقريبـا، فـرفض

---

(١) السابق .

العولمة أو الدعوة إليها ليس قاصرا على الوطن العربى أو العالم الإسلامى، وإنما يمتد ليشمل كثيرا من دول العالم مع اختلاف البواعث بين هنا وهناك، ولكن ما يعنينا فى هذا المقام أن نعرض للمتقاربين أو المتحدين فى الثقافة والعقيدة؛ إذ أن الهموم واحدة والطموحات متقاربة، ولا تخرج تلك المواقف عن ثلاث تيارات واضحة.

١ـ تيار رافض للعولمة :

وهو تيار قوى يرى فيها صورة من صور الاستعمار الغربى، ودعوة للثقافة الأقوى، وهى تبعية ممقوتة ، وغزو ثقافى مستحدث ، وقضاء على القوميات المختلفة، وهى أداة لمحو الهوية الثقافية ، وأسلوب من أساليب الضغط على الدول النامية، فالكارهون للعولمة لديهم أسباب عديدة لتحديد هذه الكراهية وتأثيرها على الهوية الثقافة ــ والتى سوف نعود بالحديث إليها ــ والمعاناة من الاستغلال الاقتصادى، والمناداة بالعلمانية والتنكر للأديان، فالرفض فى مجموعه راجع إلى أسباب سياسية واقتصادية وثقافية وإعلامية وعقائدية ودينية ، وهى التى تشكل معظم الجوانب أو المكانات للهوية الثقافية، ولابد من اليقظة الكاملة لما يدبره بعض سدنة العولمة الثقافية، ومن المؤسف أن هذا التيار الرافض يرى من المواقف والأقوال ما يؤيد حجته خاصة إذا شاهدوا أو استمعوا إليها من شخصيات مؤثرة فى رسم السياسة العامة، فقد نقل الصحفى المصرى سعيد اللاوندى كلاما قال فيه :

" كنت قد قرأت كلاما لوزيرة الخارجية الأمريكية[١] مادلين أولبرايت تقول فيه "إن أمر قيادة العالم بلا منازع هو من نصيب (أمريكا) وعلى جميع الدول أن تدرك أننا لو أردنا إحداث أى تغيير فلابد سنفعله .. فالعالم لنا .. العالم للأمريكان"[٢].

٢ ـ تيار معجب بالعولمة :

وأصحاب هذا التيار هم الذين انبهروا بالحضارة الغربية، وهم الذين ينادون بحرية رأس المال، وتكوين عالم بلا حدود، ويتحمسون للفكر العلمانى، وأى حديث عن الهوية الثقافية يدعوهم للسخرية والاستهزاء، ويرفضون أى حديث عن الغزو الفكرى ، وقد يصل بهم الاعتقاد بأن الهوية الثقافية سوف تفيد من العولمة بدلا من أن تضار بها، وإذا كان هناك من أثر فهو تافه بسيط لا قيمة له، وبالتالى فلا توجد آثار سلبية للعولمة، ويتحمسون للانفتاح العالمى، ويرفضون العزلة، وينادون بحسن الظن وعدم التوجس من أمريكا والغرب، وتجاوز الصراع بين الكونية والمحلية ، وأنه لا خطر على الثقافة العربية من الثقافات الأجنبية الوافدة ، ولابد من تعلم لغة أو مجموعة لغات أجنبية؛ لأن ذلك من لوازم الثقافة العالمية وليس غزوا ثقافيا .

---

(١) مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية فى عهد الرئيس بيل كلينتون .

(٢) العولمة وموقف الفكر الإسلامى منها ـ أعمال مؤتمر كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات جامعة الأزهر بالإسكندرية من بحث للدكتور عبدالله حسين صـ١٨٢ عن كلمة سعيد اللاوندى فى أهرام ٢٥/ ١١/ ٢٠٠٠م .

٣ـ التيار الوسط :

وهو تيار لا يعادى الحضارة الغربية، ويأخذ منها ما يتلاءم مع الحضارة الإسلامية، ويستجيب لحوار الحضارات بدلا من تصادمها، وللتجديد فى أساليب البحث العلمى، ولكنه يتحفظ بالنسبة للجوانب الثقافية والدينية ، ومن الضرورى إعادة النظر فى العولمة الثقافية تمهيدا لقبولها والتجاوب معها، فهى تعنى فى الأساس التقارب بين الأقطار، واختيار ما يلائم من آليات العولمة، تمهيدا لتوحيد الفكر العالمى، وسيادة مضمون الحرية بكل أساليبها، واحترام آدمية الإنسان مهما كان لونه وموطنه، وسيادة أنظمة متحدة اجتماعيا وسياسيا .

والدعوة إلى الحرية ليست مطلقة فلا ينبغى الاستسلام تماما لكل معطياتها، ولابد من الحذر أو التخوف الذى ينتاب أهل الأديان مما يمكن أن يهدد دينهم وعقيدتهم . وأن المعتدلين أصحاب التيار الوسط يفرقون بين عالمية النموذج الإسلامى وعولمة النموذج الغربى، وينادون بزيادة العلاقات المتبادلة بين الأمم والشعوب، وهكذا نؤكد من خلال ما ذكرناه أو استشهدنا به فى السطور السابقة أن مضمون العولمة ليس محل اتفاق، وأن النموذج الغربى لها غير مقنع لجميع الناس، وأن الكثيرين فى الشرق الإسلامى بخاصة يرفضونها جملة وتفصيلا ، وأن من يضع لها معايير أو مخططات فإنما يضعها لنفسه، وهى ليست إلا طموحات وآمال، وأن ما سمى بتيار الوسط يمكن أن يكون نافذة أو بابا أو أساسا للتحاور بين الحضارات مما يمهد لعولمة جديدة لا تمثل تحيزا للنموذج الغربى وفرضا لهيمنته وسيطرته،

والحرص على تفريغ هذا المصطلح من كل وعود براقــة وعبــارات ناعمة حتى لا تكون شرابا قديما فى آنية جديدة ٠

الهوية الثقافية :

عقد الدكتور جلال أمين فى كتابه العولمة فصلا بعنوان (العولمة والهوية الثقافية)، وحدد فيه مدلول الهوية الثقافيــة فقــال : " الهويــة معناها فى الأساس التفرد، والهوية الثقافية هى التفرد الثقافى بكل مــا يتضمنه معنى الثقافة من عادات وأنماط سلوك وميل وقيم ونظرة إلــى الكون والحياة ... " (١) ٠

والهوية الثقافية قد تعانى بسبب العولمة نتيجة لاستغلال رأسمالى أو غزو علمانى، مما جعله يقول: "والهوية الثقافية المهددة هنا هى فى الأساس دين الأمة وعقيدتها، وحماية الهوية معناها فى الأساس الدفاع عن الدين"(٢) ذلك لأنه فى مسألة الثقافات المختلفة والغزو الثقافى تقهر الثقافة الأقوى الثقافة الأضعف ، وقريبا من ذلك المعنــى قــول ابــن خلدون: "إن المغلوب مولع بتقليد الغالب فى نحلته ولباسه"(٣)٠

ويتوسع البعض فى مدلول الهوية الثقافية التى باتت مهــددة مــن قبل العولمة، فقال "إن الهوية الثقافية هى المعيار الحقيقى الذى يمكــن مــن خلاله قياس القيمة الحقيقية لشعب من الشعوب، وتتشــكل هــذه الهوية نتيجة تفاعل عوامل كثيرة أهمها المعتقدات الفكريــة والدينيــة،

---

(١) العولمة د. جلال أمين صـــ٥٣ (سلسلة اقرأ ــ دار المعارف) ٠
(٢) السابق صـــ٤٦ ٠
(٣) من جريدة الأهرام يوم ١١ / ١١ / ١٩٩٨م ٠

وكذلك العوامل التاريخية والبيئية، وانطلاقا من هذا المفهوم فإنه ليس من قبيل المبالغة القول إنه من أهم التحديات التى تواجه دول العالم خاصة الدول النامية"[١].

إذن فالهوية الثقافية ذات أبعاد متعانقة ومترابطة فى مقدمتها الدين واللغة.

ويُعد الحديث عن الدين من أخطر القضايا ذات الحساسية البالغة، وقد ووجه الدين الإسلامى فى العالم الشرقى بأخطار محدقة فى مقدمتها المناداة بالعلمانية بمعنى تجنيب الدين عن الحياة، وترك هذه القضية للأفراد ليكونوا أحرارا بلا قيود فيها ، ومحاولة مس هذا الموضوع وتوجيهه تحت ظلال العولمة مسألة خطيرة وغير قابلة للنقاش، خاصة أن المنطقة العربية معروفة باحتضانها للأديان وتجاوبها مع الرسالات السماوية، ولم تكن الحروب الصليبية ــ فى بعض أسبابها ــ إلا حلقات متواصلة من الصراع بين الغرب والشرق بسبب الأديان .

أما اللغة العربية فهى مسألة لم تصل حساسيتها إلى ما وصلت إليه حساسية الحديث عن الدين، وليست اللغة مستهدفة بالدرجة الأولى من أنصار العولمة، وأعتقد أن قناعتى أو اقتناعى باللغة الفصحى لا حدود لها، وهى قادرة على النمو والتجديد مثل خلايا الجسم، وتملك تراثا ضخما ومخزونا كبيرا وكتابا خالدا يحفظها من كل غزو ، ويدافع عنها من كل اعتداء ، مضافا إلى ذلك التراث العظيم من الحديث النبوى الشريف والشعر العربى الفصيح .

---

(١) جريدة الأهرام يوم ٣٠/ ١ / ٢٠٠٠ من مقالة للسفير عمرو عبداللطيف بعنوان الغزو الثقافى والعولمة .

ثم إن هذه اللغة قد وضعت لها القواعد والمؤلفات، وبقيت في وجدان الأمة راسخة ومتجددة ، وهي تحيا بالاستعمال، وتزداد مفرداتها وتراكيبها بفضل العوامل الكثيرة التي تجددها وتعمل على إحيائها وبعثها من مراقدها ·

ولا أميل إلى اتهام الآخرين على الإطلاق بالتربص بها، ومحاولة تهميش دورها، وتقليل شأنها ·

ولا شك في أنها قد عانت من فترات ضعف وخمول، ولكنها لم تمت، وقد شهد العالم لها، فتم الاعتراف بها واحدة من اللغات المشهورة والمعترف بها في ساحة الأمم المتحدة·

وتعاني أحيانا من أبنائها وغير أبنائها بدعوات لا مبرر لها مثل المناداة باستعمال اللهجات العامية أو الكتابة بلا إعراب ، أو تدريس العلوم التجريبية بلغات أجنبية خلافا لمسيرة معظم دول العالم، وعلى كل فهي أبرز مظاهر الثقافة العربية، ولديها القدرة على الصمود والمواجهة حيال اللغات الأخرى، ولا نظن أنها في خطر وتهديد، غير أنها في حاجة إلى إحياء وتجديد ، وذلك بأن تكون مادة أساسية في الكليات الجامعية التجريبية؛ حتى تكتسب قوة ومناعة وتحصينا من دعاة التغريب والعامية، وكل دعاة العولمة الذين يرون أن استعمال هذا اللغة عيب ورجعية وتخلف·

إن العولمة دعوة متجددة، ولنا أن نأخذ منها ما نراه صالحا، ونرفض ما يهدد هويتنا الثقافية، خاصة ما اتصل بهذه الهوية كالدين واللغة والعادات والتقاليد والمبادئ والأخلاق واحترام الآخرين ·

المرأة والقيم الدينية(*)

القيم الدينية :

القيم: جمع قيمة ، وهى صفة فى شئ تجعله موضع تقدير واحترام، أى أن هذه الصفة تجعل ذلك الشئ مطلوبا ومرغوبا فيه ، وقيمة كل شئ : قدره، وقيمة المتاع: ثمنه، واستقام الشئ أى اعتدل، وقومته: عدلته فهو قويم .

والقيم الدينية : هى الصفات أو الأخلاق المستقيمة والمرتبطة ، أو المستقاة من المنهج الدينى الذى آمن الناس به، وصدقوه ، وخضعوا له عن قناعة وإيمان،والدين القيم: هو الدين المعتدل، والشرع المستقيم، قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١) .

وكتب القرطبى فى نهاية بيانه عن هذه الآية قائلا :

(*) بحث مقدم للمؤتمر الرابع للمرأة البحث والتنمية فى جنوب مصر ــ جامعة أسيوط .

الموضوع: المرأة والتعليم ــ المحور الأول (المرأة والقيم الدينية) ــ فعاليات المؤتمر أيام الأول والثانى والثالث من أبريل عام ٢٠٠٣م.

(١) سورة الروم ٣٠ .

ومعنى: حنيفا أى معتدلا، مائلا عن جميع الأديان المحرفة المنسوخة، والفطرة: هى الإسلام، أو الخلقة التى خلق عليها المولود فى المعرفة بربه، أو الفقر والفاقة، ومعنى "لا تبديل لخلق الله" أى هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق.

" ذلك الدين القيم " أى ذلك القضاء المستقيم ، قال ابن عباس ، وقال مقاتل: ذلك الحساب البين ، وقيل " ذلك الدين القيم " أى دين الإسلام هو الدين القيم المستقيم، "ولكن أكثر الناس لا يعلمون" أى لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقا معبودا، وإلها قديما سبق قضاؤه ونفذ حكمه " .

" والمرأة " هى مؤنث امرئ ، وأصلها مرأة ، وتخفف بترك الهمزة وفتح الراء فيقال "مرة" وتلحق بها ألف الوصل فى المؤنث فيقال امرأة، فإذا عرفت قيل "المرأة"، وجمعها من غير لفظها "نساء ونسوة" .

والمرأة هى الأنثى فى مقابلة الرجل الذى روى أنه خلق أولا، ثم خلقت المرأة بعده، وهما آدم وحواء أصل الخليقة الإنسانية ، قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[١].

والمرأة مع تعريفها تطلق ويراد بها عموم المرأة سواء أكانت بنتا أم زوجة أم أما ، ولكن رسالتها وهى زوجة تمثل أهمية كبيرة ؛لأنها مسئولة أو مشاركة فى المسئولية عن استمرار الحياة، ومعاونة الزوج، وتربية الأبناء ، امتثالا للقيم الدينية الأصيلة التى تعصم الكبار والصغار من التردى فى مهاوى السقوط والانحلال .

---

(١) الحجرات ١٣ .

والمرأة التى نحن بصدد الحديث عن إيمانها الراسخ بالقيم الدينية هى التى تؤدى دورها فى كافة نواحى النشاطات الإنسانية كتحصيل العلم النافع ، والاستفادة منه، وتقديمه لمن لها ولاية عليهم ، وهى الموظفة التى تنهض برسالتها فى قطاعات العمل المختلفة من أول السلم الوظيفى إلى أعلاه ، وهى المرأة التى تسهم فى رعاية الأسرة ، أو تقوم برسالتها كاملة بعد وفاة الزوج أو أثناء مرضه أو سفره للخارج ، سواء أكانت تعيش فى الريف أم تحيا فى المدن، فارتباط المرأة بالقيم الدينية ذو فعالية، ويمثل أهمية فى الحياة المعاصرة ، والتى اخترقت النساء فيها كثيرا من الحواجز التى كانت موصدة أمامها ما دامت فى حاجة ملحة لهذا الخروج ، ومضطرة إليه ، وليس لسبب آخر.

فالمرأة التى نتحدث لها ، أو نتكلم عنها ليست محصورة فى نطاق الصورة الضيقة أو المهتزة التى تعبر عنها فاتنات السينما والمسرح وملكات الجمال، وأوانس الإعلانات ، ولكن المعنية هنا هى المرأة الملتزمة، والفتاة الرشيدة، والأم الصابرة على حركات المد والجزر فى الحياة المعاصرة، هى أمنا الرشيدة وشمسنا المضيئة ، وألق حياتنا، ونور أبصارنا جزاء ما أنفقت من جهد وسهر، وكفاح وعرق، مؤمنة بكل القيم النبيلة، والعادات الأصيلة ، والأخلاق الحميدة، تلك المرأة الأم والأخت والزوجة التى تحيا فى الريف إلى جوار زوجها مساندة ومعاونة تشد من أزره ، وتقف صامدة إلى جانبه، أو التى نراها فى الأحياء الشعبية عاكفة فى صبر ورضى على تربية

الأبناء والأخذ بأيديهم فى سباق التثقيف والتعليم .. إنها المــرأة التــى تؤدى دورها فى دولاب العمل إلى جانب زوجها معينة له فيما تحتــاج إليه الأسرة من ضرورات الحياة، وهى طالبة العلم التى تســعى إليــه مشغولة بمستقبل حياتها بما فيه من طموحات وآمال، وهــى العاملــة البسيطة فى كل بقعة تتكسب منها ، وهى ــ قبل كل ذلك ــ التى تحيا فى منزلها درة مكنونة وجوهرة مصونة يفوح عطر شذاها على الزوج والأبناء،ملتزمة ومحافظة على كرامتها وعادات قومها،ومبادئ دينهــا القويم ٠

القيم الدينية وعلاقة المرأة بها :

يبنى الإسلام نظرته العامة للمرأة على عدة اعتبارات تمثل أهمية بالغة فى هذا الموضوع :

١ – المرأة عضو أساسى فى المجتمع ، وهى شــقيقة الرجــل، فعن السيدة، عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال :

" إنما النساء شقائق الرجال"(١) فالمرأة تتساوى مع الرجــل فــى مجموعة من الأمور، وتفترق عنه فى مجموعة أخرى لأسباب يرجــع بعضها لإنسانيتها وحقوقها وواجباتها فى الحياة من جهة ، وللفــوارق بين طبيعتها ورسالتها التى تختلف عن الرجل من جهــة ثانيــة، ممــا يجعل القول بالمساواة المطلقة بينهما غير جائزة ، كما أن التفريق على

---

(١) رواه أحمد وأبوداود٠

الإطلاق أيضا لا يجوز ، ولاعتبارات كثيرة لسنا بصدد الحديث عنهـا بتوسعة فى هذا الموضوع[١].

٢ – رفض أى تجاوز أو اعتداء على حقوق المرأة فى الحيـاة من تعليم وتملك وزواج، ومن عمل عنـد الضـرورة، ومـن سـائر الممارسات المتعددة فى النواحى الاجتماعية وغيرها .

٣ – إنها أساس وصاحبة الدور الفعال والمـؤثر فـى تكـوين الأسرة وتربية النشء والسير به فى الطريق المستقيم .

٤ – المقصود من علاقة المرأة بالقيم الدينية أن تتصـف بهـا، وتحرص عليها، ولا تتخلى عنها ، بل تزداد علاقتها بها مع الأيام ثبوتا ورسوخا ، وتحاول أن تزرعها فى نفوس المحيطين بها رجالا ونساء ، صغارا وكبارا ، أقارب لها وبعيدين عنها، بدءا من الوالد الذى ينبغـى أن تمارس معه ما يعبر عن هذه العلاقة ويمثلها، ثم الزوج الذى يجب أن تتحول فى علاقتها به إلى النموذج الكامل، والمثل الحى .

وإذا كان الآخرون أبناء لها فلتكن قدوة لهم فى الصـدق والعفـو والتسامح والثقة بالنفس،أما العلاقة بالإخوة والأخوات فهى ذات معايير متميزة مبنية على الحب والمودة والإخاء ، فلا تغلظ فـى القـول، ولا تكذب فى الوعد ، وإذا وجدت فيهم شططا وتجاوزا فلـتكن النصـيحة المخلصة بالقول الحسن والكلمة الطيبة ، وكذلك مـع غيـر الأقـارب

---

(١) يمكن الرجوع إلى كتاب (المرأة فى الإسلام) للدكتور على عبدالواحد وافى ، لاستجلاء جوانب الموضوع.

خاصة مع بنات جنسها، فعليها أن تتقى الله معهــن ،ولــيكن توجهها ابتغاء وجهه تعالى إقبالا عليه، وإرضاء له ؛ حتى تكون مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ٠

ومن الواجب على المرأة أن تكون قناعتهــا بهــذه القــيم ثابتــة راسخة، وعن إيمان صادق ، فلا تمارسها بأداء خادع، وتمثيل زائف ، قال تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (١) .

أهمية القيم الدينية بالنسبة للمرأة :

إن القيم الدينية ليست قابلة للرفض ، وليست موضــعا للعــرض والتخيير؛ لكى تقدم المرأة عليها فتقبلها أو ترفضها ؛ إذ لا إرادة لهــا ولا لأى إنسان فى رفض القيم التى أمر الله بهــا ودعــا الرســول ﷺ إليها،وآمن بها البشر كافة، قال تعــالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ (٢) .

ولا شك فى أن الإيمان بهذه القيم والتمسك بها مهم جدا فى حــق الزوجة بخاصة ؛ لما لها من دور مهم ، وتأثير قــوى علــى أفــراد أسرتها قال رسول الله ﷺ :

---

(١) الرعد ١٧ ٠
(٢) الأحزاب ٣٦ ٠

" كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل فى بيته راع وهو مسئول عن رعيته ، والمــرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها، والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته ، فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته"[١].

فتأثير المرأة لا حدود له فى الزوج والأولاد من كافة النــواحى ، وإذا كانت المرأة الأوربية قد تحررت من بعض القيم الدينية التى تؤمن بها فإن دورها فى تربية الأولاد، وتأثيرها على الزوج معتــرف بــه وغير مجهول ، قال روسو[٢] : " يكون الرجال كما تريد النساء، فــإذا أردت أن تجعل الرجال من ذوى الهمة والفضيلة، فعلم النساء الهمــة والفضيلة"[٣] ، على أن القيم الدينية الثابتة فى مظانها الصــحيحة ، لا يؤخذ بعضها ، ويترك البعض الآخر، فمحافظة المــرأة علــى زيهــا وهيئتها وستر ما يجب ستره من بدنها، امتثالا للتشــريع الإســلامى لا يكفى إذا لم يكن مع ذلك إيمان راسخ ، والتزام واضح بالحياء وحســن الأدب والعفة والعزة والكرامة وغيرها من الأخلاق النبيلة والقيم الدينية الصادقة.

---

(١) رواه البخارى.
(٢) جان جاك روسو (١٧١٢م ـــ ١٧٧٨م) من كبار الفلاسفة الفرنسيين، وقــد مهدت آراؤه للثورة الفرنسية، وهو صاحب كتاب العقد الاجتماعى.
(٣) هامش كتاب المرأة الجديدة لقاسم أمين ص٨٥ إصدار مؤسسة أخبار اليــوم بمصر.

إقبال المرأة على التعليم الدينى :

ذكر الدكتور محمد رجب البيومى ما جاء فى مجلة الرسالة [(١)] • وفيه نبذة تحت عنوان (فتيات فى الأزهر) قال:

" ذكر المستشرق الإنجليزى (مستر دون) فى كتابه "الحياة الفكرية والتعليمية فى مصر فى القرن التاسع عشر" ما خلاصته أن الحملة الفرنسية أثناء قدومها إلى مصر وجدت فى صحن الأزهر بضع نساء يتعلمن إلى جانب الشبان ، ويتفقهن فى الدين ، وكانت هناك عالمة ضريرة يلتف الشبان حولها ، ويتلقون الدروس عنها ، كما أنه كان فى معهد طنطا الدينى جماعة من الفتيات يحضرن الدروس الدينية ويستمعن إلى التفسير والحديث"[(٢)] ولعل هذا أقدم دليل جازم على القول بتعليم الفتيات بالأزهر أيام الحملة الفرنسية •

وفى أوائل القرن العشرين كانت الطالبات ينتظمن فى الدراسة بالمعاهد الدينية ، ومنهن الطالبة فاطمة العوضية التى تقدمت من معهد طنطا عام ١٩١١م للامتحان فى شهادة العالمية بعد أن قضت اثنتى عشرة سنة أو يزيد ، وكانت العلوم حسب نص القانون آنذاك هى علوم التوحيد والأخلاق والفقه والأصول والتفسير والحديث والبلاغة

---

(١) العدد (٣٩٠) الصادر بتاريخ ٢٧/ ١/ ١٩٤١م •

(٢) الهلال العدد التذكارى أكتوبر عام ١٩٩٢م ص٢٢٠، وقد نشرت المقالة أول مرة فى أكتوبر عام ١٩٨٥م، وفيها أن السيوطى قرأ على سيدات من المتعلمات المتخصصات فى الدراسة الدينية، وذكر فى خاتمة كتابه (بغية الوعاة) ما يقرب من عشر سيدات، كما أن السخاوى قد خص السيدات العالمات فى زمانه بقسم من كتابه (الضوء اللامع)•

والمنطق ومصطلح الحديث والحساب والجبر والعـروض والقافيـة، وتحصيل هذه العلوم يتطلب المواظبة على الحضور والنقاش"(١).

وبدأت أعداد الفتيات الراغبات فى التعليم مـن خـلال معاهـد الأزهر تزداد حتى صدر قانون التطوير عام ١٩٦١م الذى شمل معاهد الأزهر وجامعته ، وانتظمت الدراسة فى كلية البنات الأزهرية ، ومن لم يسبق لهن الدراسة الدينية كن يقضين عاما كـاملا بمثابـة تأهيـل لدراسة العلوم الدينية والعربية التى لم يسبق لهـن دراسـتها دراسـة موسعة، ثم أنشئت كليات جديدة لتعليم الفتيات العلوم التجريبية الحديثة إلى جانب الدراسة الدينية ، فزادت أعدادهن ، وتخرجت مـنهن آلاف عديدة لخوض غمار الحياة العامة ، وقد حملن زادا ثقافيا دينيا لا يتاح لغيرهن بالدرجة نفسها فى الكليات الأخرى ، وكان لزامـا لـذلك أن تزداد أعداد الطالبات فى المعاهد الإعدادية والثانوية ، وبعدها كليـات البنات التابعة لجامعة الأزهر فى سائر ربوع مصر ، واللاتى يتخرجن كل عام بالآلاف .

وهذه إحصائية للعنصر النسائى فى الفصل الدراسى الأول لعـام ٢٠٠٢ ــ ٢٠٠٣م بجامعة الأزهر .

أستاذ	أستاذ مساعد	مدرس	مدرس مساعد	معيدة	الإجمالى
٣٢٧	٣٠٣	٤٩٥	٤٠٢	٥٤٠	٢٠٦٥

(١) السابق ص٢٢١ .

٢ – إجمالى أعداد الطالبات (الباحثات) فى كليات البنات فى مرحلة الدراسات العليا ٣٨٥٠ باحثة (فى مرحلتى الماجستير والدكتوراه) ٠

٣ – إجمالى أعداد الطالبات فى مرحلة الإجازة العالية (الليسانس والبكالوريوس) خلال العام الدراسى ٢٠٠٢ م/ ٢٠٠٣ م ١٣٨٧٨٣ مائة وثمان وثلاثون ألفا وسبعمائة وثلاث وثمانون طالبة٠

وهكذا نما تعليم البنات بجامعة الأزهر نموا كبيرا منذ بداية عام ١٩٦١م حتى الآن، فضلا عن الزيادات الكبيرة فى أعداد الطالبات بالمعاهد الابتدائية والإعدادية والثانوية، وهى المنابع التى تغذى كليات الجامعة والمعاهد العلمية العالية التابعة لها من القيم الدينية التى يجب على المرأة أن تلتزم بها ٠

١ـ الحياء

الحياة خلق إسلامى ، وقيمة إنسانية وحضارية ، وسلوك اجتماعى قويم، وهو تغير يشمل الإنسان عندما يفعل شيئا ، أو ينطلق بكلام معيب، أو يسكت عن شيئ يجب إعلانه.

واستعمل القرآن الكريم لفظ (الاستحياء) الذى يشمل الحياء فى المعنى ، ويزيد عليه، وقد يأتى الاستحياء فى معنى كنائى آخر، وجاء ذلك فى القرآن الكريم حكاية عن فرعون مع قوم موسى ، قال تعالى :

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً

مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(١)
فإن الإبقاء على استحياء النساء هو منعهن من الزواج ؛ حتى يبقى حياؤهن من الرجال .

إن الحياء خلق عظيم يتوافق مع طبيعة المرآة ، وعليها أن تحرص عليه، وتلتزم به؛ حتى يكون معرا عنها ، فتمارسه وتتخلق به،وينعكس على أسلوبها مع الآخرين، قالﷺ : "إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت"(٢) لكن لا ينبغى أن يفهم هذا الخلق على غير وجهه ، فإذا أقبلت المرأة على زواج فلها أن تنظر إلى الرجل المتوقع منه أن يكون زوجا لها بمثل ما يحق له أن ينظر لها ، كما أن لها أن توضح رؤيتها حتى لو كانت فى صورة سكوت أو صمت يعبر عن رضاها، ولا يكشف عن غضب ورفض منها. فالحياء قيمة إنسانية عظيمة جديرة بأن تكون موضع تقدير وعناية من المرآة، فتلتزم بها مع نفسها، وتمارسه فى تعاملاتها مع الآخرين.

ثم إن الحياء يكون حدا فاصلا يحجب الإنسان عن التردى فى سلوك مشين، والانحدار نحو ممارسة الأخطاء والاستمرار فيها، فإذا أزيلت الفواصل بين الإنسان والأخطاء . ومارس من المخالفات ما أذهب حياءه فإن تكرار المعايب يكون سهلا ميسوراً، حتى إنه ينتقل فى تعاملاته من الخطأ إلى الخطيئة، أو من الصغائر إلى الكبائر،

---

(١) القصص ٤ .
(٢) رواه البخارى ومسلم .

ويصير الرجوع إلى الصواب والاعتدال نحو الحق ، والاستواء على الطريق المستقيم صعباً عسيراً ، وقد جاء فى حديث لرسول الله ﷺ ما يأتى :

" ... فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه..."(١).

وقد اختص الله الإنسان بالحياء من بين سائر المخلوقات، قال تعالى : ﴿ ...وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (٢) ، فمن هذا التفضيل للإنسان على غيره أن جعله الله مميزا بالحياء، ولذلك إذا تخلى عن هذه القيمة ، أو سلبت منه شيئا فشيئا بسبب انحرافه ، وعدم امتثاله ، فإنه يكون قد أبعد نفسه عن خصائص الإنسان ، واقترب من طبائع الكائنات الأخرى .

وفى طريق تخلى المرأة عن حيائها فإنها تحاول تقليد الرجل فى صورته وزيه مما يعد طغيانا أو إبادة لأنوثتها التى ميزها الله بها، مما يسهم فى اتساع الهوة ، وابتعاد المسافة بين الرجل والمرأة، ذلك لأن الأنثى المسترجلة هى التى تنسلخ من طبائع النساء، فتقلد الرجل فى زيه ومشيته، وأسلوبه، وهذا مخالف لأصل خلقها، ومكوناتها الإنسانية

---

(١) من حيث رواه البخارى ومسلم.
(٢) الإسراء ٧٠ .

وقد ثبت فى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: " لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال " .

ويقصد بهذا أن للمرأة طبائع خاصة تساير وظيفتها الأساسية من حمل وإرضاع، ومعاونة الرجل الذى هيئ للتصدى لكثير من مهام الحياة الزوجية، وتكاليف الأبوة وغيرها، فالتخلى عن دوره ورسالته لا يتوافق مع طبائعه التكوينية، فإذا وجد فى المرأة اقترابا فى التشبه به فإن ذلك قد يصرفه عن الإحساس بها، ولذلك فأهم القيم التى تشغل تفكير المرأة فى معظم مراحل عمرها أن تكون زوجة تنهض برسالتها فى الحياة ، بما يتوافق مع طبيعتها وأسرار تكوينها، وأى تخل عن هذه الرسالة يجعل الأمور مليئة بالأخطاء والتجاوزات التى يجهل الناس مداها ، والحدود التى ستتوقف عندها، قال رسول الله ﷺ : " إن لكل دين خلقا ، وخلق الإسلام الحياء"(١) .

ويبدو تخلى المرأة عن الحياء فى مجموعة من المظاهر السلبية التى تتعارض مع التشريع الإسلامى ، فلا تلتزم بما أمرها الله بستره من مفاتن بدنها، وتقصيرها فى حق زوجها كالخروج من البيت بدون رضاه ، وإهمال زينتها فى منزلها، وتقليد الرجال، ونبذ القوامة الشرعية، ومحادثة غير محارمها بكلام غير ملائم لحيائها ، والذى نهى القرآن الكريم عنه ، قال تعالى : ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ

---

(١) رواه مالك .

﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [١] ومرد ذلك إلى قلة الخوف من الله تعـــالى، وسوء التربية، والوقوع فى حبائل وسائل الإعـــلام غيـــر الملتزمـــة ، والتأثر بنساء الأمم الأخرى فى تقليد غير رشيد ، والقـــدوة الســـيئة ، وانعدام الغيرة الإيمانية، مما يجعل المرأة أرضا خصبة لنمو التيـــارات الفكرية والأخلاق السيئة.

٢ـ الرحمة :

الرحمة قيمة دينية سامية ، وخلق إسلامى حميد ، وإحساس نبيل باحتياجات الآخرين، ومظهر من مظاهر القوة التى يتصف بها الشـــخص فيسبغها على الآخرين ممن يحتاجون إليه ، وينتظرون منه الخير .

والرحمة صفة من صفات الله تعالى، قال جلت قدرتـــه : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [٢] ، وفى الحديث القدسى : "إن رحمتى تغلب غضبى"[٣]، فهو رحيم بعباده، غفور لهم، عطوف عليهم، وهم يتجهون إليه بالدعاء؛ لأنه أفضل الرحماء، قال تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [٤].

ويعبر عن الرحمة بلين الجانب، والرقـــة والإحســـان، وخفـــض الجناح وقد كان رسول الإسلام رحيما بأمته، فذكر القرآن الكريم لـــين جانبه مع قومه ، فقـــال تعـــالى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ

---

(١) الأحزاب ٣٢ .
(٢) غافر ٧ .
(٣) رواه مسلم.
(٤) المؤمنون ١١٨ .

﴿كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (١)، وأن رسالته في مجموعها مبنية على الرحمة بالناس جميعا قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (٢).

أما المرأة فإنها أكثر اتصالا بهذه الصفة من غيرها بصفة عامة؛ لما أودعه الله فيها من أسرار الخلق ، فضلا عما تتحمله من مشقات الحمل والإرضاع وحضانة الأطفال، وإسباغ المشاعر الفياضة على الآخرين ، ومنهم الوالدان والزوج والأبناء والمرضى والضعفاء؛ إذ أن الأصل المقرر فى ابتداء الحياة الزوجية أن تكون مبنية على المودة والرحمة ، قال تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣) ، ولابد أن تقرن مشاعر المرأة وأحاسيسها برحمة مماثلة من الآخرين حتى تسمو الحياة فوق الشدائد .

أما رحمة المرأة بأبويها، ولين الجانب معهم ، وخفض الجناح لهم، فهو واجب دينى مهما كانت المرأة زوجة أم غير زوجة .

وفضلا عن الممارسات الرحيمة مع الوالدين والزوج والأبناء فإنها تنطلق برحمتها ورقة قلبها وإحسانها وعطفها ولين جانبها مع ذوات أرحامها والضعاف من الناس مثل المرضى والخدم ، وكذلك

(١) آل عمران ١٥٩ .
(٢) الأنبياء ١٠٧ .
(٣) الروم ٢١ .

بعض الحيوانات والطيور وسائر دواب الأرض؛ لأن الرحمة قيمة دينية لا يستغنى عنها إنسان أو دابة أو طير .

والعجبُ من بعض السيدات اللاتى يملكن قلوبا كالصخر حيث ترى الواحدة لذتها فى القسوة على خادمتها ، فتبقى هذه المسكينة لاعنة من رماها، وألقى بها فى براثن مخدومتها التى فقدت المشاعر الإيمانية والأحاسيس الإنسانية .

وهذا مثال واضح ذكره الرسول ﷺ فى حق امرأة ، قال : " دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض "(١) .

فإذا كانت المرأة تدخل النار بسبب هرة فما مصير النساء اللائى تبلدت أحاسيسهن، ووقعن سبايا للقسوة والجبروت ؟

أما النماذج الصالحة من النساء، واللائى يتقين الله فى معاملتهن مع الآخرين فجديرات برحمة الله التى وسعت كل شئ، وبدعوات الضعاف والمرضى والعاجزين والأيتام.

٢ـ العدالة :

العدالة هى إعطاء كل ذى حق حقه، وهى الإنصاف والمساواة بين الناس من غير تفرقة بين المستحقين ، وهى قيمة ضرورية فى الإسلام يجب التمسك بها ، وعدم التخلى عنها؛ إذ أن كثيرا من ثورات

---

(١) رواه البخارى.

الشعوب تتفجر عندما تشعر بالظلم ، وبالتفرقة بين المحكومين وعدم المساس بينهم فى الحقوق والواجبات ·

وقد جاء الأمر الإلهى فى القرآن الكريم بالعدل فى الفصل بين الناس والحكم بينهم، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (١) .

ولا ينبغى أن يحيد أحد عن تنفيذ العدالة ، أو أن يستسلم لأى شئ يمنعه من ذلك، مثل القرابة والنفوذ ، والمركز الاجتماعى ، والإغراء المالى ·

ومن مظاهر العدالة أن يحافظ الإنسان على أموال اليتامى، وأن يحذر الغش فى البيع والشراء ، وأن يصدق فى القول والفعل، حتى لو كان المحكوم له أو عليه من الأقارب، فالعدالة فى القول كالشهادة والإقرار بما على الشخص من ديون والتزامات دعوة إلهية سامية يذكرنا الله بها مصداقا لقول الله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ...﴾ (٢) وللعدالة صور كثيرة ، وممارسات متعددة تظهر فى أحوال مختلفة كعدل الرجل والمرأة بين

---

(١) النساء ٥٨ ·
(٢) الأنعام من الآية ١٥٢ ·

الأبناء ، وعدل الحـاكم أو المسـئول بـين أصـحاب المصـالح أو المتنازعين ٠

والمرأة لا تختلف عن الرجل فى ضرورة التمسك بالعدالة التـى تريح الناس ، وتغرس الاطمئنان فى النفوس، وتقتلع الحقد من القلوب٠

وقد وجه الرسول ﷺ حديثه إلـى الوالـدين (الأب والأم) آمـرا بصورة جازمة بضرورة العدل بين الأبناء؛ لأن التفريق بينهم خطـر وإثم كبير ، إذ أن تمييز واحد عن آخر ظلم محرم، كمـا أنـه يولـد الكراهية بين الأبناء سنين عددا، قال رسول الله ﷺ : "اتقوا الله واعدلوا بين أبنائكم"(١)٠

ولقد عبر القرآن عن العدل بثلاث كلمات هـى العـدل والقسـط والميزان ، فكثير من النساء يذهبن (الآن) إلى الأسواق، ويقمن بأعمال تجارية وتسند إليهن وظائف يؤول إليهن إعطاء المرءوسين فيها بعض الحقوق الوظيفية، وينهض بتربية الأبناء فى حالات كثيرة، وما علـى المرأة فى هذه الحالات وغيرها إلا أن تلتزم بالعدالـة المطلقـة ؛ لأن الناس أو الإخوة عندما ينالون حقوقهم بالتساوى فإن الأمور تسير فـى ثقة واطمئنان ٠

فالعدالة قيمة دينية وإنسانية متعددة الجوانب والأحـوال ، وهـى قوام الدنيا ، وسبب صلاح الناس ، فما أجدر أن تلتـزم بهـا المـرأة وتحرص عليها، وتمارسها قولا وعملاً فى سائر نواحى الحياة ٠

---

(١) رواه البخارى ومسلم٠

٤ـ الأمانة :

الأمانة خلق نبيل ، وصفة عظيمة وقيمة دينية متميزة ، وهى واجبة فى حق الرسول ﷺ ؛ إذ كان إيمانه بها قولا وعملا .

وهى متعددة الجوانب بحيث يكون التزام المؤمن بها وحرصه عليها من أكبر الدلائل على صدق العقيدة وكمال الإيمان .

والأمانة وثيقة الصلة بالأمن والإيمان ، وقد تميز الرسول فى شبابه بهذه الصفة فكان معروفا فى قومه (بالأمين)، وتتسع الأمانة لتشمل التكليف بالعبادات، وجوارح الإنسان، وسلوك المؤمن مع غيره من الناس ، وتجنب الغش فى البيع ، وضرورة القناعة بالكسب المعتدل ، وحفظ الأسرار الخاصة بالعمل أو الأصدقاء .

قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ (١) .

والأمانة من أهم الصفات الخلقية التى تتشرف المرأة بها، فتعظم مكانتها عند الله، وتكون دليلا للزوج وقدوة للأبناء .

وكانت أمانة سيدنا محمد ﷺ التى ظهرت خلال عمله بالتجارة فى أموال السيدة خديجة بنت خويلد أهم صفة دخل بها عالم هذه المرأة، فتزوجها مخلصا لها، وصادقا معها .

بينما كانت أمانة سيدنا موسى فى شبابه محل تقدير عند ابنة شعيب فتحدث القرآن الكريم بلسانها، فقال تعالى : ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ (٢).

---

(١) المؤمنون ٨ .
(٢) القصص ٢٦ .

وبسبب الخيانة وفقد الأمانة قذف الله سبحانه وتعالى بامرأتين من نساء الأنبياء فى النار، قال عز من قائل : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ ﴾ (١).

أما أخطر السلوكيات التى تطعن الأمانة فى مقتل فهو التصرف الذى ربما يشارك فيه الرجال والنساء المتزوجون الذين يكشفون أسرار العلاقات الزوجية بلا وعى وإدراك، قال رسول الله ﷺ : " إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته، وتفضى إليه، ثم ينشر أحدهما سر صاحبه "(٢) ، ثم إن الثرثرة من الزوجين للآخرين فى كل صغيرة وكبيرة حتى لو كانت للأقارب فإنها سيئة، وتتمخض عنها مشكلات كثيرة، ولربما أسفرت عما لا يحمد عقباه .

والأبناء أمانة وضعها الله سبحانه وتعالى بين يدى الأب والأم، وهما مسئولان عنهم بحسن التوجيه والإعداد ، ولربما كان دور الأم أكثر أهمية لتأثر الأبناء بها، خاصة فى المراحل الأولى من أعمارهم.

والمرأة فى دائرة الوظيفة الحكومية أو الخاصة التى تقوم بها ينبغى أن تحرص على كيان شخصيتها، فلا تفشى أسرار عملها، وأن

---

(١) التحريم ١٠ .
(٢) رواه مسلم وأبوداود.

تلتزم بالأمانة فى القول والفعل حتى تصل الحقوق إلى أصحابها بعدل وأمانة ٠

وتبقى رسالة المرأة فى غاية الخطورة خاصة فى منزل الزوجية؛ إذ ينبغى أن تتحاشى التظاهر الأجوف بالكرم والسخاء ، ولا تمسك عن العطاء بخلا وشحا خاصة مع أهل زوجها ٠

أما طالبة العلم فعليها أن تنهض برسالتها، وأن تعرف دورها المنوط بها فى الحياة من غير إهمال وتقصير ٠

وتتسع آفاق الأمانة لتشمل علاقة المرأة بزميلاتها فى العمل ، وجاراتها فى المنزل، وكل من لها عليهم ولاية؛ إذ يجب أن تكون نموذجا حيا لهذه القيمة النبيلة ٠

٥ـ الصدق :

الصدق خلق إنسانى وقيمة دينية ، ودليل قوة ، وهو فى كثير من الاستعمالات : إخبار بالقول المطابق للواقع صحة واعتقادا ، وقد كتب عنه الأستاذ سيد سابق، فقال:

" الصدق دعامة الفضائل، وعنوان الرقى ، ودليل الكمال، ومظهر من مظاهر السلوك النظيف ٠

وهو الذى يضمن رد الحقوق ، ويوطد الثقة بين الأفراد والجماعات، ولا يستغنى عنه عالم، ولا حاكم ، ولا قاض ، ولا تاجر ، ولا رجل ، ولا امرأة ، ولا صغير ، ولا كبير ما داموا جميعا يعيشون فى مجتمع ويتعاملون فيه مع الآخرين " (١) .

---

(١) إسلامنا للشيخ سيد سابق ص١٦٣ ٠

ومن مادة الصدق : الصدقة ، وهى ما يخرجه الإنسان إلى المستحقين لها (١).

والصديق : " هو المْلازم للصدق لا يتركه إلى غيره "(٢) .

وإذا تعود اللسان على الصدق فانه يلزمه، ولا يتخلى عنه ، وتصير هذه الصفة لازمة له حسب قول الشاعر :

عوْد لسانك قولَ الصدق وارضَ به ∴ إن اللسانَ لما عودتَ معتادُ

ولا شك فى أن ارتباط المرأة بهذه القيمة الدينية والصفة الإيمانية ارتباط وثيق ؛ إذ لابد أن تكون صادقة مع ولى أمرها ، عندما تستشار فى أمر زواجها ، ولابد أن تكون صادقة فى تعبيرها عن مشاعرها نحو الشخص المتقدم إليها ، فلا تكذب على وليها، ولا على نفسها ؛ حتى تسير سفينة حياتها فى هدوء، وعلى المرأة بعد الزواج أن تلتزم بالصدق مع شريك حياتها، وأن تغرس هذه الصفة فى نفوس الأبناء الصغار، وقد ألف كثير من الناس الكذب ، ولا يجدون حرجا فى ممارسته أمام أبنائهم خاصة الأمهات اللائى يعدن الأطفال بأشياء كثيرة كالهدايا ، وقضاء أوقات فى المتنزهات، وشراء ملابس جديدة ، وهكذا، ثم لا يلتزمن بالوعد، وتكون العاقبة سيئة ووخيمة .

فعن عبدالله بن عامر قال : " دعتنى أمى يوما ورسول الله قاعد فى بيتنا ، فقالت: تعال أعطك ، فقال لها ﷺ : ما أردت أن تعطيه؟

(١) فى ضوء ما نصت عليه مصارف الزكاة فى سورة التوبة.
(٢) أخلاق القرآن جـ١ ص٤٤ .

قالت: أردت أن أعطيه تمرا ، فقال لها: " أما إنك لو لم تعطه شيئا كتبت عليك كذبة"[١].

أما ممارسة الكذب للإضحاك فقد صار شيئا مألوفا حتى إن كثيرا من البرامج فى الإذاعة والتلفاز لا تنطق بصدق أبدا ، ويقع الناس فى حرج شديد بسبب التفنن فى الكذب، بدون مراعاة لبراءة طفل ، أو بساطة رجل ، أو حياء امرأة ، وقد عرض الشيخ محمد الغزالى لهذا الموضوع بإفاضة ، قال :

" وقد أحصى الشارع مزالق الكذب ، وأوضح سوء عقباها ، حتى لا يبقى لأحد منفذ إلى الشرود عن الحقيقة، أو الاستهانة بتقريرها، فالمرء قد يستسهل الكذب حين يمزح !! حاسبا أن مجال اللهو لا حظر فيه على إخبار أو اختلاق ، ولكن الإسلام الذى أباح الترويح عن القلوب لم يرض وسيلة لذلك إلا فى حدود الصدق المحض؛ فإن فى الحلال مندوحة عن الحرام ، وفى الحق غناء عن الباطل"[٢].

ويتصل بهذا الموضوع وربما يزداد عليه فى الضرر من يبالغ فى إلقاء خطب الملق والنفاق كذبا وزورا بهدف الوصول إلى قلب الممدوح؛ حتى يتقدم على أقرانه ، ومن المؤسف أن الممدوح المطرى يكون فى نشوة وسعادة بسبب ما يصل إلى مسامعه من كلام فارغ يعلم الكثيرون مجافاته للحقيقة .

---

(١) رواه مسلم.
(٢) خلق المسلم ص٣٨ .

وقد سرت عدوى هذا التوجه إلى كثير من النساء فـــى دواويـــن العمل، فلا تبالى بعضهن (أحيانا) فى خلع برقع الحياء؛ إذ تتجه إلـــى رجل مرقى أو رئيس مباشر لها بكلمات يعلم الله مدى الكذب والافتراء فيها ، لكنها أبت إلا أن تشارك فى حمل المباخر وصناعة حلوى النفاق والكلام المعسول ٠

أما المرأة التقية النقية التى ترعى الله فى كل تصـــرفاتها، فإنهـــا تحافظ على كرامتها ، وتصون نفسها، ولا تدنس صورتها بالسير فـــى زفة الكذابين ٠

أما الشهادة على شئ تمهيدا للحكم فيه فتحتاج إلى ورع وتقـــوى، وأن التزوير فى المحررات والأقوال والتصـــرفات كـــالبيع والشـــراء والزواج والنفقات والأمانات وغيرها فإنها من أفظع السلوكيات التـــى تنذر بعواقب وخيمة، فعن أبى بكرة قال رســـول الله ﷺ : "ألا أنبـــئكم بأكبر الكبائر ــ ثلاثا ــ قلنا: بلى، قال: الإشـــراك بـــالله ، وعقـــوق الوالدين ، وقتل النفس .. وكان متكئا فجلس ، وقال : ألا وقول الزور ،وشهادة الزور،فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت"(١) ٠

فما أشد حاجة المجتمع إلى نساء صاحبات عقول نيرة ، تسهم فى بناء المجتمع بما تستطيع من إمكانات فى طاعة ولى الأمر، ومعاونـــة الزوج ، وتربية الأجيال على الصدق والإيمان والقيم الدينية الصادقة ٠

أما الترخيص فى الكذب ــ وهو موضع نقاش اتفاقا واختلافـــا ــ فلا يكون إلا فى الحرب ، والصلح بين النـــاس ، وإرضـــاء الرجـــال

---

(١) رواه البخارى٠

للزوجات بالكلام المعسول الذى تسعد به بعضهن ، وتمجه الكثيـرات اللاتى ترغبن فى الصدق ظاهرا وباطنا ٠

٦ ـ الصبر :

تحدث القرآن الكريم عن الصبر فى عشـرات المواضـع التـى تعرض للقضايا المتصلة بهذه الصفة الأخلاقيـة العظيمـة ، والقيمـة الدينية المتميزة ٠

قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ (١) ٠

فهذه الآيات تعرض لمجموعة من الابتلاءات التى يختبـر بهـا الإنسان، وعندها يكون الصبر علاجا للنفوس المقهورة؛ حتى تفيق من كبوتها ، وتتماسك بعد تصدعها وانكسارها٠

إذ تبدأ الآية الأولى بالدعوة إلى الاستعانة بالصـبر والصـلاة ، فهما سياج الحماية وطريق الهداية ، كما يوجهنا القرآن فى وسط آيات

---

(١) البقرة ١٥٣ ــ ١٥٧ ٠

الصبر إلى حسن التوجيه ، وحتمية التماسك عند استشهاد بعض المقاتلين فى ميدان الحرب والجهاد بألا نحكم عليهم بالموت؛ لأنهم أحياء فى الحياة الآخرة ، وإن كنا لا نشعر بهم ٠

ثم تتحدث الآيات عن مجموعة من الابتلاءات التى تتهاوى أمامها النفوس الصلبة القوية ؛ إذ ما تلبث أن تتقهقر وتنهزم فى مواجهة الخوف وشهوات البطن والفقر ، وفقد الأحباب والجوع، أما الذى يتماسك أمام هذه الابتلاءات ويصبر عليها فإنه يستحق البشارة خاصة عند موت الأعزاء ، فيطلبون الحماية والعون من الله قائلين هذه الدعوة القرآنية: "إنا لله وإن إليه راجعون"، كما يكافئهم رب العزة والجلال بثواب الصلاة، وضياءات الرحمة؛ لأنهم الهداة الذين لم يخالفوا أمر الله تعالى ٠

إن هذه الابتلاءات تلحق بالكثيرين فيتماسك أمامها من يتماسك، لكن النساء يضعفن أمام كل اختبار منها، ولذلك تجد القليلات اللائى يستعن بالصبر ، ويتحصن بفضائله ٠

والمرأة عندما يحيق بها ما يحيق فلابد أن تتماسك بقوة الإيمان والثقة بالله، قال ﷺ : "من يرد الله به خيرا يصب منه"(١) ٠

وقد كتب الدكتور أحمد الشرباصى عن فضيلة الصبر ، فقال : " والصبر فضيلة تتعدد مجالاتها، فهناك صبر على الطاعة ، أى استمساك بأدائها، وصبر على المعصية أى حرص موصول على تجنبها، وصبر فى الابتلاء، أى حسن احتمال له ، فلابد للمؤمن من

---

(١) رواه مسلم ٠

صبر على أداء الواجب، وصبر عن الآثام والخطايا . وصبر بحفظ اللسان عن الخنا والفحش ، وصبر بحرص اللسان على النطق بكلمة الحق حينما تجب ، وصبر بصيانة القلب والعقل من خواطر السوء ، وصبر بحفظ الجوارح والأعضاء من سوء الاستخدام، وصبر عند الشدائد والنوازل ، وصبر فى مواطن الجهاد والنضال بالإقدام والثبات وعدم الفرار أو التولى من الزحف "(١).

فكم من أناس لحقت بهم أشد الابتلاءات لكنهم تماسكوا ثم صبروا، ونهضوا، ولم تلن لهم قناة ، فضربوا أروع الأمثلة فى قوة الإيمان وشدة العزيمة والصبر الجميل٠

فلابد للمرأة من التحصن بالصبر على مشاق الحياة وهى كثيرة منها ما يرجع إلى بعض الأزواج الذين يتحللون من المسئوليات، ويلقون بالتبعات على زوجاتهم، فتقف المرأة وحيدة متحملة مشاق الأسرة ، وتربية الأبناء، وتدبير النفقات، وإحسان التصرف فيها٠

أما ما يؤسف له فإن بعض النساء يظهرن حقيقة أو ادعاء هلعا زائدا على فقد حبيب، أو سفر شقيق ، أو غياب ابن ، أو ضياع شيئ ثمين، أو غضب من الوالد وما شابه ذلك من اختبارات الحياة ، وما عليهن إلا أن يستعن بالصبر، ويتقين الله. ويكن قدوة حسنة للآخرين٠

لأستسهلن الصبرَ أو أدركَ المُنى ∴ فما انقادت الآمالُ إلا لصابرِ

(١) أخلاق القرآن جـ١ ص١٩٢ ٠

وقد ورد أن رسول الله ﷺ دخل على امرأة مريضة فوجدها تلعن الداء وتسب الحمى، فكره منها هذا المسلك ، وقال لها مواسيا : " إنها ـ أى الحمى ـ تذهب خطايا بنى آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد"(١).

وعلى المرأة ـ بخاصة ـ أن تقوى إيمانها بحسن العمل ، والصبر على الابتلاء ، والتأسى برسول الله الذى امتحنه الله بوفاة الكثيرين من أحبابه ، فحزن عليهم، لكنه لم ييأس من رحمة الله تعالى.

مجموعة أخرى من القيم الدينية :

إن القيم الدينية التى ينبغى الحرص عليها كثيرة جدا قد تصل إلى المائة ، وقد تزيد عليها ، فمن كل اسم من معظم أسماء الله الحسنى تبرز واحدة أو أكثر من هذه القيم ، وتضاف إليها مجموعة أخرى من الأخلاق التى تحدث القرآن الكريم أو الحديث النبوى عنها مما يجعل حصر القيم الدينية التى يجب على الإنسان أن يتخلق بها أمرا غير ميسور، لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، وقد تحدثنا عن بعضها تفصيلا، وإننا سنشير إلى بعضها إشارات موجزة، علما بأن الترابط بين القيم الدينية واضح لكل ذى عينين.

تزكية الجانب الدينى عند المرأة :

ينعكس أثر الجانب الدينى على الأبناء، وتظهر آثاره فى توجيههم وتربيتهم، فلا ينحرفون عن الجادة، ولا يصاحبون الأشرار، ولا يهملون أعمالهم وواجباتهم ، ويطيعون آباءهم وأمهاتهم وإخوانهم

---

(١) رواه مسلم .

الكبار، ما دام كل ذلك فى نطاق الخير والسلوك الحميد، وبعيدا عن دائرة الأشرار ٠

ولعل توجيه المرأة لكل من حولها يمثل أمرا مهما وذا تأثير كبير فى نطاق التوجيه الأخلاقى :

والأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتَها ∴ أعددتَ شعْبا طيِّب الأعراقِ

وإن تنمية الجانب الدينى تكون بالاستقامة والاعتدال ، وعدم الغلو فى الحكم على الأشياء ، والعمل بما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، والإيمان برسالتها فى الحياة وأنها قدوة للكثيرين ، وألا يكون حكمها على الأمور مستنبطا من تصرفات الآخرين ، وإنما من خضوع ما تفعله للتوجه الدينى الصحيح ، وأن تكون حياتها مشفوعة بإعطاء كل حق لصاحبه مهما كان صغيرا أم كبيرا ، ماديا أم معنويا، خاصة إذا كانت الحقوق موجهة للأهل والأقارب مثل الوالدين والزوج والجيران ، وزملاء العمل ، وشركاء التجارة ، وجميع من لها علاقة بهم خاصة من يختلفون معها فى لدين والعقيدة ٠

قالت السيدة أسماء بنت أبى بكر : " قدمت على أمى ، وهى مشركة فى عهد رسول الله ﷺ ، فاستفتيت رسول الله ... قلت :إن أمى قدمت راغبة (طامعة فيما عندى من بر) أَفَأَصِلُ أمىّ؟ قال: نعم ،صلى أمك ،فانزل الله تعالى : ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1].

---

(١) الآية ٨ من سورة الممتحنة ٠

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ : "ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا "(١).

١ـ الاستقامة :

الاستقامة خلق دينى ، واعتدال فى التصرفات الإنسانية التى تخضع للعادات والتقاليد الاجتماعية؛ إذ أن الحكم على كل أمر ينبغى أن يكون خاضعا للشرع وما تجاوزه وابتعد عنه فليس محلا للقبول . فما أكثر الذين يضعفون فى مواجهة الفكر الضال، وينهزمون أمام التقليد الأعمى ، لكل ما هو أجنبى (غربى بخاصة)، ولأن المرأة صاحبة تأثير كبير فيمن حولها مثل الأبناء؛ لذا كان إيمانها الرشيد وقناعتها الشخصية وسلوكها المتزن يمثل أهمية كبيرة فى سفينة الحياة الاجتماعية .

قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ (٢) .

ومن هنا كان تحقيق الاستقامة من الفرد مرهونا بالتزامه بما أمر به الله تعالى ، وقد كتب الأستاذ سيد سابق عن أثر الاستقامة فى حياة الإنسان فقال : " والاستقامة من شأنها أن ترقى بالإنسان، وتصل به

---

(١) رواه أبوداود والترمذى.
(٢) فصلت ٣٠ .

إلى الذروة من الكمال ، وتحفظ عقله وقلبه من أن يتطرق إليهما الفساد، وتصون نفسه من التردى فى حمأة الرذيلة .

وإذا استقرت الرغبة فى الاستقامة على جماعة، وسادت بينهم حسنت أحوالهم ، وعمهم الأمن والسلام "[١] .

ولابد أن تحرص المرأة المعاصرة التى تعى هموم الواقع وتحديات المستقبل على تميزها بدينها ، واختصاصها بعزتها وكرامتها وتنكيرها ، وأن يكون إيمانها بعقيدتها ثابتا راسخا ، وأن تأتى تصرفاتها تبعا لإيمانها، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٢].

٢ـ الجمال :

لا ينبغى أن يغيب عن المرأة ، ولا عن الرجل أن الجمال قيمة دينية يجب الحرص عليها مهما أوتى الإنسان من طاقة ، سواء أكان الجمال خلقة فى الإنسان طبعه الله عليها، أم خلقا وتوجها مكتسبا من الحياة ، قال ﷺ : " إن الله جميل يحب الجمال"[٣] .

والجمال قيمة دينية متعددة الجوانب ، فمنه ما هو حسى كالشكل الجميل والملبس الحسن ، والمناظر الطبيعية الخلابة، ومنه ما هو معنوى كالكلمة الطيبة ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [٤].

---

(١) إسلامنا ص١٣٧، ١٣٨ .
(٢) المنافقون ٨ .
(٣) رواه مسلم .
(٤) فصلت ٣٣ .

ومن هنا تحتم على المرأة أن تحافظ على اللمسات الجمالية فـــى هيئتها وهيئات زوجها وأبنائها وكامل أسرتها ، خاصة فى البيوت التى تظهر عليها المعالم الجمالية وترتيبها وتنسيقها، وكل شئ فيهـــا، كمـــا تظهر هذه المعالم فى اختصاص المرأة بزى خاص بها ، فلا تمـــتهن نفسها ، وتقلد ملابس الرجل ، أو تختار من الثياب ما لا يلائمها، وأن تعود أبناءها الاستئذان فى الدخول على الآخرين، وكيفيـــة المحافظـــة على أزيائهم ومناظرهم، وكامل هيئاتهم،قال تعـــالى:﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾[1].

وأخذ الزينة يكون مطابقا للشرع والعرف ، وبما لا يتعارض مع العادات والتقاليد، وبالصورة التى تحافظ على هيئة المرأة واحتشامها .

٣ ـ القناعة :

القناعة خلق إنسانى وقيمة دينية يحسن بالمرأة أن تتصـــف بهـــا وتدعو إليها؛ لأنها من دلائل الرضا والقبول ، والثقة فى الله تعـــالى ، والتسليم بالقضاء وليست دعوة للخمول والتكاسل .

فعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قـــال : " قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافا ، وقنّعه الله بما أتاه"[2] .

ولا شك فى أن الإيمان بهذا الخلق ضرورى جدا فى حق المرأة بخاصة ؛ لأن بعضهن تتوق إلى الغنى، وترغب فى كثرة العَـــرَض ، وتخضع للعادات التى تتطلب مزيدا من الإنفاق ، حتى لو لم تستفد منه شيئا ، لكنها الرغبة الجامحة التى تسيطر على الكثيرات .

---

(١) الأعراف ٣١ .
(٢) رواه مسلم .

ومن أخطر الخصال التى تنقاد لها المرأة فتنعكس على مسـيرة حياتها أن تنظر إلى ما فى حيازة الآخرين من ملابس ومساكن وأطعمة ومجوهرات ، وتبقى لذلك فى هم دائم.

أما القانعات الراضيات بما قسم الله لهن فيعشن فى هناء وسعادة، ويسعين إلى تحسين أوضاعهن تحت مظلة القناعة والرضى والثقة فى الله .

٤ـ الإخلاص :

إن الإخلاص من الخصال الحميدة، والقيم الدينية، والصفات الطيبة التى تليق بكل شخص رجل وامرأة ، وقد كتب عنه سيد سابق قائلا : " الإخلاص : أن يقصد الإنسان بقوله وعمله وجهاده وجه الله وابتغاء مرضاته من غير نظر إلى مغنم أو جاه ، أو لقب ، أو مظهر، أو تقدم أو تأخر ؛ ليرتفع المرء عن نقائص الأعمال، ورذائل الأخلاق، ويتصل مباشرة بالله "[١].

والإخلاص فى العمل ضرورى جدا فى كل أمر يتولاه الإنسان ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول قال " إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم "[٢].

والصدق فى الأقوال والأفعال ضرورى جدا ؛ لكى يكون الإنسان قريبا من الله ، وقريبا من الناس ، وهو يتنافى مع الرياء والنفاق والكذب .

---

(١) إسلامنا ص٣٦ .
(٢) رواه مسلم .

والإخلاص وثيق الصلة بالدعوة إلى الحق والإنصاف ، وإقامة العدل بين الناس جميعا، وهو يتجلى عند المرأة فى كل ما تنهض به، وتقبل عليه، قال رسول الله ﷺ : "طوبى للمخلصين الذين إذا حضروا لم يعرفوا .. وإذا غابوا لم يفتقدوا ... أولئك هم مصابيح الهدى تتجلى عنهم كل فتنة ظلماء"(١) .

خاتمة البحث:

بعد أن عشنا فى رحاب القيم الدينية العظيمة ، والتى كانت المرأة معنية بها نستطيع أن نقرر ونؤكد هذه الأمور تحديدا.

١ ــ الحرص على القيم الإنسانية ، والتوجه بها إلى المرأة توجها مباشرا قولا وعملا .

٢ــ نبذ العادات البالية ، والتقاليد الشاذة (الوافدة غير المقبولة) والبدع المستحدثة التى لا أصل لها فى العقائد والأديان ، ولا قيمة لها بين عناصر المجتمع .

٣ ــ التمسك بالأخلاق الدينية الحميدة ، والعادات الاجتماعية الحسنة.

٤ــ العناية بقضايا المرأة خاصة التى لم تنل حظا من التعليم أينما وجدت فى الريف أو فى الحضر ، وذلك بتوجيه البرامج الدينية والثقافية والاجتماعية لها من خلال وسائل الإعلام المختلفة ، والتى تخاطب تفكيرها ، وحدود معارفها فى التعامل مع الآخرين.

---

(١) رواه البيهقى عن ثوبان .

٥ ــ إبراز هموم المرأة المعاصرة أملا فى الوصول إلى حقائق ثابتة ، ونتائج قابلة للتنفيذ سواء فى دور العلم من مناهج وطرق تدريس وتربية حديثة تتواكب مع النظريات والمبادئ الأصيلة ، أم فى الحياة العامة التى نأمل أن تكون امتدادا لحياتنا العلمية ، فليس للمؤتمرات التى تعقد فى المدرجات الجامعية وقاعاتها المختلفة أى اتصال مباشر بهموم لمرأة إلا من خلال وسائل الأعلام ، كبرنامج تلفازى ، أو مقالة فى جريدة ، أو مساحة فى شبكة معلوماتية ، فكل ذلك يعود بالطبع إلى المرأة وهمومها المعاصرة ، فتقرؤه ، أو تستمع إليه وتشاهده مما تنعكس آثاره الإيجابية على البيئة والمجتمع ٠

٦ ــ لابد من تنمية الشعور الدينى عند المرأة ، حتى تكون قدوة للأبناء والبنات ،ومنارة لطريق الزوج ، ولابد أيضا أن يكون إيمانها بكل المعانى النبيلة متأصلا فيها ، ونابعا منها ، فتشارك فى الأعمال الخيرية بالمجتمع ، وتنبذ العنف والتطرف فى أساليب الحياة وتأخذ بأيدي الضعفاء والمرضى إلى طريق التقوى والإيمان ٠

٧ ــ إن الحديث عن القيم الدينية على التفصيل والإجمال لا معنى له إذا لم تكن المرأة على استعداد فطرى (أوّلاً) للإيمان بها ، وحتى يكون التطبيق الإيجابي متواكبا وفعالا ومعبرا عن الشخصية السوية للمرأة العربية فى حياتها المعاصرة٠

باحثة البادية

ودورها الرائد فى إصلاح الأسرة والمجتمع(*)

العصر والحياة :

عاشت ملك حفنى ناصف فى مرحلة من تاريخ مصر ، شهدت تغيرا كبيرا فى الحياة الاجتماعية، والحياة السياسية، والحياة الأدبية ، وظهرت فيها مجموعة من العلماء الأفذاذ والنساء النشيطات كان لهم دور بارز فى تفعيل الحركة الثقافية والفكرية ، وامتد هذا الدور ليلقى بظلاله على الأدب شعرا ونثرا مما أحدث دويا هائلا فى داخل البلاد وخارجها، خاصة أن الدعوة لهذه النقلة كانت وثيقة الصلة بما أحدثته المرأة فى أوربة من مشاركة للرجل فى كل شؤون الحياة علما وعملا.

وقد بدأت بواكير هذا التحول فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بجهد شاب أزهرى هو رفاعة رافع الطهطاوى الذى كان مرافقا لبعثة عسكرية إلى فرنسا مدة خمس سنوات (من عام ١٨٢٦م إلى عام ١٨٣١م) لكنه لم يقصر نشاطه على الوعظ والإرشاد الدينى؛ إذ تحول إلى باحث ومنقب عن كل جديد يقتنع به، ويراه صالحا للتطبيق فى وطنه، ثم أفرغ كل ما فى جعبته بعد ذلك عندما أوعز الخديوى إليه بتأليف كتاب فى التربية، وذلك عند افتتاح أول مدرسة لتعليم البنات،

(*) بحث مقدم إلى المؤتمر الخامس للمرأة والبحث العلمى فى جنوب مصر (المرأة العربية والإبداع) والذى عُقد أيام الخامس والسادس والسابع من أبريل عام ٢٠٠٥م بجامعة أسيوط.

فقدم رؤيته فى كتاب بعنوان (المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين) أما عائشة عصمت التيمورية (١٨٤٠ ــ ١٩٠٢م) فكانت من أقدم الرائدات فى الدعوة إلى تعليم البنات، وسبقت قاسم أمين فى هذه الدعوة باثنتى عشرة سنة ، وجاءت بعدها فى النشاط النسائى باحثة البادية ، واتخذت التيمورية من الفن الأدبى شعرا ونثرا أداة لنشر إبداعاتها ومشاركاتها فى الحياة العامة، وكانت مختلفة تماما فى الرؤية والأداة عن باحثة البادية وعن (مىّ) زيادة: إذ كانت (ملك) صاحبة دعوة شاملة لقضايا النساء عموما، بينما كانت (مى) أديبة بارعة تعطى جرعات كبيرة ووثبات رائعة للخيال والعاطفة، أما عائشة فلم تتحمس للدفاع عن مشكلات اجتماعية محددة، وإنما انصرفت لهموم آل تيمور ورثاء من مات منهم ، وتهانى الخديو عند إيابه إلى مصر وعودته سالما فى صحة وعافية ٠

وتركت ديوان شعر، وكتابا فى النثر، ورواية أدبية تُعَدُّ وثيقة مهمة فى ولادة هذا الفن بمصر ٠

ولما كانت (ملك) معاصرة لمى، فقد ربطت الصداقة بينهما رغم اختلاف المشارب بين واحدة وأخرى، فملك صاحبة دعوة إلى الإصلاح ومى أديبة عاطفية شغلت بصالونها الأسبوعى، واجتماع زعماء الأدب والفكر والفلسفة فيه، لكن الأدوات الفنية جمعت بينهما بنسبة محدودة ، وما عدا ذلك فكان لكل واحدة رؤية خاصة بها، ومن هنا كان تأثر الواحدة بالأخرى تأثرا محدودا ٠

وتختلف هدى شعراوى (١٨٧٩م ــ ١٩٤٧م) عن هؤلاء جميعــا فلم يكن الأدب شعرا ونثرا هو موضع العناية لــديها ، وإنمــا كانــت الحركة والفعل هو لب النشاط عندها، ولما كانــت (ملــك) فــى أوج نشاطها وقمة تألقها كانت هدى فى مرحلة مخاضها الفكرى وتكوينهــا السياسى، إذ كان زوجها (على شعراوى باشا) من أعيان صعيد مصر يمارس نشاطه السياسى فى معية سعد زغلول، ثم انشق عليه، وتبعتــه بعد فترة زوجته (هدى)، واستثمرت موقعهــا الاجتمــاعى المرمــوق استثمارا فاعلا، وتمخض جهدها عن نتائج ملموسة فى المساعى التــى كانت تهدف إليها، وظهرت كلها بعد وفاة (ملك) بوقت طويل ٠

وقد تأثرت (الباحثة) بعــدد غيــر قليــل مــن رواد الإصــلاح الاجتمــاعى مثــل عبــدالله النــديم (ت١٨٩٦م) ومصــطفى كامــل (ت١٩٠٨م) ، والشيخ محمد عبده (ت١٩٠٥م) وغيرهم٠

ويظهر فى هذه المرحلة من تاريخ مصر علم من أعــلام الفكــر والدعوة إلى مزيد من الحرية للمرأة، وهو قاســم أمــين (ت١٩٠٨م) وتعانقت آراؤه فى كتابين مشهورين له، وهما: (تحرير المرأة) (صدر عام ١٨٩٩م) والمرأة الجديدة (الصادر فى عام ١٩٠١م) ٠

وقد عنيت (ملك) بعده بإنهاض المرأة، لكن مذهبها فى الإصلاح كان مختلفا عما سعى إليه (قاسم) بعد عودته من الخارج ، وقد تحدثت (ملك) عن نفسها معلنة فى صراحة وصدق أنها ليست مقلــدة لــه ولا مؤمنة بكل ما دعا إليه، كما أنها ليست بالصورة التى رميت بها مــن أنها مؤمنة، أو تابعة لآراء المفكرين الغربيين ٠

أما أقرب الناس إليها فهو والدها (حفنى ناصف) الذى كان له الفضل عليها فى توجيهها وتمكينها من القراءة المبكرة، والتعليم المنظم، والكتابة فى الصحف والمجلات، والمشاركة الفعالة فى معالجة قضايا الأسرة والمجتمع، وقد ولد حفنى ناصف فى بركة الحاج ، بمحافظة القليوبية عام ١٨٥٦م، وحفظ قدرا من القرآن الكريم، ثم التحق بالأزهر، وأتم دراسته فى دار العلوم ، وعمل مدرسا بالحكومة، ودرس القانون وعين قاضيا، حتى صار وكيلا لمحكمة طنطا الأهلية ، وانتدب لتدريس الآداب بالجامعة المصرية، وترقى إلى أن صار كبيرا لمفتشى اللغة العربية، حتى وصل إلى الستين، ولما ماتت ابنته (ملك) حزن عليها ومات بعدها بوقت قصير، إذ توفى في القاهرة فى الخامس والعشرين من فبراير عام ١٩١٩م بعد حياة حافلة بالنشاط والحركة، وترك عددا من المؤلفات التى بقى بعضها مخطوطا مع أهميته فى التعرف على طبيعة الحياة الثقافية والعلمية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ٠

ملك حفنى ناصف فى حياتها القصيرة بين التعليم والتثقيف :

لقد ولدت (ملك) فى مرحلة صاخبة من عمر الأمة المصرية، وفى عصر الرواد العظام الذين أثروا الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية بالكثير من الآراء التى كان لها أثر عظيم فى إحداث النقلة الكبيرة فى حياة المرأة العربية والإسلامية، لكن القدر لم يمهلها؛ لكى تستكمل مسيرتها الرائدة والمتميزة ؛ لأنها كانت تتعامل مع الأحداث بالنقاش الحر والكلمة الأمينة والإقناع الهادئ حسب مقتضى الحال ،

وكانت (ملك) ميالة بطبعها إلى الانتقال بتأن وروية من مرحلة زمانية إلى أخرى تالية لها، ولم تفضل التحول السريع فى التعامل مع همـوم المرأة التى تنعكس بالعديد من الصور والممارسـات علـى المجتمـع المدنى البسيط.

وكانت ولادتها فى بيت علم وأدب بضاحية من ضواحى القاهرة فى شهر ديسمبر عام ١٨٨٦م ، ولم تتوقف رغبتها فى تلقى العلم عند حدود المتاح، وإنما انطلقت بلهفة عارمة إلى خارج المنزل؛ لتحصـيل الثقافة أينما وجدت، فبدأت التعليم أولا بالمدارس الفرنسية، ثم ألحقهـا والدها بمدرسة السبتية الابتدائية (القسم الداخلى)، والتـى كانـت فـى السيوفية، ثم نقلت إلى موضعها الحالى، ونالت منها الابتدائية بعد أربع سنوات، فى عام ١٩٠٠م فى أول سنة تقدمت فيها الفتيات المصريات؛ للحصول على هذه الشهادة، ثم ظفرت بدبلوم المعلمـات بعـد ثـلاث سنوات وسنتين دراسيتين للتدريب من القسم الخاص بهذا التعلـيم فـى المدرسة المذكورة، وتولت الكثير من شؤون البيت، لأن المرض أقعـد أمها وعملت مدرسة ابتدائية (حكومية) ، وانطلق قلمها فـى الصـحف والمجلات يصول ويجول معبرا عن القضايا التى آمنت بها، وتحمست لها، ودافعت عنها، وكانت مصر آنذاك تموج بالعديـد مـن القضـايا والآراء التى أشعل جذوتها جيل الرواد الكبار .

وبدأت تحتل مكانة سامقة بين المفكرين العظام ، الذين كان لهـم تأثير كبير فى بعث النهضة والدعوة إلى مشاركة المرأة فـى الحيـاة العامة .

ولم تكتف بالتعليم النظامى فاتجهت إلى تثقيف نفسها منذ الطفولة، وتعلقت باللغة العربية وأحبتها، فأسهم ذلك فى اتساع مداركها ورحابة أفقها، وقد كتب عنها عبد السلام العشرى فقال: وكانت (ملك) منذ صغرها مشغوفة بالعلم، فعلمت نفسها بنفسها، واتجهت إلى اللغة العربية تجيدها وتحفظ شعرها ونثرها، وتزهى بما حفظت ، وتلقيه على زميلاتها الصغيرات فَيَسِمْنَهَا بالذكاء والقدرة ... وقد أعجبت بالشعر الرصين، وأحبته، ومالت إلى شعر الرثاء والحكمة ، وتأثرت به وتمثلته . ولم تزل تحفظ من الشعر جده وهزله، وتعارضه حتى بلغت الحادية عشرة، فنطقت فى هذه السن المبكرة بقصيدة رصينة تنتصر فيها للنساء ، وتذكر أنهن ساوين الرجال٠

ولم تزل تعلم نفسها بنفسها واجدة فى ذلك لذة، فرحة كلما أضافت إلى ثقافتها جديدا، حتى أجادت اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وألمت بالكثير من أبحاث الاجتماع والفلسفة والعلوم"(١)٠

وتزوجت عام ١٩٠٧م واحدا من أثرياء الفيوم هو عبدالستار الباسل زعيم قبيلة الرماح ، واستقالت من العمل فى التدريس، وعكفت على القراءة والتأليف، ومتابعة الحياة الثقافية والفكرية، والمطالبة بحقوق المرأة وتقديم النصائح لها، وحضور الاجتماعات والاتصال بالقرويات، بدون ضجيج وصخب، فكانت حركتها هادئة ، ودعوتها صائبة، وأقوالها صادقة، وآراؤها معتدلة ٠

---

(١) باحثة البادية ــ عبدالسلام العشرى صــ٢١ (أكتوبر ١٩٨٥م) ٠

وعلمت بأن زواجها كان على ضرة، وضرر، وبعيدا عن بيـــت أبيها، فتحملت آلام النفس فى هدوء وصبر، وضربت المثـــل للنســـاء القرويات فى العناية بالبيت، وبينت لهن كيف يكون الاهتمام بـــالزوج والأبناء، ولم تنقطع عن المشاركة بالرأى شعرا ونثرا فـــى الصـــحف والمنتديات، وبقيت على جهادها بالكلمة المـــؤثرة والفعـــل الإيجـــابى، وتبادل الرسائل مع مى زيادة وغيرهـــا، إلـــى أن أصـــيبت بـــالحمى الأسبانية، وماتت فى القاهرة يوم السابع عشر من أكتوبر عـــام ١٩١٨ عن اثنتين وثلاثين سنة، وهى فى ريعان الشباب ٠

أولا ـ دعوتها إلى الإصلاح :

لم تكن حياة ملك ــ على قصرها ــ نمطا ثابتا ومنهجا تقليـــديا، وإنما كانت دعوتها نابعة من حبها لدينها ووطنها؛ إذ جمعت فيها بـــين القول (المذهب) والعمل (القدوة) لغيرها فلم تعش كـــل حياتهـــا فتـــاة فتزوجت، وعركتها الحياة فكانت زوجة لمتزوج وعاشت فى المدينـــة وفى أعماق الريف، وحرصت علـــى إقنـــاع الآخـــرين والأخريـــات بالخطابة والكتابة والرسالة والشعر، وبدأت دعوتها مبكرة جدا مأخوذة فى تصرفاتها بتأثير والدها عليها؛ إذ أتاح لها حياة ثقافية خصبة ، ثـــم توقفت دعوتها عندما ماتت فى مرحلة مبكرة من حياتها، وكانـــت قـــد شاركت فى الحياة العملية، واحتكت بقضايا الأسرة، وتوجهت بآرائهـــا إلى المرأة والرجل وهكذا كانت رؤيتها نابعة من الواقع ومعبرة عنـــه، ولذلك لم تحدث ضجة إصلاحية كغيرها من الرائدات؛ لأن برنامجهـــا

المتكامل فيما يخص الأسرة والمجتمع كان أكثر اعتدالا وأقل ثورية، وأعلى صوتا، وأفضل معايشة لواقع الحياة ٠

ثانيا ـ رؤيتها عن تعليم الفتيات :

كانت دعوة (ملك) إلى تعليم الفتاة صريحة مباشرة، وقد تحمست لهذه القضية بعد أن تيسر لها ما لم يتيسر لغيرها، وأضاء والدها طريقها ، لتسير على هدى وبصيرة؛ وتظفر فيه بالعلم النافع السديد؛ وحتى تنهل من ينابيعه مثل الفتيان تماما، وخرجت إلى المدرسة لتلقى العلم، ولم يكن ذلك مألوفا للفتيات فى المجتمع المصرى إلا عند قلة من الأثرياء خاصة فى نهاية القرن التاسع عشر، بل إنها خرجت من البيت لتلقى مبادئ العلوم قبل دخولها المدرسة، ووجدت فى مكتبة أبيها ماشجعها على القراءة فى مرحلة مبكرة من حياتها، ولم يتوقف طموحها فى تلقى العلم عند مرحلة معينة، فبعد حصولها على الابتدائية انتظمت فى الدراسة بقسم للمعلمات بالمدرسة مدته خمس سنوات ، وبعد أن عملت بالتدريس لم تكن نمطية فى وظيفتها، وإنما اتبعت منهجا ينم عن إيمانها بالرسالة المنوطة بها، وهذا بعض ما تحدث عنه الأستاذ عبدالسلام العشرى؛ إذ قال .. "وأصبحت مثال الجادة ذات الفكرة الناضجة والأدب الجم، فانتزعت إعجاب المفتشين وتقديرهم، ثم رأت أن توسع دائرة رسالتها بالدعوة إلى تعليم الفتاة، وإقناع من يتخوفن من تعليمها، فجعلت تطوف بمنازل معارفها وصديقاتها، وتقنعهن بأن بناتهن سيكن تحت رقابتها الخاصة، فدفع الكثيرات ببناتهن إلى المدرسة، حبا فى ملك ، وثقة فى إخلاصها وهمتها، وكان

نجاحها هو المثال الذى لا يحتاج إلى برهان"[١]، وقد نادت بأن يكون التعليم الأولى إجباريا، ولم تستر توجهها الدينى، فطلبت بإلزام المدارس بتعليم الدين الإسلامى وخروج المرأة لحضور الصلاة، وسماع المواعظ، وأن يكون فى كل مدرسة مرشدة دينية تراقب تصرفات الفتيات ، وتوجههن إلى جادة الصواب والالتزام بتعاليم الشريعة الغراء .

وبينما كان تعليم الفتيات فى بداية حياة (الباحثة) منحصرا فى غالبه على الفتيات الأجنبيات أخذ أعداد المصريات يتزايد يوما بعد يوم، مع الارتقاء بالتعليم وزيادة أعداد المدارس فى شتى أنحاء الوطن.

وجاء فى الكتاب الذى يجمع آثارها وهو من إعداد مجد الدين حفنى ناصف ما يلى:

"فهى إذن الرائدة الأولى فى تعليم البنات ، كما كانت الرائدة الأولى فى رد اعتبار المرأة وتحسين حال الأسرة، وهى التى وضعت الأسس المتينة لمتابعة البحث والإصلاح لمن لحق بها من المصلحات والمصلحين"[٢].

(١) السابق صـ٢٠ .
(٢) آثار باحثة البادية ــ جمع وتبويب مجدالدين حفنى ناصف صـ٥٦ نشر الدار القومية العربية للطباعة .

وقد تمكنت من الجمع بين استمرار طلب العلم والزواج، ولم يكن ذلك محببا لديها ، ولكنها ضربت المثل لكثير من النساء فى عصرها كما قال أخوها (مجدالدين) : "وفى سبيل الدعاية لتعليم الفتاة، وخشية أن يقال إن أول امرأة تعلمت لم تستطع أن تكون زوجة طيبة؛ لأن التعليم أبعدها عن البيت، تحملت على مضض العنت المبرح الذى كانت تلقاه فى بيت الزوجية أكثر من إحدى عشرة سنة حاولت فى خلالها أن تعيش عيشة الراهبات القانتات اللائى يعتزلن الدنيا، ويفنين فى سبيل تحقيق المثل العليا، ولو أقض مضجعهن ليلا ، وأمض عيشهن نهارا"[١].

وقد أعطت (الباحثة) التعليم عناية خاصة فتحدثت عن كل ما يتصل به فى المدرسة أو فى البيت وفى الواقع المعاش أو فى المستقبل المأمول ، وهو ما تحدثت عنه، وكررت القول فيه بإيجاز مرة وبتوسعة مرة أخرى، وفى أمكنة متعددة حسب مقتضيات الأحوال.

وجاء فى حديث لها بإحدى المؤتمرات بمصر الجديدة، والذى عقد فى عام ١٩١١م بدار سينما روكسى الشتوية مجموعة من الوصايا التى تمنت أن يصدر بها تشريع فى عشر نقاط اختصت التعليم بنصفها وهى :

١ - تعليم البنات الدين الصحيح، أى تعاليم القرآن والسنة الصحيحة.

---

(١) السابق صـ٦١ .

٢ – تعليم البنات التعليم الابتدائى والثانوى،وجعل التعليم الأولى إجباريا لجميع الطبقات•

٣ – تعليم التدبير المنزلى علما وعملا وقانون الصحة وتربية الأطفال والإسعافات الطبية الوقتية •

٤ – تخصيص عدد من البنات لتعلم الطب بأكمله، وكذلك فن التعليم حتى يقمن بكفاية النساء فى مصر •

٥ – إطلاق الحرية فى تعليم غير ذلك من العلوم العالية لمن تريد[١] وهذه هى التوصيات الخاصة بتعليم الفتيات فى الوقت الذى كان خروجهن للتعليم قاصرا على أبناء طبقة محدودة من أبناء الشعب، والملاحظ أيضا أن التعليم الذى دعت إليه ملك كان متنوعا بين تدبير منزلى، وطب وعلوم حسب المتطلبات الاجتماعية فى ذلك الوقت•

وكشفت هذه التوصيات عن بيان (الباحثة) حول تأكيد أن التعليم ليس تقليدا للغرب، ولكنه نابع من الماضى والحاضر، ومستمد من الدين والعادات والتقاليد الصحيحة•

وتكرر حديثها عن هذا الموضوع فى خطبة بدار الجريدة[٢]، وفى حضور مئات من السيدات، ونشرت بهذه الصحيفة أيضا تحت عنوان

---

(١) آثار باحثة البادية صـ٥٣ ، ٥٤ •

(٢) الجريدة : صحيفة كان يصدرها حزب الأمة ويرأس تحريرها أحمد لطفى السيد وانظر كتاب تاريخ الأدب العربى ـ أحمد حسن الزيات صـ٤٥٩ •

(أول خطيبة مصرية) [١] وجاء عرض هذه الأمور بين المطالب التى قدمتها الباحثة للمؤتمر المصرى بهليوبوليس سنة ١٩١٠م ، وانتقدت كل ما يتصل بتعليم الفتيات مثل وسائل المواصلات الخاصة بهن ، والمناهج المقررة عليهن، والتربية المطلوبة لهن ، والمظاهر الخارجية الملائمة لأوضاعهن فى المدرسة، والتى تختلف عما يلبسنها فى منازلهن[٢].

وتؤكد كل هذه الأمور فى خطبها ومقالاتها وندواتها وردودها على المخالفين لها ؛ إذ كانت شديدة الاهتمام والعناية بتعليم الفتيات مع حداثة سنها، وقلة خبرتها بالنظر إلى غيرها، وبساطة الحياة فى زمنها، فآراؤها ودعواتها فى هذا الموضوع مع طول العهد بها مازالت حية خالدة وجديرة ببحثها والحفاظ عليها والتمسك بها، وكأن الباحثة تستشرف المستقبل عندما أوضحت مخاطر الأم الجاهلة، وحتمية أن يكون تعليم الفتاة شاملا لكل شيىء وبخاصة ما اتصل بأمور بيتها مما يحفظ كيان الأسرة، ويتصدى لكل ما يعرضها للأخطار والنكبات فى شتى نواحى الحياة .

---

(١) انظر كتاب (آثار باحثة البادية) صـ٧١ ، ٨٨ .
وجمع ما نشرته بالجريدة فى كتاب لها عنوانه (النسائيات) وكتب مقدمته أحمد لطفى السيد.
وشرعت فى آخر حياتها تؤلف كتابا عنوانه (أخبار النساء) أنجزت منه ثلاث مقالات، وماتت دون إتمامه .
(٢) انظر كتاب آثار باحثة البادية صـ٨٩ ، ١٤٣ ، ١٦٠، ١٩٧ .
وانظر كتاب (باحثة البادية) لعبدالسلام العشرى صـ٤٥ .

ثالثا ـ العمل المفيد للأسرة والمجتمع :

تخرجت (ملك) من مدرسة المعلمات وحصلت على إجازة التدريس، وعملت بتعليم البنات فى المدارس الحكومية ، ولما جاء موعد زواجها استقالت من عملها، وحزنت لذلك تلميذاتها، وفكر الكثير منهن فى ترك التعليم، إلا أنها أقنعتهن بالبقاء، وعكفت بعد الزواج على الكتابة والتأليف والدعوة إلى نهوض المرأة، وتحريرها من الجهل والتخلف.

وأكدت أن العمل الشريف حق للمرأة، وأهم ما يجب عليها أن تفعله هو رعايتها لزوجها وأطفالها، أى أنها تختلف عن الرجل فى هذا الأمر، مع ثبوت حقها ورسالتها فى الحياة بصورة شريفة لا تسيىء إليها ، ولا تنقص من قدرها، ولا تقلل من شأنها، فإذا دعت الضرورة بأن تخرج من بيتها للعمل خارج منزلها فلها ذلك، ومما قالته فى تحديد موقفها من رسالة المرأة فى الحياة، وأهم ما يجب عليها أن تنهض به :

مجدُ الفتاة مُقامها ∴ فى البيت لا فى المعمل
والمرء يعمل فى الحقو ∴ ل وعرسه فى المنزل
كم خدمة يقضى نظا ∴ م البيت إن لم تعمل
من للوليد يعينه ∴ فى لبسه والمأكل
ويميط عنه أذى الهوى ∴ بتلطف وتخيل
من للرضاعة والحضا ∴ نة والنظام وما يلى

مـــن للمـــريض يحوطـــه ∴ أبـــدا بـــدون تململ

يجرى علـى وصـف الطبيـ ∴ ب علـى الطريـق الأفضـل

وقالت :

لكــن إذا دعـــت الضـــرو ∴ رةُ للخـــروج فَحَيْهَلِـــى(١)

وقد طال نفس (ملك) فى هذه القصيدة فبلغت ستين بيتا، ومع أنها من الشعر التقليدى التعليمى الذى ليس فيه روح القريض، لكنه يكشف عن إحساس قائلته، وأنها امرأة تعرف رسالتها الحقيقية فى البيت قبل أى موقع أخر ما دام لديها ما يكفيها ولا تحتاج لشيئ سواه٠

رابعا ـ إصلاح الأسرة :

يبدأ بناء الأسرة باختيار كل فرد للآخر عند الزواج، فإذا اختار الشاب الفتاة التى سيتزوجها، فلابد أن توافق، وأن تقتنع بمن اختارها؛ لأن الإرغام والقسر فى هذه القضية لا يسفر إلا عن مزيد من التوابع والزوابع التى لا داعى لها من الأساس ، وأن جوهر الإصلاح للبناء السليم للأسرة يبدأ من التعليم والتوعية الصحيحة والتربية السليمة، التى تتفق مع الشرائع والأعراف والتقاليد ، فانتقدت الإكراه والخداع والتدليس فى الزواج ، وهاجمت كل استبداد للرجل بالمرأة، وأن أى إصلاح للمجتمع لابد أن يبدأ بالأسرة، وقد نبعت آراؤها من معايشتها للواقع، وخاطبت المرأة أينما كانت ، وتزوجت، ولم تنعم بذرية ، وأن

---

(١) آثار باحثة البادية صـ٢٩٩، ٣٠٠ ٠

سلوك الزوج لم يكن سويا ، فتعاملت مع الواقع بصورة فريدة ومتميزة، وأكدت أن تعدد الزوجات ــ بدون داع ــ يجلب هما للأسرة وكرها بين الإخوة والأخوات غير الأشقاء، كما هاجمت المصاهرة بالأجانب والمباهاة والإسراف فى الزواج، وخاصة المرأة، وانتقدت كراهة الزوجة لأقارب الزوج، وميلها للأثرة والأنانية ، ونادت بإصلاح المرأة ، وإصلاح الرجل أيضا، وأعطت معظم اهتمامها لمشكلات الأسرة كسن الزواج، ومساوئ المرأة، وعيوب الرجل وغيرها من الأمور التى تؤثر سلبا فى البناء الاجتماعى ، ومن كتاباتها عن قضية الزواج وهموم الأسرة المصرية فى بداية القرن العشرين ، قولها عن المصاهرة بين الترك والمصريين : "وإن من يتصفح تاريخ المرأة المصرية الحديثة يرى أنها كانت مظلومة مهضومة الحقوق، ففى عصر إسماعيل هجم علينا جيش من الشركسيات انهزمنا أمامه، وخرج ظافرا منا بأحسن رجالنا فلم يكن شريف أو نابه بمصر إلا وأم ولده جارية شركسية من شراء إسماعيل"(١).

ثم انتقدت زواج المصريين بالأوربيات، وربما كان ذلك بسبب جهل المصريات، لكن بعد أن تبدل الحال وصار من المتعلمات من يصلحن للزواج بأبناء جلدتهن، أصبح الزواج من غيرهن عارا؛ لأن معناه أن ينظر الشخص إلى ما فى يد غيره وعنده أحسن منه، ولأن

---

(١) رائدات الأدب النسائى ــ أميرة خواسك صـ٦٨ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

تشعب أجناس أمهات المصريين يجعل حياتهم مليئة بالفشل، وإضاعة للوطنية بسبب المصاهرة بالأجنبيات.

وكتبت عن تعدد الزوجات وأثره فى إفساد الأبناء وكان ذلك واقعا أمام عينيها، فقالت: "لأنى رأيت بنفسى أن كل ضرة تطبع كراهيتها لضرتها فى نفوس أولادها فيشب الطفل وقد أشرب كره أخوته لأبيه وأمهم بلا مسوغ سوى ما زرعته أمه فى عقله من مبادئها[١] .. وذكرت أن أبناء الرجل الواحد يغارون ويحسدون بعضهم البعض كما علمتهم أمهاتهم .

وقد واصلت الكتابة عن الزواج وعما يجب مراعاته فى الخطبة وغيرها من الأمور المتصلة بهذه القضية .

ولم ترض أن تتزوج الفتاة إلا بعد سن السادسة عشرة، وكتبت مقالة طويلة عن السن الملائمة للزواج جاء فيها : " إن الزواج ليس بالشئ الهين ولا هو بالهزل ، تظن الفتيات الصغيرات والراشدات أيضا أن الزواج معناه ضرب الموسيقى ونصب السرادق ليلة العرس، ولبس الحرير والماس، والمباهاة بالأثاث والأوانى الفضية، وغير ذلك من ضروب الفخر الكاذب والطنطنة الفارغة . ليس هذا هو الزواج يا سيدتى الصغيرة، بل هو إرضاء الزوج وحسن القيام على ماله وتدبير بيته ومواساة أهله ، وتربية أولاده ورئاسة خدمه، فهل تستطيعين كل ذلك ؟ لا أخالك تستطيعين"[٢].

---

(١) السابق صـ٧٣ .
(٢) السابق صـ٧٥ .

وقد أعطت ــ الباحثة ــ الزواج أهمية كبيرة وحذرت من اختلاف وخصومات أرباب الأسر ، كما أشادت بأهمية الثقة بين الزوجين ، ودعت إلى أهمية تنبيه الزوجة لزوجها عندما تستشعر منه ميلا أو انحرافا، وللأولى لها أن تعترض عليه، وتفترض حسن الظن فيه، وذلك أمر سهل لمن تبتغيه ، وكتبت مقالا عن مجموعة من مبادئ النساء التى يجب عليهن مراعاتها وعدم الاستسلام لأهواء النفس مثل بغض أقارب الزوج والأنانية والأثرة التى تتصف بها كثير من النساء، ثم عرضت لأخطار وأضرار كراهة الزوجة لأقارب زوجها وأنه يجعل الأولاد يحبون أبناء أخوالهم أشد مما يحبون أولاد أعمامهم، وذلك ناشىء عن حب أمهم لأقاربها وبغضها لأقارب زوجها، فضلا عن أن أقارب الزوج يحبون الرقابة على امرأة قريبهم وهى تكره الرقابة والتقييد .

تقول الباحثة : "على أنى لا أفهم كيف تزعم المرأة أنها تحب زوجها، ثم هى تبغض أقاربه، إن هذا تناقض غريب ، فإذا كان ادعاؤها هذا حقيقة وجب أن تحبهم، وتحتمل من أجله كل صعب مهما كلفها ذلك الاحتمال"[١].

وقد تحدثت عن حال المرأة، وأحسنت التوجيه للقرويات ، وكتبت فى شجاعة وصراحة ــ تنم عن صدق فى التجربة والمعايشة ــ عن مساوئ المرأة مثل تفريق الأسرة، والغيرة العمياء، والإسراف،

---

(١) السابق صـ٨٢ .

والتوفير السرى، وسرعة الغضب، والتهديد بالفراق، وعيب المصالحة بالترضية، وتقليد المرأة الأجنبية، والكسل والخلاعة، والتعلق بالسحر والشعوذة ، وإهمال الأطفال[1] إلى غير ذلك من الأمور التى سبقت الإشارة إليها، كما تحدثت عن مساوئ الرجل مثل الطمع فى مال الزوجة والرغبة فى الزواج بالثرية، والظلم والتكبر، وبالزواج بدون داع بأكثر من واحدة ، وغير ذلك من الأمور الى تحدثت عنها بعدل وإنصاف ٠

لقد كان عرض الباحثة لمشكلات الأسرة بدءا من الزواج إلى المسئولية المشتركة عن البيت والأبناء، كان عرضا شاملا ينم عن خبرة وتجربة ويجعلها ــ بلا شك ــ رائدة فى تأسيس الأسرة وتربية الأبناء وإصلاح المجتمع ٠

إن دور المرأة فى الحياة كان أهم قضية عرض لها المصلحون؛ لأنهم اعتبروا أن علاقتها بزوجها وعلاقتها بأبنائها وعلاقتها بأفراد المجتمع على اختلاف درجاتهم أهم ما ينبغى الاهتمام به والتركيز عليه، وهم يتابعون حركة المرأة فى الحياة، وانتقالها من ظلام الجهل والرجعية والتخلف إلى أنوار العلم والتقدم والتفاعل مع الحياة، فقد كتب قاسم أمين عن الواجب على المرأة لنفسها وعن الواجب عليها لعائلتها، وهذا وذاك أهم ما يناط بها فى حياتها الجديدة ٠

---

(١) انظر كتاب باحثة البادية لعبدالسلام العشرى صـ٣٨ وما بعدها ٠

خامسا : الحجاب والسفور :

أحدثت آراء قاسم أمين رجة وهزة عنيفة فى المجتمع المصرى، بعد أن عاد من غربته، وبعد أن نشر كتابيه المشهورين، ثم تحمست النساء لهذه الدعوة خاصة ممن كان لهن صوت مسموع فى الاجتماعات والمؤتمرات والأندية الثقافية فى داخل الوطن وخارجه.

وقد كثر الجدل والنقاش واحتدم الخلاف فى الوقت الذى كانت فيه (باحثة البادية) مشغولة بقضايا المرأة وإصلاح الأسرة، ولكنها لم تلق بالا، ولم تشغل نفسها بموضوع سفور المرأة ؛ إذ رأت أن الوقت غير ملائم له، ولم تطالب برفع الحجاب بل إنها سخرت ممن يثيرون هذا الموضوع، معتبرة ذلك قضية فرعية أى أنها بصريح القول اعترضت على سفور المرأة فى ذلك الوقت ، والمعلوم أن الحجاب الذى طالب الكثيرون برفعه هو القناع أو النقاب الذى تغطى فيه المرأة وجهها ورأسها .

أما السفور فهو كشف المرأة لوجهها حتى لو غطت رأسها، وقد احتدم النقاش بين السفوريين والحجابيين ولكل وجهة هو موليها، واستمرت المعركة بين هؤلاء وهؤلاء مدة طويلة بعد أن نشر قاسم أمين كتابيه ، وأسهم فى سخونة النقاش وارتفاع درجة حرارته دخول بعض النساء الشهيرات الساحة، وهن صاحبات مكانة اجتماعية وسياسية مرموقة مثل السيدة هدى شعراوى، والسيدة صفية زغلول، وبعض السيدات اللائى كن يوقعن فى الصحف ويبدين الآراء بأسماء مستعارة .

وقد أوضحت (ملك) رأيها فى الحجاب من ردها على خطبة ألقاها حضرة عبدالحميد أفندى حمدى[١] ونشرها فى (الجريدة) ، واستهلت الحديث فى هذا الموضوع بضرورة تعليم المرأة تعليما صحيحا ، وذكرت أنها تنتقد السفور من الوجهة الاجتماعية، وليس من النواحى الدينية أو الاقتصادية أو الأدبية، وهى تحكم فى هذا الموضوع بما شاهدته وعرفته من التجربة لأحوال النساء ، وأن وقار المرأة ونزاهتها راجع إلى التربية، وأن عكس ذلك عائد إلى كثرة الاختلاط وزيادة الفراغ وحياة الخمول والكسل ٠

ولما كان الجهل متفشيا ــ بين النساء فى عصرها ــ وحالات الرجال قريبة من ذلك ــ طالبت بمنع الاختلاط ، خاصة أن طبيعة الإنسان البهيمية تجتاز عقبات التربية وتخترق سياجها كثيرا ٠

قالت : "بقيت مسألة واحدة أجملها إجمالا، وهى المثل القائل (إن الطفرة محال) فنساء مصر متعودات الحجاب، فلو أمرتهن مرة واحدة بخلعه وترك البرقع لرأيت ما يجلبنه على أنفسهن من الخزى، وما يقعهن فيه بحكم الطبيعة، والتغيير الفجائى من أسباب البلاء ، وتكون النتيجة شرا على الوطن والدين، وإذا أردت هدم بناء أفلا تهدمه قليلا قليلا إلى أن يتم الهدم فتبنى على أنقاضه أحسن منه؟!

وقالت .. فناشدتك الله أيها الأديب كيف تأمرنا بالسفور، ونحن إذا مشت إحدانا فى طريق لا تزال تنصب عليها العبارات الوقحة ،

---

(١) آثار باحثة البادية صـ١٨٧ وما بعدها ٠

ويرشقها هذا بنظرة فاجرة، وذاك ينضح عليها من ماء سـفالته حتـى يتصبب عرقها حياء، فمجموع رجال مثل مجموعنا الحـالى لا يصـح بحال أن يوكل إليه أمر امرأة، وتترك عرضة لسـبابه وقلـة حيائـه، ومجموع نساء كنسائنا الآن لا يفهمن إلا ما يفهمـه الرضـيع يصـبح سفورهن واختلاطهن بالرجل بدعة لا انتهاء لشرها[١] .

إذن هى تؤمن بالتدرج فى تقويم الأمور ومعالجة القضايا، وترى أن الأحوال الاجتماعية فى عصرها لا تتوافق مع الاختلاط والسـفور، وأن الفصل فى الأمر يرجع إلى المستوى الأخلاقى والتربوى، وأنهـا ترفض الحجاب بمعنى حجب المرأة فى بيتها وقطـع علاقاتهـا مـع المجتمع؛ لأن خروجها محتشمة وفى وقار لا يتعارض مع الحجـاب، وذلك ما نبهت إليه قائلة: "والخلاصة أن خروجنا بغير حجاب لا يضر فى نفسه إذا كانت أخلاقنا وأخلاق رجالنا على غاية الكمال، وأظن هذا مستحيلا أو بعيد الحصول، فإذا حصل التمازج، وكان على هذا الشرط فلا اعتراض لى عليه ·

وهناك قوم يتشددون فى تقدير الحجاب فيحبسون المرأة مؤبـدا، ويمنعونها من زيارة جاراتها، ويضيقون عليها بحيـث لا تستنشـق إلا هواء بيتها الضيق الدائرة، فتفسد صحتها، وتكسل عن الحركة ، ومنهم من يفتخر بأن امرأته لم تبرح بيتها طول عمرهـا، وهـؤلاء أيضـا متطرفون؛ لأن المرأة لها رجلان يجب أن تتحركا، وعينان يجـب أن

---

(١) السابق صـ١٩٠ ·

تبصرا، فإذا صاحبها أبوها أو أخوها أو زوجها مثلا فى نزهة وأراها محاسن الطبيعة ودقائق الموجودات، وجدد قواها بالحركة، واستنشاق الهواء الجيد وهى بمئزرها متحشمة فلا يخرج ذلك عن معنى الحجاب٠

وقالت : على أن هذه المسألة واختلاف الآراء فيها قاضيها العادل الزمن والمستقبل، فكم من مسألة أبى قوم إلا اتباعها، وآخرون نبذوها نبذ النواة فاختلفوا ، وجاء الزمن مؤيدا فيها لفريق دون فريق فصارت له القوة ورجع له الحق فاتحدوا فيها ٠

ورأيى أن الوقت لم يؤن لرفع الحجاب، فعلموا المرأة تعليما حقا، وربوها تربية صحيحة، وهذبوا النشء ، وأصلحوا أخلاقكم بحيث يصير مجموع الأمة مهذبا، ثم اتركوا لها شأنها تختار ما يوافق مصلحتها ومصلحة الأمة"[١]٠

وهكذا أوضحت الباحثة رأيها — من خلال هذا القدر المنقول عنها — فى تلك القضية التى ارتبطت بحرية المرأة وواجباتها وتربيتها، وصارت الشغل الشاغل للكثيرين والكثيرات؛ إذ رأت أن الوقت غير ملائم لرفع الحجاب، وأرجعت نفاذ الأمر للمستقبل عندما تتغير الأحوال الاجتماعية بما فيها من تهذيب وتقويم لسلوك الرجال والنساء ٠

---

(١) السابق صـ١٩١ ، ١٩٢ ٠

ولعلى تركت كلامها يكشف عن رؤيتها؛ لأن معالجتها للأمر نابع من تربيتها فى بيت علم وأدب ودين، ومن إيمانها الصادق ، ورؤيتها للواقع، وقدرتها على التعبير، وعمق تفكيرها، وموهبتها الفريدة، وتجربتها العميقة، وحركتها بين المدينة والقرية، وكثرة لقاءاتها بطوائف المجتمع، وخاصة النساء ٠

سادسا ـ أدبها توجيهى ودعوتها إصلاحية:

لم يخل بحث أو كتاب يتحدث عن الباحثة إلا أشار إلى أدبها وطرق التعبير عندها، فى عصر لم تتميز فيه إلا القلة من النساء، خاصة أن أديبتنا التى نتحدث عنها عاشت حياة قصيرة خلفت فيها تراثا لم تحققه سواها ممن عشن مرحلة أطول مما عاشت، ولكن موهبتها ظهرت مبكرة، وكانت ريادتها بالقول والفعل مما جعل أدبها حيا نابضا بعد أن مر عليه ما يقرب من مائة عام ، كما أن كتاباتها كانت موجهة إلى الإصلاح الاجتماعى بشكل عام ، مما جعلها تشغل منزلة متميزة، وتحتل موقعا فريدا بين أديبات عصرها مع أنها عاشت طوال أحد عشر عاما فى حياتها الزوجية بريف الفيوم، لكن صلتها لم تنقطع بالقاهرة فكانت وثيقة الصلة بها وتكتب فى الجريدة ، وتحاضر فى الجامعة الأهلية ، وتشارك فى مؤتمرات حزب الأمة، وتراسل مى زيادة، وتعبر بالشعر والكتابة والخطابة مع الالتزام بالقضايا التى آمنت بها، دون أن تتحيز فيها لأحد، حتى إنها اتهمت ظلما بالتحرر والفرنجة، وتقليد الغربيات، فحزنت لذلك، ثم لم تلبث أن عادت إلى ما كانت عليه٠

ومن العجب العجاب أنها نطقت بالشعر فى سن أحد عشر عاما، وقد هتفت بقصيدة تنتصر فيها لبنات جنسها، وقالتها بمناسبة أنهـا أول فتاة نالت الشهادة الابتدائية فى الامتحان العام ، وجاء فى كتاب آثارها: "والشعر على بساطته ينم على نبوغ باكر؛ لأن سنها إذ ذاك لم تتجاوز الثالثة عشرة :

بشرى لمصر فقد نالت أمانيهـا ∴ وأنجح الله بالحسنى مسـاعيها
فنالت الفخر والمجد اللذين هما ∴ مشكاة نور به ابيضت لياليهـا
وصارت الآن فى الأقطار مفردة ∴ فليس فى الكون من قطر يساويها
فكيف لا وبنات القطر قد وردت ∴ ورد المعارف فهو اليوم راويها
حزن الفضائل بارين الرجال وقد ∴ صرن المفاخر للدنيا ومافيهـا
نلن الشهادة فى عصر به طلعت ∴ شمس المعارف فى أبهى مجاليها
فقمن جمعا بنات القطر قلن معى: ∴ بشرى لمصر فقد نالت أمانيها(١)

ومن شعرها التوجيهى الصادق قولها فى قصـيدة طويلـة عـن الحجاب :

فدعوا النسـاء وشـأنهن فإنمـا ∴ يدرى الخلاص من الشقاوة من شقى
وأمامكم غيـر القنـاع مـآزق ∴ أولى بها التفكير من ذا المأزق
ليس السفور من العفاف بضائر ∴ وبدونه فرط التحجب لا يقى(٢)

---

(١) السابق صـ٣١٠ ، ٣١١ .
(٢) السابق صـ٣٠٨ .

وقد كان الحجاب موضوع نقاش طويل بين ملك وغيرها من أدباء العصر وأديباته.

وتتجلى أخلاقياتها ومبادئها الدينية، ومشاعرها الإسلامية، في مقطوعة شعرية تحدثت فيها عن الحياء، فقالت :

إن الفتاة حديقة وحياؤها ∴ كالماء موقوفا عليه بقاؤها
بفروعها تجرى الحياة فتكتسى ∴ حللا يروق الناظرات رواؤها
إيمانها بالله أحسن حلية ∴ فيها فإما ضاع ضاع بهاؤها
لا خير فى حسن الفتاة وعلمها ∴ إن كان فى غير الصلاح رضاؤها
فجمالها وقف عليها إنما ∴ للناس منها دينها ووفاؤها[١]

وقد برزت فى الشعر الاجتماعى الذى يعرض لقضايا المرأة، والتى تنعكس على الآخرين وترسم صورة لحركتها فى الحياة، وهمومها التى شغل بها علماء الفكر والاجتماع والأدباء والمثقفون فى مصر وبعض البلاد العربية .

وتميزت ـ رحمها الله ـ فى شعر الرثاء ، وأجادت فيه، وفى سائر الأغراض التى تعرض لهموم المرأة بصفة عامة، لكنها لم تقل شيئا فى المدح أو الهجاء أو الغزل، إذ لم تكن هذه الموضوعات من بين اهتماماتها خاصة فى فن الشعر ، ومن رثائها لعائشة التيمورية:

سنبقى بعد "عائشة" حيارى ∴ كسرب فى الفلاة بغير راع

---

(١) السابق صـ٣٠٩ .

هى الدر المصون ببطن أرض ∴ وقد كانت كذلك فى قناع
هى البحر الخضم وما سمعنا ∴ بأن البحر يدفن فى التلاع[١]

ومن المثير للعجب أن هذا الشعر من قصيدة قوامها ثمانية عشر بيتا قالتها ملك وعمرها ستة عشر عاما[٢] مع قوة ألفاظها، ونصاعة ديباجتها، وصدق عاطفتها، وروعة بيانها، وجمال رونقها، مما يؤكد مقدرة الباحثة على التميز والإجادة، لولا أنها أدركت أن الشعر لا يطاوعها فى التعبير عن الإصلاح بمثل مطاوعة النثر لها، فكانت شهرتها فى الكتابة والخطابة أكثر من شهرتها فى الشعر.

وكتب عبدالسلام العشرى واصفا كتابتها فقال : وقد امتازت كتابتها بالبعد عن الزخرف، وتجنب التكلف والسجع، كما امتازت بتدفق العاطفة من ثنايا عباراتها، وكانت تكتب بطريقة هادئة متزنة، ولكن ما تكتبه كان شديد النفاذ إلى القلوب، فقد كانت تعرض على الناس صورا هى صورهم أنفسهم بلا تزيين ولا زيادة ولا حذف.

وقال : إنها كانت تتحدث بقلبها وعواطفها، وتمزج الكلام بعصارة نفسها فيظهر انفعالها فى ألفاظها وعباراتها ، تضرب على أوتار القلوب، وتتحدث حديث النفس إلى النفس ، تكشف الستائر برفق، ولا تزال تكشفها ستارة بعد ستارة حتى تفضح ما خلفها فلا يحس من

---

(١) السابق صـ ٣٠٤ .
(٢) أى فى عام ١٩٠٢م وهو الذى توفيت فيه الشاعرة عائشة عصمت التيمورية.

كان مستترا إلا وقد وقف أمام الناس لا يستطيع إخفـاء نفسـه، فقـد أبصره الجميع على حقيقته، ورأوه قبل أن يفر"[١].

إن النثر لديها جاء موضوعيا ومجددا فى عدد كبير من الخطـب البليغة والرسائل المتبادلة مع الذين عنوا بقضايا النساء عنايـة كبيـرة والمقالات التى نشر معظمها فى جريدة (الجريدة) وكانت إمـا كتبتهـا ابتداء، أو أعدتها ردا على خطب ومقالات للمفكرين والأدباء المشهود لهم بالحس الوطنى، والرغبة فى إصلاح الأسرة، وتوجيه كل الفئـات الاجتماعية على اختلاف مذاهبها وتوجهاتها.

وكانت تفصل فى الأمر، ثم يعود الناس للكلام فيه فـلا تسـكت مكتفية بما قالت وكتبت، وإنما تشرع فـى الـرد علـيهم بالاتفـاق أو الاختلاف مع آرائهم، من غير أن تجامل أحدا، ولا هم لها سوى تقديم رؤيتها وتأكيدها، فقد كتبت عن الحجاب والسفور .

فعاد الناس للحديث فى هذا الموضوع، والتعرض لآرائها، فردت عليهم بجرأة وشجاعة، وديدنها الصدق والموضوعية، والرغبـة فـى الإصلاح، والحفاظ على القيم والمبادئ والأعراف الاجتماعية التـى لا تتعارض مع الدين .

وقد كتبت مقالات عن مساوئ النساء، ثم أعقبتها بحـديث عـن مساوئ الرجال، كما عالجت موضوعات فى غاية الأهمية مثل تربيـة البنات وسن الزواج والحض على البر والإحسـان وفضـائل الـدين

---

(١) باحثة البادية لعبدالسلام العشرى صـ٧٤ ، ٧٥ .

والقومية والحلم، وهى كالزهرة تنتقل من غصن إلى غصن تمتص الرحيق، وتقدمه للناس عسلا مصفى •

وتكتب إلى مى زيادة وترد عليها مى ، ويمتد التواصل بينهما، ويملأ الحب قلب كل واحدة للأخرى، حتى تؤلف مى كتابا عن الباحثة إشعارا بما كان بينهما من وفاء ، ومما كَتَبْتُهُ إلى (مىّ) رسالة بدأتها فقالت :

"تفضلت فكتبت إلى كلمتك العذبة فى (الجريدة) وكنت إذ ذاك بين مخالب الموت، فلم يكن فى وسعى أن أمسك القلم لأرد عليك، وإن كانت مخيلتى لم تبخل بالرد، كانت رسالتك عزاء جميلا لى فى مرضى الطويل المؤلم، وبلسما ملطفا لجراحى البالغة التى قلت إنك عثرت عليها ... وقالت : كنت اعتزلت الكتابة لا لنضوب مادتها عندى ولا اكتفاء بالقليل الذى كتبت من قبل، ولكنى كنت مللت المناداة بإصلاح المرأة المصرية، وثبط عزمى ما أراه من انصراف فئة المتعلمين والمتعلمات الجدد عن العمل لتكوين القومية المصرية المطلوبة، وما حركتهم التى ملأوا بها القطر صراخا إلا عنوان نهضة كاذبة •

تسألينني يا سيدتى أن أدلك وسط هذه الأحوال المتضاربة والآراء المتشعبة عن الطريق الذى يحسن بالفتاة نهجه ، وإنها لحال توجب الحيرة، ولا ندرى أى الطرق نسلك لنصل سريعا إلى الغاية التى نقصد إليها !!

كلنا يرمى إلى تقدم الفتاة وتنورها وإعدادها؛ لأن تكـون زوجـة صالحة وأما نافعة أبناءها ووطنها، ولكن لكل مناد بالإصلاح وجهة هو موليها"[١] كما كتب لها إسماعيل صبرى وأحمد زكى السكرتير الثـانى لمجلس النظار، وقدم أحمد لطفى السيد كتـاب (النسـائيات) لباحثـة البادية.

الحزن عليها :

بعد أن ماتت ملك حزن عليها الناس حزنا كبيرا، فقد كانت فـى ريعان الشباب وصادقة الوطنية، راغبة فى الإصلاح وحـزن عليهـا الشعراء وفى مقدمتهم حافظ إبراهيم الذى رثاها بقصيدة طويلة[٢] قـال فى مقدمتها :

(ملـك) النهـى لا تبعـدى ∴ فـالخلق فـى الـدنيا سِـيَر
إنـى أرى لـك سـيرة ∴ كـالروض أرجـه الزهـر
ربـى أبـوك الناشئيـ ∴ ـن فعـاش محمـودَ الأثـر
وسـلكت أنـتِ سـبيله ∴ فى الناشئات مـن الصـغر[٣]

---

(١) آثار باحثة البادية صـ٣١٨، ٣١٩.
(٢) وقد اختتم الشاعر بها حفل التأبين بالجامعة المصرية.
(٣) راجع لمزيد من الدراسة والبحث :
المرأة الجديدة قاسم أمين، هدى شعراوى الـذكرى المئويـة، المـرأة المصرية، آثار باحثة البادية صـ٣٤٦، بين التطور والتحرر د. يونان لبيب رزق، الأعلام ـ لخير الدين الزركلى، تاريخ آداب اللغة العربيـة جرجـى زيدان ـ ديوان حافظ إبراهيم، وأدباء لا تغرب عنهم الشمس، لفتحـى رزق وغيرها.

ورثاها خليل مطران بأكثر من قصيدة، كما رثاها الشيخ مصطفى عبدالرازق، ومى زيادة، وهدى شعراوى، وبكاها كثير من المصـــريين والمصريات؛ لما جبلت عليه من السجايا الحميدة والأخلاق الفاضـــلة ، رحمها الله رحمة واسعة، جزاء إخلاصها لدينها ووطنها ٠

المنهج الإسلامى فى تربية الأبناء

دعت الشريعة الإسلامية إلى العناية بالأطفال، ونبهت إلى ضرورة التوافق بين الرجل والمرأة عند الزواج الذى ينتظره ويترقبه كل منهما، فالرجل يتحمل مسئولية الأسرة منذ الشروع فى الزواج ؛ إذ لابد أن يكون اختيار الزوجة بعيدا عن كل غرض لا يتلاءم مع النكاح الذى قال الله تبارك وتعالى فيه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١).

وقال الرسول ﷺ : " تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك " (٢).

فالأموال أعراض، والجمال كثيرا ما يعتوره الزيف، أو يذهب ويتلاشى مع الزمن، أما الأحساب والمنابت الطيبة، والأخلاق الحسنة فترسخ فى الأرض، وتبقى حقيقة ومنهاجا أصيلا لكل أسرة فى المجتمع الإسلامى .

فالزوج والزوجة يتحملان التبعة فى تربية الأبناء حسب المنهج الإسلامى، ولذلك لابد من التوافق بينهما؛ لكى يتعاونا فى تنشئة أطفالهما ، بحيث ينهض كل واحد منهما بدوره المنوط به فى حدود

---

(١) الروم / ٢١ .
(٢) البخارى ومسلم .

طاقته، وبقدر ما وهبه الله من الخصائص والإمكانات ، قال رسول الله ﷺ : "كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل فى بيته راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة فى بيت زوجها راعية ، وهى مسئولة عن رعيتها، والخادم فى مال سيده راع، وهو مسئول عن رعيته"(١).

ولقد نبه الإسلام الآباء والأمهات إلى المنهج القويم فى التربية، فحض على إنفاق المال على الأبناء باعتدال، ومن غير إسراف أو تقتير، قال ﷺ "أفضل دينار الدينار ينفقه الرجل على عياله "(٢) .

أما الأم فمسئوليتها خطيرة جدا؛ لأنها ترعى وتصون الطفل من قبل أن يولد، وذلك فى أثناء الحمل ، ثم تتولى إرضاعه حولين كاملين، قال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ... ﴾ (٣).

وقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ (٤) .

ونؤكد أهمية الرضاعة الطبيعية التى ذكرها القرآن الكريم، وحدد زمنها وتبعتها، ولم يعد يخفى على أحد تلك الأهمية التى تعود إلى الطفل والأم والأب.

---

(١) البخارى .
(٢) الترمذى وابن ماجه .
(٣) البقرة / ٢٣٣ .
(٤) الأحقاف / ١٥ .

فالطفل يتحصن ضد كثير من الأمراض،والأم تقل الخصوبة لديها لمدة عامين على الأقل، كما تقل فرص إصابتها بسرطان الثـــدى [(١)] ، أما الأب فإن الرضاعة الطبيعية لا تكلفه شيئا، وتقى أسرته من مخاطر كثيرة بعكس الرضاعة الصناعية التى تحتـــاج إلـــى عنايـــة خاصـــة، واحتياطات متعددة، وميزانية ليست سهلة على كثير من الناس.

والأم هى الأحق بالحضانة ما لم تتزوج، وليس لأحد أن يســـلبها هذا الحق، وقد جاءت امرأة إلى النبى ﷺ ، وقالت: يا رسول الله ، إن ابنى هذا كان بطنى له وعاء، وثديى له سقاء، وإن أباه طلقنـــى، وأراد أن ينتزعه منى، فقال لها الرسول ﷺ:"أنت أحق به ما لم تتزوجى"[(٢)].

فالطفل فى سنواته الأولى محتاج للعطف والحنان والتنشئة الرحيمة التى ميز الله بها المرأة،وجعلها أقدر على الرعاية الرحيمة فى السنوات الأولى من عمر الطفل. كما يسهم الأب فى تلك المدة بدور فعال إلـــى جانب الأم، فمن الواجب عليه أن يحسن اختيار الاسم الذى يطلقه على الطفل أو الطفلة، ومن العجب أن بعض الناس يسمون أبناءهم أســـماء تثير الضحك ، وتبعث على السخرية ، وتجعل الصغير بعد أن يكبـــر فى حرج وضيق، وهم بذلك يعقون أولادهم، ويسيئون إليهم .

ويولد الطفل على الفطرة وهى الإسلام (أو البداءة) أو الهيئـــة والحالة التى يتهيأ الطفل بها للفهم والمعرفة، قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ

---

(١) انظر جريدة الأهرام فى العدد الصادر يوم ٩ سبتمبر ١٩٩٤م .
(٢) ابن حنبل .

للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ... ﴾ (٢) .

وقال الرسول ﷺ : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه" (٣).

ويحتاج الطفل فى سنواته الأولى إلى المداعبة والملاعبة، وأكد الرسول ﷺ ذلك بأقواله وأفعاله، فكان يصلى بالصحابة ذات مرة ، وأطال فى سجوده إطالة خشوا منها أن يكون قد قبض، ولما انتهوا من الصلاة علموا أنها كانت بسبب أن الحسن والحسين امتطيا رسول الله، وأحب ﷺ ألا يذهب عنهما متعة هذا الامتطاء.

ولابد للأب والأم أن ينشئا أبناءهما تنشئة دينية أخلاقية، وأن يكونا قدوة لهم، وأن يعوداهم على الصدق فى القول، والإخلاص فى العمل، والحرص على العلم، واحترام الكبار إلى غير ذلك من الأخلاق الإسلامية الحميدة، وعليهما أن يوجها الأبناء الوجهة الدينية القويمة، قال رسول الله ﷺ : " مروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع"(٤).

---

(١) الروم / ٣٠ .
(٢) النحل / ٧٨ .
(٣) متفق عليه .
(٤) رواه أحمد .

فالطفل يتعلم من الصلاة النظافة، والحفاظ على المواعيد ، ورقة القلوب، وحسن الصلة بالله، والعمل بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وتوجيه الطاقة إلى عبادة بدنية مفيدة، فما أعظم الأخلاق الإسلامية ، وما أحسن تنشئة الأطفال على الصدق والأمانة والرحمة، قال الشاعر:

وإنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ فإن هُمُ ذهبتْ أخلاقهم ذهبوا

فهذه التنشئة مهمة جدا خاصة فى السنوات الأولى من عمر الطفل؛ لأنها المرحلة التى يشتد فيها تعلقه بأبويه، ويكون فيها سريع التأثر والاقتداء بهم .

وينشأ ناشئُ الفتيان منا على ما كان عَوّده أبوه

والأخلاق لا تنفصل عن الدين، قال ﷺ : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق[1].

ونأتى إلى أهمية القدوة فى حياة الطفل لحبه للتقليد، وبخاصة تقليد أبيه وأمه، ثم كيف يسمح الوالد لنفسه بممارسة الأفعال السيئة والتحدث بالألفاظ الجارحة فى الوقت الذى يدعو فيه أبناءه إلى الالتزام بالأقوال الصادقة والأفعال الحميدة؟! قال الشاعر :

لا تَنْهَ عن خلقٍ وتأتىَ مثله عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

وحض التشريع الإسلامى على دعوة الأطفال إلى مكارم الأخلاق، وذلك بالاستئذان قبل الدخول على الرجال والنساء فى ثلاثة

---

(١) رواه مالك وأحمد بن حنبل .

أوقات معينة ، ذكرتها الآية الآتية ، قال تعـــالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ... ﴾ (١) .

وفى حدود هذه التنشئة الدينية الأخلاقية نبه القـــرآن إلـــى لـــون مباشر من التوجيه الذى ساقه على لسان لقمان لابنه ، فقـــال تعـــالى: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۞ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (٢) ،ورأى الرسول طفلا يأكل بطريقة غير سوية فقال له:"يا غلام، سم الله،وكل بيمينك،وكل مما يليك.." (٣).

ولا يجوز لأحد من الأبوين أن يميز أحد الأبناء بشيئ كهديـــة أو منحة أو جزء من الميراث عن باقى الأخـــوة ، فقـــد روى البخـــارى ومسلم عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما أنه قال: "إن أباه أتى به رسول الله ﷺ ، فقال: إنى نحلت ابنى هذا غلاما كان لى ، فقال رسول الله ﷺ : "أكل ولدك نحلته مثل هذا؟ فقال: لا، فقـــال رســـول الله ﷺ:

---

(١) النور / ٥٨ .
(٢) لقمان ١٧، ١٨، ١٩ .
(٣) البخارى ومسلم .

فارجعه" وفى رواية قال : "فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم" وفى رواية قال : "أشهد على هذا غيرى، فإنى لا أشهد على جور".

ويحض الإسلام على حسن تكوين الأطفال جسمانيا وعلميا وخلقيا، ويحفظ لهم حقوقهم إذا تعرضوا للقيم، أو كانوا ضحية للانفصال بين الزوجين .

وإذا كان الأطفال يغرمون بممارسة الرياضة البدنية فلا بأس من ذلك بشرط أن تكون تحت سمع وبصر الآباء، لكن أن يترك لهم الحبل على الغارب فيسرحون فى الفراغات، ويهيمون فى الشوارع بلا ضابط فهذا هو الخطأ الكبير والضلال المبين، فالطفل يحتاج إلى توجيه طاقته توجيها سليما بممارسة لون من الرياضة البدنية أو الذهنية التى يميل إليها .

وقد مر الرسول ﷺ على جماعة من الأطفال يتسابقون على طريق الرمى بالسهام، ففرح بهم ، وقال لهم : "ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا ، ارموا، وأنا مع بنى فلان، فأمسك الصبيان عن الرمى، فقال لهم: ما لكم قد توقفتم، فقالوا: يا رسول الله : كيف نرمى وأنت مع فريق منا دون فريق؟ فقال لهم: "ارموا وأنا معكم كلكم" (البخارى) وقال عمر بن الخطاب: "علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل".

ولا ينبغى أن تكون ممارسة الرياضة على حساب تحصيل العلم الذى أمرنا به ودعينا إليه جميعا مع أول كلمة نزل بها الوحى الكريم

على خاتم المرسلين، قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(١) ويجب توجيه الأطفال فى سنواتهم الأولى إلـى حفظ القرآن الكريم؛ لأنه يقوى مداركهم، ويصون ألسنتهم، ويسهم فـى زيادة ثقافتهم ومعارفهم اللغوية والبيانية والتاريخية وغيرها.

ويخطئ كثير من الآباء والأمهات عندما يظنون أن المدرسة تقوم بالتعليم والتربية، وما عليهم إلا دفع المصـروفات وإعـداد الملابـس والأطعمة؛ لأن واجب الأسرة شامل وعام، ولأن الطفل يقضى معظـم نهاره وكل ليله وسائر إجازاته وأيامه بين أسرته .

وتحيق بالأطفال أخطار كثيرة مثل: عدم التوافق بين الأب والأم، أو سفر الآباء إلى الخارج لمدة طويلة، وانصراف الأم عن الإشـراف والمتابعة، أو غياب الأب (داخليا) بمعنـى تقصـيره، وعـدم شـعور الأطفال بوجوده، وننبه إلى خطـورة التـدليل الزائـد عـن التوسـط والاعتدال، والإسراف فى النفقة على الأطفال بسبب أو من دون سبب، وعدم محاسبتهم على ما يفعلون بحجة منحهم (الحرية)، تلـك الكلمـة التى ساء فهمها واستعمالها.

ولقد نبه التشريع الإسلامى إلى الضرر الكبير الـذى يمكـن أن يلحق بالأطفال بسبب القسوة معهم، فيشعروا (بالكبت) الشديد، أو يقعوا

---

(١) [العلق ١ ــ ٥] .

فى حبائل رفقاء السوء الضالين المضلين، ومن الضرورى أن يتفهم الوالدان نفسية أبنائهم، وأن يكونا قريبين منهم، صديقين لهم، عطوفين عليهم بلا إفراط فى الواجبات أو تفريط فى الحقوق فى حدود المنهج الإسلامى القويم.

مخاطر العمالة الأجنبية
فى خدمة البيوت وتربية الأطفال

كان العمال (الخدم) يسعون إلى طالبى الخدمة فى المنازل للبحث عن العمل، ولو بأجر بسيط، وكان فى بعض البيوت عدد من (الشغالين) ومن (الشغالات)، ثم تغيرت ملامح العصر، وتعددت فرص العمل وأصبحت العائلات ذوات الدخل المحدود ترى فى خدمة ابنها أو ابنتها فى البيوت عملا غير كريم، مفضلة أن يكون ذلك فى وظيفة دائمة بمؤسسة حكومية أو شركة خاصة تدر ربحا كبيرا ثابتا، وتواكب ذلك مع خروج كثير من النساء إلى الوظائف المختلفة، فزاد الطلب على هذا النوع من العمالة خاصة ممن لديهم خبرة وأمانة ومرجعية معروفة يحتكمون إليها، وهؤلاء تكون أجورهم مرتفعة بالنظر إلى مستوى دخل الفرد، ولكن بعض الأسر لا تعبأ بما يطلب منها فى مقابل هذه الخدمة؛ لاحتياج ربة البيت لمن يعينها فى تربية الأبناء (الصغار)، أو يكون ذلك لونا من الوجاهة الاجتماعية ، وقد بالغت بعض الشرائح الاجتماعية فى هذا الأمر فلم تكتف بالجنس العربى، وإنما سعت ــ بإمكاناتها ــ إلى استقدام الخادمة من دول بجنوب شرق آسيا باعتبار أنها أى الخادمة ستعيش منعزلة عن أهلها ووطنها، ولن تكون لها علاقات كثيرة، وستكون مأمونة الجنب، ولا تمثل خطورة، وأجرها ليس كبيرا، ومن هنا بدأت الخادمة والمربية الأجنبية تنتشر فى بعض الدول العربية، وبخاصة فى دول الخليج العربى، ثم وصلت إلى القاهرة وبعض المحافظات فى مصر.

حقوق الخدم:

لقد أوصى الإسلام بالأجير ، وأمر بإعطائه حقه قبل أن يجف عرقه، وجعل الخادم أخا للمخدوم ما دامت الرحمة هى التى تجمع بينهما، فكل إنسان ينهض بمسئوليته تجاه الآخر، ولا يهمل فى الدور المنوط به؛ لأن التسخير الصادق لا يعنى استعلاء طبقيا أو فرديا، أو تميزا لشخص على آخر، فالناس سواسية فى الحقوق والواجبات، وأن التميز فى الرزق يأتى لحساب الجماعة ولمصلحتها قبل أن يكون لصالح الفرد نفسه، قال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (١).

وقد أقر الإسلام مبدأ المساواة بين الناس، وجعل التقوى أساسا للتفاضل إذ أنها ميزان دقيق لعلاقة الفرد بربه وبالناس أجمعين .

قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٢).

قال الشاعر:

النـاسُ للناسِ من بدوٍ وحاضرةٍ ∴ بعضٌ لبعض وإن لم يشعروا خَدَمُ

---

(١) الزخرف ٣٢ .
(٢) الحجرات ١٣ .

وليس الخادم شخصا ذليلا أو حقيرا يستحق أن يلعن ويهان بل هو إنسان له حقوق وعليه واجبات، إنها المسئولية التى كلف الرسول ﷺ بها الجميع فى حديثه الذى قال فيه : "كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة فى بيت زوجها راعية، وهى مسئولة عن رعيتها، والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته"(١).

وقد وصل إلى علم الرسول ﷺ ما كان من أبىذر الغفارى فى سبه لبلال بن رباح الذى كان فى بداية عصر البعثة مملوكا خادما، إذ قال له أبوذر: يابن السوداء، ولم ينتظر أبو ذر.. فذهب إلى الرسول، وقال له: سابيت رجلا فعيرته بأمه فقال لى النبىﷺ : "يا أبا ذر أعيرته بأمه؟إنك امرؤ فيك جاهلية،إخوانكم خَوَلُكُم(أى خدمكم) جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه(مملوكه أو خادمه) تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغليهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم"(٢).

وهكذا تؤكد الشريعة الإسلامية حسن معاملة المخدوم لخادمه تلك المعاملة التى طبقها الرسول فى حياته خاصة مع أتباع الدعوة ودعاتها الذين كانوا يلتفون حوله، وينهضون بأداء الكثير من الأعمال له، ويتشرفون بخدمته مثل زيد بن حارثة، وبلال بن رباح، وخباب بن الأرت، وعمار بن ياسر وغيرهم .

---

(١) رواه البخارى.
(٢) رواه البخارى.

استقدام العمالة الأجنبية للخدمة فى البيوت :

دعا الإسلام إلى العمل وبذل الجهد، وتحصيل الرزق، والسعى فى الأرض، والتحرك إلى أى مكان آمن يتحقق به الكسب الشريف، وبدأت العمالة الأسيوية تفد إلى المنطقة للخدمة فى المنازل ولبعض المهام الأخرى كالتمريض وغيره لكن ما هى الأسباب الداعية إلى ذلك؟

من المؤكد أن انخفاض مستوى الدخل فى الدول التى تفد منها هذه العمالة جعل التكلفة لاستقدامها سهلة ميسورة، ويسود الاعتقاد بانعدام الخطورة منها وانضباطها، ومهارتها فى القيام بدور الأم وبسائر الأعمال المنزلية، علما بأن هذه الموجة تخضع للمد والجزر ومع ذلك فهى تستحق الدراسة والمناقشة حتى يقف الناس على كثير من الأمور فى هذه القضية التى تمثل أهمية وتأثيرا على تكوين البيت العربى وما عداه من مؤسسات تستعين بهذا النوع من العمالة الوافدة .

إن هؤلاء الخدم أو العمال معظمهم من النساء اللاتى يفدن بعادات وتقاليد مختلفة مما يؤكد خطورة تأثيرهن على تربية الأبناء فى المراحل الأولى من أعمارهم تلك هى مكمن الخطورة فى هذا الأمر حيث تترك الأم ابنها فى السنوات الأولى لهذه المربية مما يسهم فى إضعاف العلاقة بين الطفل وأمه بدرجة كبيرة .

وما أفضل أن تنهض الأم بتنشئة أبنائها بنفسها؛ حيث يكونون أكثر استواء من الناحية النفسية والصحية، والقانون الوضعى يعطى

المرأة العاملة حق التفرغ لتربية الأبناء حيث يكون فيها الطفل لصيقا بأمه وأبيه خاصة فى المراحل الأولى من عمره وينمو معهما نموا طبيعيا ويأخذ منهما العطف والحنان والدفء والأمان .

أما تربية الطفل مع الخادمة الأجنبية [خاصة] فإنه يتلقى عنها [غالبا] أفكارا غريبة عن بيئته ومجتمعه، وتضعف لغته التى تقوى بانتمائه لوطنه، وربما يتعرض لإهمال مقصود، فتلحق به بعض الأمراض التى تؤثر فى تكوينه الجسمى، ويعتاد القسوة فى المعاملة، ولا يألف الهدوء والطمأنينة ويميل إلى الانعزال عن الآخرين.

إن بعض هذه الآثار يمكن أن يكتسبها الطفل من المربية التى تدين بدينه، وتنطق بلغته وتألف عاداته، لكن الأخطار تزداد بدرجة كبيرة من الخادمة أو المربية الأجنبية.

إن الأجانب فيهم الجيد والردئ والحسن والسئ لكن الجيد من أهل الوطن الناطق بلغة قومه أفضل من نظيره الأجنبى، أما السيئ فهو مرفوض أينما وجد ، وينبغى عدم الثقة فيه وضرورة الحذر منه .

ومن المؤسف أن بعض الذين يستقدمون هذه النوعية من العمالة يظنون فيها الهدوء والاستسلام فلا يرحمونها ويسرفون فى القسوة عليها، وتكون النتائج فى غاية السوء، والحوادث كثيرة ومؤلمة والظلم مرفوض ـ أينما وجد ـ بكل تأكيد[١].

---

(١) نشرت جريدة الأهرام القاهرية فى يوم ٢٦ من سبتمبر ١٩٩٩م فى صفحة الحوادث نبأ الخادمة الهندية التى هشمت رأس مخدومتها وأحرقت جثتها فى منطقة التعاون بالهرم حيث انتقمت الخادمة لرفض مخدومتها السماح لها بالسفر لرؤية أبنائها الثلاثة وزوجها فى دولة الهند.

فاستخدام العمالة الأجنبية للخدمة فى البيوت وتربية الأبناء مسألة تحتاج إلى نقاش مستفيض من كافة الأمور فمن الناحية الأخلاقية والأمنية لابد من الحذر عند قيام الخادم أو الخادمة برعاية الأطفال فى ظل اختلاف اللغة عندما يحتاج الطفل إلى نمو ألفاظه ومعارفه، وفى هذه المرحلة من عمر الصغير يكون فيها سريع التأثر بمن حوله كثير التقليد لهم، كما أن اختلاف الدين واللغة والعادات والتقاليد ليس فى مصلحة الأطفال الذين يحتاجون لمن يحكى لهم حكاية قبل النوم، أو يروى لهم حادثا مشوقا، أو خبرا معينا مما ينمى ثقافاتهم ويوسع إدراكاتهم وأخيلتهم.

ثم ماذا تكون النتيجة لو كانت فى منزل به أبناء فى مرحلة الشباب ويخرج الكبار وتبقى الخادمة معهم، أو أن يكون الخادم رجلا ومن مخدوميه فتاة كبيرة .

إن أخطارا كثيرة يمكن أن تحيق بالأمر على هذه الصورة، أو يسفر ذلك عن قلق بالمنزل أو بنظام الأمن، لكن ذلك يكون أقل ما لو كانت الخادمة من أهل الوطن، علما بأن العمالة الأجنبية تكون فى قلق واضطراب نفسى من جراء بعدها عن وطنها وزوجها وأهلها، فتأتى تصرفاتها مشوبة ــ غالبا بالضيق والقلق والاضطراب.

وتصل الأخطار إلى بعض الجوانب الاجتماعية فيما يخص المخدومين؛ حيث تتأثر علاقة الأم بأفراد الاسرة ما دامت الخادمة تنهض بمعظم المتطلبات، فتنشأ الفتاة غير مجهزة لأن تكون ربة بيت

مدربة فى المستقبل، إذ تحصل على حاجياتها ولا تعرف شيئا عن أبسط الأمور المنزلية، كما أن الاستقدام يمثل تكلفة للمواطن وعبأ على الدولة، ولماذا نأتى بهذه النوعية طالما لدينا من يقدر على القيام بكل هذه المهام، والأسرة تجد راحتها غالبا فى تناول ما أعدته الأم بمثل ما يجده الرحل، من راحة فى قيام زوجته بإعداد ما يحتاج إليه من طعام وشراب، كما أن المرأة لا يسرها أبدا أن ترجع بعد غيبتها وتجد زوجها فى منزل ليست به إلا خادمة ترغب فى التقرب إليه والتزلف له، والأمر يحتاج إلى توعية وتنبيه إلى أخطار هذا الاتجاه، ومعاونة الأسر والمؤسسات على انتشار الحضانات الخاصة المتميزة للأطفال، مع ضرورة الفحص الطبى المستمر للعاملات وغيرهن أيضا .

أما إذا كانت هناك ضرورة ملحة لاستقدام العاملات من الخارج فلابد من تبصير الناس بما يحملن من ثقافات وعادات وأديان، ولابد من العناية بحسن اختيارهن عن طريق بلادهن، وبإشراف مستمر من الوزارات المختصة.

إن نسبة كبيرة من هذه العمالة كما تقول بعض الإحصائيات الصادرة من بعض الدول العربية[(١)] يعلمن الأطفال التدخين، ولا يصلحن لتربية الصغار، ولا يعرفن اللغة العربية، وأعمارهن تقل عن ثلاثين عاما، وأكثرهن متزوجات ويعشن بعيدا عن أزواجهن، وأن

---

(١) كما جاء فى المجلة العربية العدد ١١٥ الصادر فى شعبان ١٤٠٧هـ (أبريل ١٩٨٧م)، والدراسة أو الإحصائية المذكورة ـ من دولة الإمارات العربية المتحدة.

دياناتهن غير سماوية، ولذلك تتأثر بهـن لغـة الأطفـال وعقيـدتهم وأخلاقهم تأثرا كبيرا٠

وينبغى فى حالة استقدام هذه العمالة أن نعطيهم حقوقهم كاملـة، وأن نحسن إليهم فى المعاملة، وأن نسمح لهم بزيارة ذويهم، وأن نحترم عقودنا معهم وإلا فلا داعى لهذا الهم المزمن ٠

ونرى أنه لا ضرورة ملحة تستلزم استقدام هذه العمالة لا دينيـا ولا أخلاقيا ولا اجتماعيا ولا اقتصاديا، ونحن نعجب من وجود هؤلاء الخدم والخادمات فى الوقت الذى تزداد فيه نسبة البطالة فى مصر وفى دول أخرى بالمنطقة العربية٠

فهل لا زال الناس حريصين على الوظيفة الحكومية وراغبين فى الجلوس على المكاتب ولو بأجور زهيدة، ولمـاذا لا تنتشـر وتـزداد المؤسسات الحكومية أو الخاصة التى تؤهل مـن يرغـب ـ ولديـه الاستعداد ـ فى القيام بما يقوم به هؤلاء الوافدون، وتكون المسـئولية منوطة بهذه المؤسسات فى تدريب الراغبين، وحفظ حقـوق العـاملين عند الآخرين بموجب التشريعات والقوانين المنظمة لهذا الأمر من كافة نواحيه٠

الشباب العربى(*)
بين القيم الثابتة والمتغيرات الطارئة

تعرض المجتمع العربى فى السنوات الأخيرة لهزات عنيفة وتغييرات شديدة أثرت فيه تأثيرا كبيرا، حيث تعددت أنماط السلوك الاجتماعى والاعتقاد الفكرى والتوجه الدنى، فظهر المسرف المتشدد فى آرائه والماجن المتحلل من القيم والأعراف، إلى جانب الجمهرة الكبيرة المعتدلة المحافظة على الدين والقيم والمبادئ، ويتمثل الانحراف السلوكى فى أنه يقع غالبا من الشباب الذين هم عدة الحاضر وأمل المستقبل، ولهذا ارتاعت كثير من العائلات على أبنائها الذكور والإناث أمام الأحداث التى باتت وسائل الإعلام تتحدث عنها وتحذر الناس منها.

إن هذه المتغيرات ليست قاصرة على الجرائم والانحرافات التى كانت معروفة مألوفة، وإنما تجاوزتها إلى سلوكيات أخرى جديدة يأتى بعضها تقليدا لمجتمعات أخرى تختلف فى تكويناتها وأعرافها ومعتقداتها عن طبائع المجتمع العربى.

وازدادت حدة هذه الجرائم مع كثير من المتغيرات والهموم الاجتماعية الأخرى التى كانت ولازالت تنعكس على الشباب، مما أحدث خوفا وذعرا لدى الآباء والأمهات، وذلك مثل الاختطاف،

(*) كتب: فى يوم الجمعة ٧ من شوال ١٤١٢هـ الموافق للعاشر من أبريل ١٩٩٢م.

والاغتصاب، والسرقة بالإكراه، والاعتداء على حريات الآخرين ، ومحاولات فرض الرأى بالقوة وليس بالحوار، وممارسة العنف فى العلاقة بالدين، على أن وقوع هذه الجرائم وغيرها لا يعنى أن المجتمع قد تحول إلى غابة يلتهم القوى فيه الضعيف، ويفتك الرجال فيه بالإناث، ويدوس الأغنياء فيه الفقراء، فلا زال المجتمع متماسكا، ولا تعبر عنه هذه التصرفات العابثة، والتوجهات الماجنة التى تخضع فى معظمها للتقليد الأعمى، وليست نابعة من الشرع الحنيف.

إن مقاومة هذه الجرائم ليس مستحيلا، ولا ضربا من الأمل الكاذب، كما لا نبالغ فى طموحاتنا بأن يتحول المجتمع بكامل تركيباته ومستوياته إلى المثالية النادرة والتصرفات الفاضلة، ولكن الأمل يتمثل فى مراحله الأولى حول تخفيف معدل الجرائم على اختلاف أنواعها وبواعثها .

لقد اندفع بعض الشباب ، وبعض الكبار أيضا إلى تعاطى المخدرات أكلا وشربا، وشما، وحقنا، وسواء ما كان منها طبيعيا أو مصنعا ؛ لبعث النشاط، أو لإحداث الخمول وتنعكس النتيجة على السلوك الاجتماعى العام.

فالأزمة الاقتصادية، والتطرف الدينى، والتحلل والتبرج من بعض النساء، وانتشار البطالة بين الشباب، وتعاطى المخدرات ، وفساد كثير مما تبثه وسائل الإعلام وتنشره المجلات الخليعة والصحف الماجنة ، تسهم كل منها بدور فى الوصول بالحالة العامة إلى هذا الوضع الذى يئن منه الآباء والأمهات.

١ - التربية والإعداد :

يقال: إن البيت قبل المدرسة، والتربية قبل التعليم، فالأسرة بما فيها من أب وأم وإخوة كبار يتحملون جميعا مسئولية إعداد الأجيال الجديدة ؛ حتى يصيروا شبابا أسوياء ورجالا علماء، ولا تقتصر أهمية الإعداد على الذكر بل تشمل الأنثى بما لها من دور أساسى فى مستقبل الحياة، والناظر بالعين البصيرة إلى الشباب المنحرف يرى معظمه قد نشأ فى عائلات مفككة غير سوية، فبعض الآباء لا يلقون بالا لأبنائهم، فينصرفون عنهم بالسفر الطويل إلى خارج البلاد لأسباب مختلفة ، أو يغيبون عنهم بالساعات الطوال، وذلك بالجلوس فى الأندية والمقاهى، أو يتركون شئون التربية لزوجاتهم ، واللائى يكن غالبا غير مؤهلات للتربية الصحيحة والإعداد الجيد، خاصة إذا كان النسل كثيرا، والعلم قليلا، والأمكنة ضيقة، والإمكانات محدودة.

وأفضل التربية ما كانت مستقاة ونابعة من المنهج الإسلامى القويم فى ضوء المعيار العظيم الذى نتبصره من قول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (٢).

ووقاية النفس والأهل من النار تكون بحسن تربيتهم وإعدادهم وتنشئتهم على الأخلاق الفاضلة،وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم

---

(١) الحشر ٧ .
(٢) التحريم ٦ .

الذى ينعكس على المجتمع الإسلامى،قال تعالى:﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١] وصدق الرسول ﷺ إذ يقول: "كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يمجسانه، أو يهودانه، أو ينصرانه"[٢].

وقال الشاعر:

وينشأُ ناشئُ الفتيان منا ∴ على ما كان عوَّدَهُ أبُوه

فالتربية الصالحة القويمة للأبناء، وحسن الإعداد لهم يعصمهم من التردى فى مهاوى الضلال، ومساوئ الأخلاق، ولابد أن يفتح الأب عينيه على تصرفات أبنائه، فلا يترك لهم الحبل على الغارب فى وقت يحتاجون فيه للمتابعة والمصاحبة، كما لا يصح للأم أن تسمح للبنات (خاصة) فى الخروج من البيت بدون علم ولى الأمر بحجة الذهاب للصديقات، أو المذاكرة عند الزميلات؛ لأن ذلك يمكن أن تنجم عنه فى ظل عدم الإشراف والمتابعة نتائج لا يحمد عقباها، ذلك أن الأمر فى مجموعه يخضع للمتابعة الرشيدة لجميع الأبناء فى المراحل السنية الحرجة؛ حتى تصل سفينة حياتهم إلى مرفأ الأمان.

---

(١) الروم ٣٠ .
(٢) متفق عليه.

أما القول بالثقة فى الأبناء وعدم الالتـزام الصـارم بـالأعراف الاجتماعية، فلا يساوى شيئا عندما نترك الأمر بـلا متابعـة، ونـرى الشاب أو الفتاة قد التف حول كل منهما رفقاء السوء واتجهوا بهم إلـى الطرق الملتوية والسلوكيات المنحرفة، فالفتاة لا تخرج إلا بمحرم ، ولا تنفرد مع شاب أو رجل غريب عنها، فلنا تقاليدنا النابعة من شـرعنا، ومن الخطأ أن ننقل عن المجتمعات الأخرى ما لا يتلاءم مع شـرعنا وديننا ٠

وليس معنى الالتزام الكامل بالشرع والعرف أن توجـه الشـاب سيكون توجها حميدا، وأن ما علمه وعرفه سيكون سدا منيعا يحجـب عنه الفكر الضال والسلوك المنحرف، ولكن المعول عليه هو تحمل كل شخص للمسئولية المنوطة به .. والتوفيق والهداية من الله تعالى ٠

إذا فالمسئولية شاملة، وغير قاصرة على فرد بعينـه، ويتحمـل تبعتها ولى الأمر ــ الوالد والوالدة ــ ثم من يليهما فى الترتيب، وذلك فى ضوء حديث الرسول ﷺ : "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيتـه، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل فـى بيتـه راع وهـو مسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عـن رعيتها، والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيتـه، فكلكـم راع وكلكم مسئول عن رعيته"(١)٠

---

(١) رواه البخارى٠

ولابد أن ينهض الوالد بدوره فى تربية أبنائه؛ لأن التخلى عن هذه التبعة خطر كبير يهدد البنية الاجتماعية، وينعكس على كثير من فضلاء الشباب، فقد قال الرسول ﷺ : "ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن"(١) .

ثم إن الإعداد الصالح للأبناء ذخر للآباء، وصدقة جارية لهم وقدوة صالحة للآخرين، فعن أبىهريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"(٢).

إن الشباب يحمل تبعة النهوض بأمته، ولابد أن يحظى بالرعاية من أولى الأمر ولا يصح أن يقتصر الاهتمام به على أنشطة رياضية معينة أو سفريات سياحية محددة، بل لابد أن تكون العناية متكاملة خاصة من ناحية الإعداد الذهنى، والفكرى، والعقدى.

ومن المؤسف أن بعض الشباب يباهى بجسمه ومنظره ويهمل فكره وعلمه، وينجم عن ذلك كثيرا تحويل طاقته الإيجابية إلى قوة مدمرة غير رشيدة.

فالعناية بإعداد الشباب تأتى مواكبة لدوره ورسالته فى الحياة، ولا يغيب عن ذاكرتنا أسماء تلك الطليعة التى حملت مشاعل الهداية الإسلامية إلى الناس جميعا، فقد دخلوا فى الإسلام فى بواكير شبابهم،

---

(١) رواه الترمذى والحاكم .
(٢) رواه مسلم.

وأسهموا بدور فاعل فى مساندة الدعوة الإسلامية، وحسبنا أن نذكر منهم على بن أبىطالب، وسعد بن أبىوقاص، وجعفر بن أبىطالب، وطلحة بن عبيدالله، ومصعب بن عمير، وزيد بن حارثة وغيرهم.

وقد كان سلوكهم حميدا، وإعدادهم سديدا، ولنمعن النظر فى هذا الموقف الذى حفظته لنا صحائف التاريخ مع بساطته وسهولة مأخذه، فقد مر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه على مجموعة من الصبيان وفيهم عبدالله بن الزبير فانصرفوا هيبة من عمر، ووقف عبدالله بلا حراك، فقال له أمير المؤمنين فى تودد: "مالك لم تفر مع أصحابك ؟

فأجاب يا أمير المؤمنين لم أذنب فأخافك، ولم يكن بالطريق ضيق فأوسع لك" ، ولم يغضب عمر بما قاله عبدالله بن الزبير رضى الله عن الجميع.

وقد تربى هذا الجيل فى البيئة المحمدية بما فيها من كلام رب العالمين ومن سيرة سيد الخلق محمد بن عبدالله التى كانت أفعاله وأقواله إلى جانب القرآن الكريم هداية ودستورا للناس جميعا.

وبقى ذهن الرسول وفكره مشغولا بالشباب فى حياته، وبعد مماته فقال ﷺ : "أوصيكم بالشباب خيرا، فإنهم أرق أفئدة، إن الله تعالى بعثنى بشيرا ونذيرا، فحالفنى الشباب، وخالفنى الشيوخ، ثم تلا قول الله تعالى : ﴿فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون﴾ .

٢ - يعانى الشباب من المشـكلات الاقتصـادية التـى ألمـت بالمجتمع فى السنوات الأخيرة، فقد تقلصت فرص العمل وصار الكثير من الناس يعانى من البطالة، وهى مفسدة كبيرة، فالذى يتخـرج مـن معهده أو كليته أو يحصل على خبرة من طريق آخـر ويسـعى إلـى العمل ولا يجده، فهنا يكمن الخطر، والتأثير السلبى على الشاب علـى حد قول الشاعر العربى أبىالعتاهية:

إن الفراغ والشـباب والجِـدَهْ ∴ مفسـدةٌ للمـرء أى مفسـدهْ

وينشأ عن البطالة وعن الأزمات الأخرى مثل الإسكان ، وتحرك الأسعار نحو الارتفاع ينشأ عن ذلك عدم قدرة الكثيرين مـن الشـباب على الزواج؛ إذ لا يتصور أن يسعى الشخص إلى تكوين أسرة وبـدء حياته جديدة فى الوقت الذى لا يقدر فيه على إعالة نفسه.

ونشير إلى نقطة مهمة فى هذا الأمر، وهى أنه ليس بالضـرورة أن يتحقق فساد عن سوء الحالة الاقتصادية كما لا يتصور تماما أن كل من يملكون المال يتمتعون بحسن أخلاقى لا نظير له، لكن الموضـوع فى مجمله ينحصر فى معالجة الظاهرة والتصـدى لفسـاد البطالـة، والتوجه نحو استثمار طاقات الشباب فى النافع المفيد .

لقد كانت طموحاتنا كبيرة فى توجيه الشباب الراغب فى العمـل إلى تعمير الصحراء والخروج من حيز الشريط الأخضر الضيق الذى يحيط بالنيل لمسافات بعيدة، ولكن ذلك لم يحقق ما كان مرغوبـا فيـه لأسباب يرجع بعضها إلى الروتين والمشكلات المتعددة التى يواجهها

الجيل الجديد فى المدن المستحدثة كما أنه من المؤسف أن يكون بعض الشباب ليس لديه الاستعداد لخوض التجربة وترك ما ألفه واعتاده من الحياة فى القرية والمدينة من أجل الانتقال إلى تعمير الصحراء، ولو نظر كل شاب إلى تجارب الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم فى المدينة، بعد هجرة الرسول والمسلمين إليها لوجد أن من بواعثهم فى الاستثمار إصلاح الأرض، وإحياءها ، وزراعتها، ولم يكتفوا بالجلوس إلى جانب الرسول، أو الركون إلى تجربة المؤاخاة التى كانت بين المهاجرين والأنصار ، والتى اعتبرت حلا مؤقتا لوحدة المسلمين، وتقوية البنية الاجتماعية ، وتأليف القلوب نحو الإخاء والمساواة.

ومن ذلك تظهر بدايات المعالجة الإسلامية للبطالة، والمقاومة الجادة لآثارها المترتبة عليها، ويتمثل ذلك نحو تعمير الأرض وزراعتها؛ حتى يمتص ذلك أعدادا كثيرة ممن يعانون من البطالة، وعدم وجود الفرصة المناسبة للعمل، كما أسهم أيضا بصورة ما تقلص فرص العمل بالدول العربية لاعتبارات كثيرة، مما جعل الشباب فى مصر بخاصة ينكفئ على نفسه ويجتر همومه، ولا يرى له مستقبلا يمكن أن تشرق فيه شمس حياتهم .

ومن هنا يتولد الخطأ، وتنمو الجريمة، ويزداد التطرف، ويقف العلم الذى كان أملا عاجزا عن فرض كلمته فى الأخذ بيد صاحبه إلى العمل والكسب الحلال، فيتجه بعض الشباب إلى التوغل فى النشاط السياسى دون أن يجد ما يشفى غلته، وبعضهم يتجه إلى الدين فلا يجد

المواجهة الصريحة ، والإقناع التام نحو التوجه الحميد، فيكون الاندفاع إلى المؤلفات المتشددة ، والأفكار المتطرفة، ويحدث بعد ذلك أحيانا ما لم تحمد عقباه، كما أن الخروجات على الأنظمة السياسية تتيح لجهـــات الأمن فى ضوء الصلاحيات المخولة لها أو المتجاوزة بها ممارسة نوع من التصرفات التى تلحق أضرارا بالغة بالشباب الذى تاهت منه معالم الطريق فهذه التداعيات مع فسادها تمخضت عن البطالة وسوء الحالـــة الاقتصادية ، ولو أن الشاب وجد فرصة حقيقية للعمـــل لأراح نفســه، وأراح الآخرين، فكيف يجد الشاب أسرته تقيم فى غرفة واحـــدة، ولا يجد قدرة على النقاش بصورة جيدة؛ لأن همومه متكدسة فى رأســه، وبذاته عقد نفسية ومشكلات اجتماعية كثيرة، وتتوالى المصاعب أمـــام عينيه فى الشارع، وفى المواصلات، وأمام أجهـــزة الإعـــلام، وفـــى جوانب كثيرة من الحياة التى لا يرى فيهـــا إلا الإشـــارات الســـوداء، وأمامها ينسى الحب ، ويكتسب الكراهية والحقد لسوء الحيـــاة أمامـــه، ولقلة ما فى يده ولضعف ما فى يد أسرته .

٣ - انتشار المخدرات :

تؤثر المخدرات على اختلاف أنواعهـــا فـــى مســـيرة الأحـــداث الاجتماعية بصورة غير ثابتة تعود أساسا لاعتبارات ومرئيات كثيـــرة، ذلك أن أكثر الجرائم التى تقع فى المجتمع المعاصر ترجع إلى المـــال الكثير، أو المخدرات، أو السلوك الماجن لبعض النساء أو بكل ذلك.

والشخص الذى يوجد لديه المال، ولا يشقى فى الحصول عليه وينفقه بلا وعى دون وازع من ضمير، ولا رقابة من ولى الأمر يتوجه به إلى كثير من المفاسد فى ضوء ما يتاح له، ونزولا على رغبات رفقاء السوء الذين يحكمهم الاندفاع والتهور ولا يخضعون لسلطان العقل والدين ، ويكون الاتجاه إلى المخدرات من أخطر ما ينعكس على الفرد فى صحته، وجهده، وطموحاته ، وينعكس كذلك على المجتمع فتهدر الطاقات ، ويتأثر الإنتاج، وتموت الطموحات، ثم تمتلئ المستشفيات لعلاج الإدمان ومخاطره ٠

هذا إذا كانت الأسرة ترغب فى إصلاح من أفسده المال وأثرت فيه المخدرات تأثيرا خطيرا، ومن المؤسف أن تكون سلوكيات بعض النساء، وبعض الفتيات أيضا عامل جذب لامتصاص ما يحوزه بعض الشباب المارق بهدف الاتجاه إلى الانحراف، والإضرار بنسبة كبيرة من شباب الأمة يرجى منها أن تتبصر للحاضر، وأن تفكر فى المستقبل، وأن لا تغيب عن الرشد والرؤيا الصائبة، فيفقد المجتمع شريحة هامة يرجى منها تحقيق كل ما يفيد الفرد والجماعة٠

والشخص الذى يغيب عنه عقله لا يدرى ما يفعل فيمكن أن يتوجه إلى الجريمة على اختلاف أشكالها، وذلك ما يلحق أيضا ضررا كبيرا بالبنية الاجتماعية، والمخدرات ليست جديدة على المجتمع بل هى معروفة منذ مئات السنين، وكان يتعاطاها، ويتاجر فيها بعض الخارجين على القانون فكانوا يواجهون من السلطة ومن قادة الفكر،

وعلماء الدين ما يبصرهم بخطورة تصرفاتهم، ومع ذلك كانت المخدرات موجودة ولم يتم التخلص منها، غاية ما فى الأمر أن انتشارها كان على نطاق ضيق، وفى دائرة محدودة، لكن المشكلة قد تفاقمت فى السنوات الأخيرة؛ إذ ظهرت أنواع كثيرة من المخدرات لم تكن معروفة من قبل، وهى على الإجمال ذات ضرر كبير سواء ما كان منها غاليا أو رخيصا حسب تقدير تجار هذه السموم، وسواء ما كان منها باعثا على النشاط والإثارة أو على الخمول والهدوء، وهى بتأثيرها الخطير تدفع المدمن لفعل أى شىء فى سبيل الحصول عليها.

إن زيارة واحدة لإحدى مستشفيات علاج الإدمان كافية للحزن الطويل والمرير على زهرات يانعة من شباب الأمة غرقوا للأسف الشديد فى لجة الإدمان ، ولهذا كان من الضرورى جدا بذل الجهد وتكاتف الأجهزة المعنية لمقاومة هذا الخطر الدائم، كما أن من المحزن أيضا أن بعض من يراهم الشباب نجوما لامعين قد أدمنوا المخدرات فانعكست عليهم من كافة النواحى، فغاب الوعى الدينى، وتخلف الإرشاد الفكرى، وأصبح النظام معنيا بأمور تسبق من وجهة نظر الكثيرين هذه المشكلة التى تتفاقم يوما بعد يوم.

ونأتى إلى جريمة متصلة بالمخدرات أو أنها جزء منها، وهى الخمر التى تخامر العقل ، وتغطيه، وتغيبه، فضلا عن تأثيرها الضار بالصحة، وبخاصة الكبد الذى تؤثر فيه تأثيرا سيئا فينعكس أثر ذلك على معظم أعضاء الجسم.

إن القرآن الكريم قد حرم الخمر تحريما قاطعا لما لها من أضرار متعددة، وجاء فى السنة النبوية من الأحاديث ما يجعل تعاطى الخمر كبيرة من الكبائر لا تقل أحيانا عن السحر والزنى والقتل؛ لأن مدمن الخمر عندما يغيب عن وعيه ويفقد وعيه يمكن أن يأتى من التصرفات ما يشيب له الولدان، فيغتصب المرأة ويعتدى عليها، أو يقتل بريئا لا حول له ولا قوة، أو ينتحر فيقضى على نفسه ، ومن العجب العجاب أن يكون تعاطى الخمر مسموحا به فى كثير من الأماكن التى تستقبل السائحين ويعمل فيها زهرات من شباب الوطن، ولابد من مراجعة هذا الأمر ووضع تشريع قانونى لا يجعل الخمر التى حرمها القرآن الكريم والسنة النبوية مختلفة عن الهروين والبانجو .. فما الفرق ما دامت كلها تغيب العقل وتؤثر فى صحة الإنسان، والشباب ينظر إلى كل هذه المرئيات، ويغتر بها، ويتعامل معها اضطرارا فى البحث عن مجال للعمل ، وإن بعض من يعملون فى مجال السياحة، ويشاركون فى تقديم الخمور للنزلاء يتمنون أن يذهب عنهم هذا الشر الماحق، ويبتعدون عن هذه الأمكنة الموبوءة بعصيان الله.

وأذكر ذات مرة أن جاءنى شاب يحمل هما كبيرا، ونفسا منكسرة، وكنت خارجا للتو من صلاة الجمعة فقال: إنه ليس أمامه إلا العمل فى بار بقرية سياحية ليقدم الخمر لضيوفها ونزلائها فماذا أفعل؟ قلت: ما دمت تسأل فأنت فى حيرة وقلق .. وهل تنتظر منى أن أقول لك إن عمل ساقى الخمر حلال لا شىء فيه؟! القول لك ولغيرك إن ذلك لا يصح لك، ولا يجوز منك فأنت مسلم تقى، وخارج مثلى من

المسجد منذ قليل فاحذر أن تقبل هذا العمل خاصة وأنت فى بداية الطريق وترغب فى تأسيس حياتك على الإيمان والتقوى، وأنك بهذا المعيار سوف تصل إلى عمل يرتاح له وتكسب منه، ولا تعص الله فيه .. هدأت ظواهر الشاب، وتبسم بسمة الرضا ، والقناعة، وانصرف هادئا مطمئنا.

إن انتشار المخدرات بما فيها الخمر المحرمة بنص القرآن والسنة يجعل الشباب على شفا جرف هار ، ويدعو النظام السياسى، والجمعيات الأهلية، وسائر منافذ الدعوة، والفكر إلى التكاتف من أجل حماية الشباب من هذه الأضرار التى زادت بدرجة قطيعة، وارتفع معدل توزيعها على كافة المستويات، ثم لابد من القضاء على مافيا التوزيع؛ لأن الشرر المتطاير لا يتصعد من البيئة الداخلية وحدها، وإنما تأتى النيران الملتهبة من الخارج ممثلة فى الأطنان المهربة التى يتم كشف الكثير منها، وربما أفلت القليل الذى غاب عن عيوننا فتحدث الآثار المدمرة للشباب.

أما هؤلاء التجار ففى حاجة إلى المقاومة بأجهزة جديدة واستعدادات مكثفة سواء فى المزروعات التى يخلقون منها السموم أو عملاء الخارج الذين يشاركونهم فى هذه الطامة الكبرى.

٤- تبرج بعض النساء :

تتحمل المرأة [فتاة أو سيدة] التبعة فى بعض الجرائم مثل حوادث الاختطاف، وهتك العرض، والسرقة، ولو التزمت النساء بالعرف

الاجتماعى الصحيح، وحافظت على وقارهـا وحشـمتها لخفـة حـدة الجرائم التى تلحق بها.

إن المرأة بشكل عام فى حاجة ملحة إلى تقوية حسها الإسـلامى والتزامها الاجتماعى الذى يحفظ لها شخصيتها وكيانها ومنزلتها بـين الناس، كما أنه فى ظل الرغبة فى المال تأتى بعض النساء بتصـرفات سيئة استفزازية مخلة بالدين والعرف والأخـلاق، وإلا فكيـف نشـهد المرأة تخرج سافرة شبه عارية، وقد فاحت روائح العطر منها فتثيـر شهوة الظامئين إلى اللهو والعبث وفعل ما لا يليق، فينعكس ذلك قطعـا على الشباب الذى ربما فقد ما لديه من مال قليل أو كثير.

أما حكم الشريعة فى الأمر بغض البصر من الرجال للنساء ومن النساء للرجال فقد صار للأسف الشديد أشبه بنكتة يتندر بها الغـائبون عن وعى الدين، المغيبون عن تقوى الله، الغافلون عن قيمـة وأهميـة زمن الفتوة والشباب، وقد كان لى أستاذ أذكره بالخير دائما مـا كـان يردد المقولة المنتشرة على ألسنة الكثيرين: "من جار على شبابه جارت عليه شيخوخته" وأخلص من ذلك إلى أن تبرج المرأة وعدم التزامهـا يجعلها سبيلا من سبل فساد الشباب الذى ينقصه الوعى الدينى، وتلحق بالمرأة بعض التبعات، فربما تمتهن كرامتها بهتك عرضها أو بسرقتها وخطفها والاعتداء عليها من مجموعة من بعض الشباب خاصة ممن لا وازع لديهم ولا ضمائر لهم فلا يقرؤون كتابا ولا يفهمون شـرعا، ولا يعرفون العواقب التى تنجم عن تصرفاتهم عند الإمساك بهـم وتقـديم

اعترافاتهم؛ إذ أننا ننصح كثيرا، ونتحدث كثيرا إلى جماعات من الشباب معظمها فاهم لعواقب الأمور، أما الذين لا تصل الهداية لهم، ولا يسعون إليها فلا ينقادون إلا لغرائزهم، وشهواتهم المنفلتة.

إن بعض حملة الأقلام، ومدعى الآراء المتقدمة ينفون أن يكون التبرج النسائى سببا فى بعض الجرائم، وإننا نرفض هذا القول، ولا نثق فيه، ولا نظن إلا أنه سم من سموم العلمانية التى تفرق بين الدين والحياة، ونعتقد اعتقادا لا مراء فيه أن السفور، والتبرج من المرأة له علاقة ببعض الجرائم التى ترتكب من الشباب، ومن كبار الأحداث ومن الرجال، فضلا عن الأمور الأخرى التى لا تتوقف عند الكثير الذى ذكرناه فى هذا الموضوع، ونذكر فى هذا السياق قول الله سبحانه وتعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ...﴾ (١).

فعلى المرأة أن تستقر فى بيتها، ولا تخرج منه إلا للضرورة التى تقدر بقدرها سواء أكانت لعمل تسهم به فى استمرار مسيرة الحياة معاونة للأب أم الزوج أم لقضاء مصلحة ضرورية يحتمها الشأن والحال، ذلك لأن بقاءها فى منزلها ورعايتها لزوجها وأبنائها هو

---

(١) النور ٣٠، ٣١ .

الأساس فى الدور المنوط بها فى منزل زوجها ، وكم من أمهات لم يكن لديهن علم نساء اليوم، ولكن عطفها وحنانها على الزوج والأبناء أثمر ثمارا لا تقدر بمال، فالذين عاشوا بين عصر النساء المقيمات فى المنزل وعصر التاركات للأبناء بعد إيداعهن دور الحضانة أو غلق باب المنزل عليهن، هؤلاء الذين عاشوا العصرين يذكرون بالفخر والاعتزاز ما كانت عليه أمهات العصر الأول من بساطة، وعطف، وحنان يزهر ثم يثمر ثمارا يانعة، لكن واقع الأمر يحتم علينا أهمية التعامل مع المرأة الجديدة بمرعيات جديدة أقرب إلى الالتزام عرفا ودينا ٠

ومن هنا نلحظ فروقا ملموسة بين الشباب الذى تربى فى كنف الأمهات السابقات وبين الأجيال الجديدة التى عاشت كثيرا من الوقت بعيدين عن الأم قريبين من موظفة فى حضانة أو خادمة فى منزل، وتبدو من هذه الفوارق أهمية حرص المرأة على وظيفتها الأولى ورسالتها الخالدة فى الحياة، فإذا ما اضطرت إلى الخروج فليكن فى حشمة ووقار يتناسبان مع ما جاء فى كتاب الله وفى سنة رسول الله ﷺ٠

ولا زلنا مع ضرورة مراجعة المرأة لتصرفاتها، وحرصها على ظهورها بالشكل اللائق بها الذى لا ينعكس بأية صورة على من لديهم استعداد، لفعل المنكر ومخالفة الشرع، فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

"لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم"(١) صدق رسول الله ﷺ.

٥ـ فقد القدوة الحسنة :

إن الشباب سريع التأثر بغيره ويميل إلى التقليد كثيرا، ولذلك ينبغى أن يكون كل من حولهم على وعى كامل بأهمية القدوة، وتتمثل فى كل أولى الأمر بمن فيهم الأب والأخ والمعلم وغيرهم بالنسبة للشباب؛ كما تتمثل فى الأم، والأخت، والمعلمة، وغيرهن بالنسبة للفتاة.

ويزخر التاريخ القديم، والواقع المعاصر بالأمثلة الصالحة، والنماذج الطيبة التى تلقى بضوئها على أبصار الشباب الراغب فى المعرفة والهداية.

وإذا كانت القدوة الصالحة تؤتى ثمارها، وتحدث تأثيرها فإن القدوة السيئة ذات خطر شديد ، وغالبا ما ينظر الشباب إلى بعض المشاهير من الرجال والنساء فى الفن، والرياضة، والسياسة، وغيرها ثم يحاول الشباب تقليدهم، والسير على دروبهم بما فيها من خروجات لا أول لها ولا آخر، ولا تسعفهم إمكاناتهم المحدودة، فعند ذلك يفكر فيما يحقق دوافعه، فيسعى إلى ذلك حتى لو وقعت الجرائم التى تعد قضاء على مستقبله وإساءة لسمعته.

لابد أن يحصن الشباب بالأمصال الواقية، وتتجلى فى الأخلاق الفاضلة، والقدوة الصالحة، وأول ما يجب على الناس جميعا أن يقتدوا

---

(١) متفق عليه .

به هو شخص أعظم الرجال وسيد الخلق سيدنا محمد ﷺ قال تعـالى : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١) .

ولابد أن نحيى وننمى الأخلاق الإسلامية فى نفوس الشباب حتى لا يألف الضعف والمهانة ، وقد كانت الأمة الإسلامية بدءا من عصر المبعث خير الأمم لأمور كثيرة منها : أمرها بالمعروف، ونهيها عـن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (٢).

ونبه الرسول ﷺ إلى حتمية تغيير المنكر فقال: (فيما يرويه أبـو سعيد الخدرى) : "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لـم يسـتطع فبلسانه، فإن لم يستطيع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"(٣).

ولابد أن تكون الرغبة فى التغيير فى حدود الاستطاعة، حتى لو كان ذلك بالقلب الذى يرفض المنكر، ويفقد الثقة فى فاعله، بشـرط ألا يترتب على التغيير ضرر أكبر ينعكس على الفرد والجماعة؛ لأن درأ المفاسد مقدم على جلب المصالح، ثم إن التغيير لابد أن يكون مسـبوقا بالأمر بالمعروف ، وأن يكون موجها فى المقام الأول إلى من للإنسان

---

(١) الأحزاب ٢١ .
(٢) آل عمران ١١٠ .
(٣) رواه مسلم .

عليهم ولاية، وأن يكون الأداء فى كافة صوره بأسلوب مهذب راق يعبر عن المنهج الإسلامى فى الدعوة والإرشاد، كما أنه من الخطورة أن يتخاذل الشباب من خلال فقد القدوة الصالحة إلى السلبية أمام المنكرات التى يشاهدها كل إنسان ويلمسها عن قرب.

روى النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : "مثل القائم فى حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا فى سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا"(١).

وقد تخاذل كثير من الناس عن تغيير المنكر، واكتفوا بالتحسر والأسف والامتعاض ومصمصة الشفاه على ما يقع أمام أبصارهم.

٦ - التأثير السلبى لأجهزة الإعلام :

يتأثر الشباب ويندفع إلى الجريمة لأسباب كثيرة منها ما يشاهدونه فى الإذاعة المرئية، والقنوات الفضائية، ووسائل الاتصال كالإنترنت التى تمثل فيها الجريمة، وكأنها ماثلة أمام الشخص فى الواقع وليس فى الصورة.

إن جرائم العنف والسرقة والغصب التى يشاهدها الشاب أو يقرأ عنها تؤتى آثارا ضارة لا تتوقف عند حد معين، كما أنها تزداد تأثيرا

---

(١) رواه البخارى.

وخطورة على الأطفال والمراهقين، وتكمن زيادة الخطورة فى أن عالم اليوم صار بهذه الوسائل كأنه مجموعة من القرى المتلاصقة التى يزداد التحامها ، وتقارب جرائمها، ولذلك لابد من التوعية الدائمة بكل ما فى هذه الأجهزة من غث وسمين، ومن مفيد وضار؛ لأن القضية عندما تطرح للنقاش تأتى الكلمة المتداولة على ألسنة أصحاب الرأى الآخر وهى أن الإنسان يملك أداة تشغيل هذه الوسائل وإغلاقها، فهو صاحب الكلمة الذى يستطيع إدارة الأمر حسب المتطلبات الملحة عليه ووفق التقدير الذى يراه فى ظل رعاية ولى الأمر، ومتابعته لهذه الوسائل.

لكننا نقول أيضا بأهمية ترشيد هذه الأجهزة وتوظيفها لتوعية الشباب، وتنمية الروح الدينية ، والقومية لديه، وهذه الجزئية من الموضوع تمثل أهمية للراغبين فى المعرفة الطامحين فى زيادة ثقافتهم، ويبقى الأمر فى مجموعه خاضعا للميول والاتجاهات.

كما أنه من الخطأ الكبير أن تتسابق الصحف والمجلات على اختلاف توجهاتها إلى نشر الجرائم والفضائح الاجتماعية مقرونة بالصور العارية، والمناظر المخلة؛ إذ أنها تصيب صغار الشباب وكبارهم بحالة من الاضطراب أو اليأس على حاله فى ظل ما يشاهده ويقرأ عنه ، بل إن كثيرا من هذه الفضائح التى تركز على النواحى الجنسية والأفعال المخلة بالشرف والكرامة تحض على ممارسات شبابية شاذة، وجرائم مختلفة استنادا إلى حدوثها فى المجتمع على

مرأى ومسمع من أولياء الأمر وقادة الفكر، فمتى يتحقق ما ينادى به الكثيرون من تنقية وغربلة للمادة الإعلامية، التى تخدش الحياء العام، فضلا على تشجيع الشباب على ممارستها، وكأن هذه الوسائل الإعلامية تأخذ بيد الشاب إلى الوقوع فى براثن هذا الفساد، كما أنه من المهم فى هذا السياق أن تشمل الرقابة أو المتابعة لما يمثل فى [السينما] أو المسرح؛ إذ أن ما يقع فيهما لا يقل فى تأثيره عما يحدث فى أجهزة الإعلام التابعة للدولة أو غير التابعة لها .

كما أن القنوات الفضائية التى زاد عددها تواصل السباق نحو جذب الشباب إلى العصيان، والتمرد، والتشجيع على الباطل، والمنكر، من خلال البث المتواصل الذى يكون الهدف فيه منصبا على الكسب المادى الرخيص، وتبقى أمامنا بعض الصور المشرفة والملتزمة كحائط صد نعدُّه ضعيفا فى مواجهة العرى والعار الذى تبثه القنوات الأجنبية، وللأسف المحلية كذلك، ونسأل الله الهداية لشباب الأمة الذى تناط به مسئوليات كبيرة نحو الأخذ بمستقبل البلاد إلى العلم، والابتكار، والاختراع، والتجديد، وشغل الوقت فيما يفيد، وممارسة اللهو المباح، والترويح المرشد بما يحقق الفائدة للشباب من ناحية توجيهه إلى العمل وتحصينه من سلبيات هذه الأجهزة على اختلاف أنواعها وتنوع مقاصدها.

٧ - الحرص على العلم وشغل أوقات الفراغ بالنافع المفيد:

إن توجيه الشباب إلى العلم لا يحتاج إلى بيان كثير؛ فإن ما يشاهده ويلمسه فى الحياة المعاصرة يجعل عنايته بالعلم لا تتوقف عند

حد، ذلك أن الأمر فى مجموعه يكشف عن أهمية تحصيل العلوم والمعارف، سواء ما اتصل منها بالدين أو ما كانت موجهة لخدمة الحياة والخدمة الشخص ذاته، ذلك أننا نذكر فى كل مناسبة يأتى فيها ذكر العلم بيان الوحى الإلهى، وأن البداية بالقرآن الكريم كانت أمرا للرسول ولأمته بقول الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (١)،وقال تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ (٣).

ولذلك فإن الأمة الإسلامية قد تشرفت بالقرآن الكريم الذى كان ولا زال آخر هدى الله سبحانه وتعالى لعباده٠

ويأتى توجيه الشباب إلى العلم تحفيزا لهم على الاستقامة والالتزام وخشية الله ،قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ﴾ (٤).

والأمم فى عشرات السنين الماضية اشتد السباق بينها فى المجالات العلمية، حتى أصبح العلماء المتميزون من الثروات القومية

---

(١) العلق ١ ـــ ٥ ٠
(٢) سورة الإسراء ٦٥ ٠
(٣) الرحمن ١، ٢ ٠
(٤) سورة فاطر ٢٨ ٠

التى لا تقدر بثمن لمواهبهم، وقدراتهم، وتميزهم فى التخصصات التى برعوا فيها، ولا زلنا نذكر ما حدث فى روسيا بعد تفكك الاتحاد السوفيتى؛ إذ كانت كثير من الدول النامية شديدة الإحساس بقيمة هؤلاء العلماء، فكانت تسعى إليهم وتقدم لهم الأموال؛ لكى ينتقلوا إليها ويفكروا ويعملوا لحسابها، وحدث شبه ذلك فى أماكن أخرى . بل إن بعض الدول مثل أمريكا تحرص على استقطاب كل من تجد لديه الاستعداد لخدمة توجهاتها العلمية التى فاقت بها معظم بلدان العالم، كما أن بعض الراغبين فى العلم، الحريصين على التميز الذين لا يجدون الفرصة مواتية لهم فى أوطانهم فيسعون للانتقال إلى بلدان أخرى تقدم لهم من الإمكانات ما يجعلهم يشقون الطريق؛ ليصلوا إلى ما يحلمون به، ويسعون إليه، ونحن هنا فى أمتنا العربية ننشغل كثيرا بالأقوال دون الأفعال، وباللهو دون العمل، وننسى كثيرا السباق المحموم إلى التحضر والرقى عن طريق العلم، وننسى أيضا علماءنا السابقين الذين لا زالت أبحاثهم محل تقدير وإعجاب عند علماء الغرب، ونذكر منهم بكل إعزاز وتقدير ابن سينا، وابن رشد، والخوارزمى، والحسن بن الهيثم.

وفى كلمة عن تحصيل الشباب للعلم والمعرفة كتب الدكتور/ أحمد الشرباصى قائلا:

"يجب على الشباب العربى أن يحصل فى هذا العصر على أكبر قدر ممكن من العلم والمعرفة والثقافة؛ لأننا فى عصر لا تتنافس الأمم

فيه بأجسامها، أو سعة أرضها، أو كثرة أفرادها، أو انفساح مداها؛ بل نحن فى عصر التنافس بالعقول والأفكار، والاختراع والابتكار؛ عصر العلم والفكر ؛ عصر الكتاب والمعهد والمعمل والجامعة؛ عصر المذياع والبرق والبارجة والمدرعة والطرادة والغواصة وحاملة الطائرات والقنبلة الذرية وتحطيم الذرة وغير ذلك من ثمرات البحث والدرس والإطلاع ؛ فى عصر الوصول إلى أدق ما فى الكون من أسرار؛ فى عصر استخدام الهواء والماء والسماء وجوف الأرض، فى عصر استخدام الإنسان والحيوان والنبات والجماد والأثير، وما هو أدق من الأثير؛ وهذا كله لم يتيسر إلا بالعلم والفكر، والثقافة التى أخرجت روائع العقل البشرى، وعبقريات الفكر الإنسانى.

وما من أمة اليوم تستطيع أن تشارك فى الأمور الدولية ، أو تساير ركب الحياة العالمى إلا إذا كان لها نصيب موفور من الثقافة والعلم والفن"(١).

كما أن التقدم العلمى لا قيمة له إذا لم يكن مصحوبا بالمبادئ الصحيحة والسلوك الحميد الذى يستثمر فى خدمة كل الشعوب، ولابد من فهم الشباب لكل ذلك واستنفار وعيه للتحرك نحو النافع المفيد له ولأمته، ولذلك ينبغى أن يحصن تماما بالوازع الدينى الذى يقيه من بعض سلبيات الحياة المعاصرة.

---

(١) واجب الشباب العربى — أحمد الشرباصى ص١١، ١٢ طبع فى مطبعة الرسالة بالقاهرة عام ١٩٤٨م.

ولذلك لا ينبغى إغفال العلوم الإنسانية من دعوة الشباب إلى العلم؛ لأنها تعطيهم زادا تكتمل به المعارف والثقافات التى ينبغى ألا تكون مقصورة على مجال دون آخر، ومن ذلك تعلم اللغة العربية الفصحى، وإجادتها، والحرص عليها فهى عطاء إلهى وتوفيق ربانى نزل القرآن بها، وتجمع العرب عليها، ومنها تعلم الآداب وتذوق الفنون فبها تسمو المشاعر وترقى القلوب وتهذب النفوس، وينعكس كل ذلك على شباب الأمة الذين ينبغى أن تكون العلاقة بينهم مشمولة بالسماحة والخلق الرفيع.

إن السلوك الصحيح للشباب ينبغى أن يكون دافعا له نحو التفوق فى المجال الذى يهواه ويميل إليه، ولننظر ونحن بصدد تأصيل هذه الثوابت فى نفوس الشباب إلى تراثنا العربى القديم، وما ينبغى علينا نحوه من حفظ وصيانة؛ حتى يبقى معطاء وذخرا للأجيال التالية.

ولا ينبغى أن يفهم من التأكيد على أهمية حرص الشباب على العمل أن يميل إلى العزلة، أو يقصر فى حقوق أهله، ومستلزمات أصحابه المخلصين الذين يرى فيهم عونا له فى مسيرة حياته، فإذا كانت الدعوة إلى استغلال وقت الفراغ دعوة مأخوذة فى الاعتبار؛ إذ يجب استثمارها استثمارا جيدا حيث يكون ذلك بالترويح المفيد امتثالا لقول رسول الله ﷺ : "روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت ..."(١).

---

(١) رواه الديلمى ، وله ما يؤيده فى مسلم .

كما أن استثمار الوقت بالرياضة المناسبة بما يشجع على تجديد الذهن، وتقوية البدن، وزيادة المعارف والأصدقاء، ونذكر في هذا الصدد مقولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل.

إن شغل أوقات الفراغ بالنافع المفيد يأتى تحفيزا للشباب على العلم، وتشجيعا لهم على استمرار العمل، ومقاومة الخمول، والميل إلى التراخى الذى يترتب عليه ما يؤثر تأثيرا معاكسا فى حركة الشباب وتوجههم نحو العلم والعلماء.

٨ـ الدعوة إلى الله بالحسنى ونبذ التطرف والتعصب:

إن كثيرا من الشباب فى السنوات الأخيرة وجد نفسه فى فراغ، وليس لديه ما يشغل نفسه به، فبدأ يتجه بحاسته الإيمانية إلى القراءة والإطلاع، ونظرا لقلة محصوله الثقافى لم يكن يحسن فى أغلب الأحوال اختيار ما يتناسب مع معارفه وقدراته، فكانت يده تقع غالبا على كتب ومؤلفات لا تصلح له إما لأنها كتبت لمرحلة غير الحقبة التى يعيشها، أو أنها لا تتناسب مع سنه فلا يحسن فهم ما فيها، وبسبب موقفه الرافض لكثير مما حوله أخذت قناعته تزداد بالآراء المتشددة، والأفكار المتطرفة، وفى غمرة هذه الظروف أخذت تنمو فى أعماق المجتمع جماعات تدعى ارتباطها بالإسلام، وهى لا تحسن فهمه أو لا علاقة لها بالإسلام أصلا، وكلنا يشهد مقدار ما نما فى المجتمع من هذه الجماعات، فكان الشباب يترك الأصول ويجادل فى الفروع،

وغالبا ما يكون جداله ليس بالتى هى أحسن، وكأنه نسى مقولة الإمــام الشافعى فيما نذكر وهى (رأيى صواب يحتمل الخطــأ، ورأى غيــرى خطأ يحتمل الصواب) ..

مع أن الدعوة القرآنية تدعو وتنص على أن يكون النقاش مرتبطا بالكلمة الهادئة والأسلوب الرصــين ، قــال تعــالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (١) .

وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ (٢).

فالاتجاه إلى اليسر والحرص عليه والعمل بــه دعــوة صــريحة ينبغى أن تكون فى ذهن شباب المسلمين الذين يعدون أنفسهم ليكونــوا حماة للدين وأنصارا للحق ونماذج للأخلاق الطيبة.

فقد روى عن رسول الله ﷺ .. أنه ما خير بين أمرين إلا اختــار أيسرهما ما لم يكن إثما ، فالغلو فى الدين والتشدد فى الأحكام لا يحقق نتائج ملموسة فى سبيل الدعوة إلى الله والوصول إلى عــين الحقيقــة والصواب، وقد جاء خطاب القرآن موجها إلى أهل الكتاب، لمــا أثــر عن بعض أهل الأديان من ممارسة الغلو بصورة غير مناســبة قــال تعالى:﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ﴾ (٣).

---

(١) سورة العنكبوت ٤٦ .
(٢) البقرة ١٨٥ .
(٣) سورة المائدة ٧٧ .

وقال رسول الله ﷺ : "إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو"(١).

إن بعض الشباب يفهمون الأمر على غير حقيقته فيتحدثون عن أهل الأديان الأخرى حديثا يتضح فيه التشدد ولا تتجلى فيه الحكمة ولا الموعظة الحسنة، فيحاولون أن يوجهوا من يناقشونه إلى اعتناق الدين الإسلامى، ناسين أن القرآن والسنة لم يلزما أحدا من أهل الأديان الأخرى بهذا الأمر، مصداق ذلك قول الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾(٢)،وقال تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾(٣).

ثم إن الدعوة إلى الله لابد أن تكون بالأسلوب المتحضر والكلمة الرقيقة وإذا ما تحولت إلى جدال أو مخاصمة ينبغى أن يكون ذلك فى حدود السلوك الحسن، والصوت الهادئ لأن السلوك الشائن ينفر المناقشين ويرهب المجادلين، ولا يأتى بخير.

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ (٤).

---

(١) رواه أحمد والنسائى وابن ماجه وغيرهم بإسناد صحيح.
(٢) البقرة ٢٥٦ .
(٣) الكافرون ٥ .
(٤) آل عمران ١٥٩ .

فالرفق فى القول مطلب أساسى فى مجال الدعوة إلى الله بل فى كل المجالات الإنسانية، ونذكر فى هنا حديث رسول الله ﷺ : "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق.. [١]" .

أما الذى يتعصب لرأيه فقد استحق الإنكار والرفض من الله سبحانه وتعالى؛ لأن الذى يتمسك برأيه يصل به الحال إلى أن يجعل من هذا الرأى إلها من دون الله.

قال تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [٢] فالتطرف والتعصب للرأى سلوك يميل إليه كثير من الشباب كما ذكرنا، وقد كتب عنه الدكتور/ أحمد كمال أبوالمجد : "إن التعصب موقف فكرى، وسلوك ملازم للجهل، وقلة الاكتراث بالحرية، وهو موقف يتجاوز دائرة الأديان ؛ ليشمل كل صور التعدد فى المجتمعات، وفى إطاره الضيق تعجز الجماعات عن استيعاب التعدد الحقيقى فى أى جانب من جوانب الفكر والسلوك والمواقف الاجتماعية"[٣].

وفى جانب آخر لا ينبغى إنكاره أو تقليل من دوره وأهميته توجد جماعات معتدلة تأخذ الأمر من جانبه اللين، ولا تبالغ فى التشدد وفرض الرأى على الآخرين بالجدال الذى لا قيمة له فى مناقشة الأمور، ولا يسفر عن بعض الثوابت كالتى تمخضت عن نقاشات

---

(١) رواه أحمد .
(٢) سورة الجاثية ٢٣ .
(٣) رؤية إسلامية صـ٣٧ .

السوفسطائين فى اليونان القديمة حيث تمخض عن جدالهم بواكير علم الفلسفة الذى بقى دوره مؤثرا فى حركة الفكر الإنسانى٠

فالجماعة الرشيدة الهادئة الواعية الملتزمة لها دور مؤثر ومضاد بصورة مطلوبة لأصحاب الرأى المتشدد؛ حتى لا يميل الأمر كله إلى جماعات التعصب، ونذكر القارئ بحديث رسول الله ﷺ الذى قال فيه: "ما بعث الله من نبى، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى"(١).

ولابد أن يكون رأى الشاب نابعا من نفسه وليس تابعا لغيره؛ لأن جوهر الإسلام وحقيقته الناصعة تحض المؤمن على استقلالية شخصيته ــ بعد التشاور مع الآخرين، فيما لا علم له به، وبحيث يستمع إلى آرائهم فى هدوء ودعة، ولا يرفض رأيا أو يسفه أسلوبا لآخر فى حدود دعوة الإسلام للالتزام بالأدب الخلقى الرفيع مصداق ذلك قول رسول الله ﷺ : "لا يكن أحدكم إمّعة، يقول: أنا مع الناس، إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساؤوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إذ أحسن الناس أن تحسنوا ، وأن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم" (٢).

وفى ظل تكوين الجماعات المختلفة التى تتمذهب بآراء خاصة بها ظهرت أيضا ظواهر تمثل خطرا وتأثيرا سيئا بين طوائف الشباب، فنسمع مرة عن جماعة تلتف حول رجل يدعى النبوة، كما نقرأ عن جماعة شاذة أطلق عليها جماعة عبدة الشيطان ــ كما ظهرت سوالب

---

(١) رواه البخارى٠
(٢) رواه الترمذى ٠

شبابية لا علاقة لها لا بدين ولا بعرف، وإنما اتخذت من العنف سبيلا إلى الخروج على أنظمة الدولة ودور العلم، وإلا فمن كان يتصور قبل نصف قرن ظهور العنف والبلطجة فى الجامعات والمدارس، ومن كان يتخيل أنه سيأتى يوم يلتقى فيه الشباب والشابات فى أماكن اللهو والعبث بصورة مخلة بالدين والأخلاق، فهذا التحلل لا تفسير له سوى سوء الإعداد وخطورة التقليد وما سوى ذلك مما سبق ذكره .

ونرى فريقا يتجه فى دعوته عن طريق ممارسة السياسة فيحاول أن يبدى رأيه فى كل ما حوله، ويدخل إلى هذا الأمر متحديا السلطة تحت مشروعية تغيير المنكر، ووجوب الحكم بما أنزل الله .

ظهرت الأحزاب السياسية التى أعترف بها وتأسست بمصر فى السبعينيات من القرن العشرين حيث بدأت كمنابر سياسية ثم تحولت إلى أحزاب سياسية[١]، ولم تنهض بدورها فى استقطاب الشباب وتوجيه طاقاتهم توجيها صحيحا يفيدهم فى علومهم ومعارفهم وأعمالهم وأنشطتهم وتعدهم لأن يكونوا قادة ورادة فى مستقبل الأيام.

لقد فشلت هذه الأحزاب ذلك أنها لم تقم – فضلا عما ذكرنا – على مبادئ ثابتة مقنعة يؤمن بها الشيوخ ويلتزم بها الشباب؛ إذ كان الهم الأكبر هو المصالح الشخصية قبل أى شيىء آخر، ولذلك لم يجد الشباب متنفسا يمارس فيه توجهاته التى يمكن أن يؤمن بها، وتزداد قناعته بأفكارها، ولكن تبقى قضية زاد الاهتمام بها خاصة فى المرحلة

---

(١) كانت الأحزاب السياسية قد ألغيت بعد ثورة عام ١٩٥٢م.

الأخيرة وهى جماعة الإخوان المسلمين، إذ نشأت هذه الجماعة فى الثلث الأول من القرن العشرين، وكانت فى المراحل الأولى ذات توجه إرشادى، امتثالا للدعوة إلى الله بالحسنى، واعتمادا على فهم المرشد وأعوانه لجوهر الإسلام، فبدأ الناس يلتفون حولها، وتزداد قناعتهم بها إلى أن زاد حراكهم الدينى، ونمت رغباتهم فى تغيير الواقع إلى صورة يرضون عنها حتى لو رفضها بعض المناوئين لهم، وشاركت فى التصدى للمحتل الأجنبى قبل ثورة ١٩٥٢م ، حيث تدربوا على حمل السلاح مع شركائهم من جماعات الضباط الأحرار ، ولما قامت الثورة كانوا يظنون أنها لم تغفل عن مشاركتهم فى الإعداد لها والإسهام فيها، ورغبت جماعة الضباط الأحرار الذين ساسوا الأمور فى تجنيب الإخوان عن المشاركة فى الحكم، ومن هنا بدأ الصدام الذى تحمل الإخوان بسببه كثيرا من الضحايا وكثيرا من الرجال الذين أعدموا أو عاشوا فى السجون والمعتقلات، ولم يسمح قادة الثورة إلا بوزير واحد للأوقاف من الإخوان المسلمين فاتجهت عيونهم إلى الشيخ أحمد حسن الباقورى، ولكن الإخوان رفضوا اختياره، بينما قبله الشيخ الباقورى ووافق عليه، فكان موقف الإخوان هو فصل الشيخ الباقورى من الجمعة.

لا شك فى أن الإخوان قد فعلوا ما يجعلهم فى مقدمة الجماعات والحركات الإسلامية، ليس فى مصر وحدها وإنما فى دول أخرى، وبقيت الجماعة تظهر عندما يسمح لها بذلك، ثم تختفى ويطول اختفاؤها إلى أن تعاود الظهور من جديد، وقد عُدَّتْ من الجماعات

المحظورة إلا أنها فى السنوات الأخيرة بدأت تهتم بـالنشء والشـباب وتبدأ معهم كما بدأت عند بداية تكوينها، لكنها على كل حال مرفوضـة من النظام السياسى، ولا نظن فى ظل الأوضاع الراهنة أن يسمح لهـا بتكوين حزب سياسى ينضوى تحت لوائـه كـل أعضـاء الجماعـة، وتتحول عن بعض ما توصف به من أنها جماعة عنف إلـى جماعـة دعوة ذات توجه سياسى واضح، ولذلك فإنها تختلف فى معظم الأمور عن جماعات أخرى ظهرت ثم ماتت أو فى طريقها إلى الموت .

ونسأل فى ظل هذه الأمور عن موقف الشباب، ثم نجيـب بـأن الكثيرين منهم تائهون متشددون متطرفون إلا من عصم ربى، فإذا كنا قد ذكرنا ذلك بما يخص الشباب، فإننا نؤكد الفوارق الواضـحة بـين جماعة تتجه نحو الاعتدال فى الـدعوة وجماعـات أخـرى صـغيرة محدودة الأفق تتراوح أعمار أعضائها بين الخامسة عشـر والخامسـة والعشرين، وتلجأ إلى الإرهاب والقتل، لا عن عقيدة وفكـر ولا عـن مذهب ورأى، ولكن عن رغبة فى إثارة الفزع والحصول على بعـض الأموال من أفراد وطوائف فى الداخل أو الخارج حيث تقتصر مهـام هذه الجماعات على معاداة الدولة وكراهية النظام، وإثبات الوجود حتى ولو بالقتل.

ثم ظهر فى الثمانينيات اتجاه اعد مقبولا بصـورة جيـدة وهـو الحوار مع الشباب، وذلك ما جرت ممارسته مع الراغبين فى المعرفة فى مواقع كثيرة على أرض مصـر مـع علمـاء مختلفـى الأعمـار

والتوجهات، لكن هذه الحوارات لم تثمر الثمرة المرجوة؛ لأن الهدف منها كان موجها فى المقام الأول نحو تماسك النظام وليس التوجيه الملائم لأعمار الشباب، كما أن الحوارات كانت مسجلة، وكأنهم كانوا يختارون لهذه الحوارات علماء (معروفى الرؤية والمذهب) كما كانوا يختارون شبابا معتدل الهوية، وكأنهم أتوا بهم بمقاييس خاصة، لكى لا يتجاوزوا الخطوط الحمراء فى حواراتهم وأسئلتهم، واستمر هذا الأمر مدة زمنية، ثم اختفى تماما فكان ظهور الإخوان مع بداية القرن الحادى والعشرين فى أثواب جديدة تتجه بمبادئها نحو الأجيال الواعدة التى ظهرت بأفكارها فى النقابات المهنية والأندية الرياضية والثقافية، ثم فى الجامعات، وهكذا يبدو الأمر فى ظاهره مضطربا وليس فى صالح الشباب الذى بات فاقدا الثقة فى معظم الأمور التى تهم الدين والوطن.

٩ـ العنف والإرهاب ـ الوقاية والعلاج :

لا يختلف التطرف عن الإرهاب كثيرا، فهما وجهان لعملة واحدة[١] وإن كان من الواضح أن الإرهاب يأتى تاليا للتطرف، ومترتبا عليه؛ لأن الذى يتشدد فى آرائه ويبتعد عن الوسطية فى أحكامه ، ويميل إلى العسر فى شتى جوانب حياته، تاركا اليسر الذى هو سمة من سمات الإسلام ... لا يلبث هذا المتطرف أن يمارس الإرهاب سبيلا إلى فرض الرأى، متحاشيا الحوار، والدعوة إلى الرأى

(١) انظر التطرف والإرهاب للدكتور/ أحمد شوقى الفنجرى صـ٢٥ .

الصائب بالحسنى والكلمة الطيبة، ومن المؤسف فى كثير من الأحوال أن هذا الشخص يتوجه بسلوكه إلى المقربين منه، فيحاول أن يلزمهم بما يعجزون عن تحمله، فمن هنا ينشأ الصراع، والعنف الذى لا يتوقف به عند حدود أهله، وسائر أقربائه، وإنما يشمل بعض طوائف المجتمع ممن لا يقتنعون برأيه، ثم تتسع خطوط التشدد والإرهاب فتصل إلى النظام الحاكم، منتقدا العيوب التى يراها فيه مطالبا أفراد النظام بمطلوبات نعبر عن آرائه المتشددة ، لكنها لا تصلح فى مجموعها للتطبيق فى عالم الواقع والممارسة السياسية ، وإذا ما وجد الشاب نفسه فى مأزق فكرى، ولا تساعده قدراته على ممارسة العنف فيميل إلى العزلة متحاشيا التعامل مع أفراد النظام السياسى، وكل من يرضى بمناهجهم وأفكارهم لإدارة شئون الحكم على كافة المستويات ٠

وفى أثناء العزلة التى اتخذها سبيلا لمراجعة النفس يصبح فى فراغ متواصل تتولد منه الكراهية لمعظم الأفراد والجماعات الذين يمثلون بعض الشرائح من المجتمع والنظام ٠

والإرهاب بالمفهوم المعروف لنا ليس قاصرا على الشباب، وإن كان تأثيره عليهم شديد الخطورة لما يملكونه من رغبة فى التعبير بسرعة لا تقبل التأجيل، وهذا ما ينعكس عليهم بأضرار بالغة، كما يمتد الإرهاب أيضا إلى الجماعات على اختلاف توجهاتها الدينية والسياسية والفكرية مما يجعل جوانب المعيشة للتطرف كثيرة، ولا تتوقف عند حدود معينة يمكن فيها أن نفرق بين جماعة وأخرى كما تتسع دوائر

الإرهاب فتصل إلى مستوى الدولة الواحدة، وربما يصل إلى مجموعة من الدول مع اختلافها فى أنظمة الحكم، وإن كانت تتوافق فى الممارسة العنيفة فى القضية التى تشغل بها هذه الدول، وتحرص على تكوين ما يمكن أن يكون جبهة واحدة تتخذ من العنف والإرهاب سبيلا لفرض الرأى ابتداء بممارسة العنف اللفظى، والتحريض الفكرى، إلى العنف الفعلى الذى يخلف ضحايا كثيرة من القتلى والجرحى، فضلا عن إتلاف الكثير من المنشآت، وسائر الممتلكات، وقد شاهدنا فى السنوات الأخيرة العنف الذى تقوم به إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى، وممتلكاته من المنازل، والمرافق، وغير ذلك٠

والإرهاب سلوك عام فى كثير من الدول تدين به جماعات، وتتخذه أسلوبا للحياة[١] وقد تكون هنا فى مصر بعض الجماعات التى ترفع شعار الإسلام، وتسير تحت رايته ، حيث توجهت توجها حميدا فى كثير من الأمور، لكنها كانت تطالب بالعلاج والتغيير الفورى الحاسم، وضرورة الحكم بما أنزل الله، وتطبيق الشرع تطبيقا كاملا دون استعداد لقبول التدرج فى التنفيذ، فتولد من جراء ذلك عنف لصق بالجماعات المتطرفة والجماعات المعتدلة، مما أسهم فى رسم صورة سيئة عن الفكر الإسلامى، الذى وصف فى الدول الغربية بأنه فكر يحرض على القتل، ويحيا فى متاهات الزمن الماضى، ولا يؤمن بمتغيرات الحياة ومتطلباتها، لكن الحقيقة أن الإرهاب ليس مقصورا

---

(١) انظر جريدة الأهرام يوم ٢٩/ ٧/ ١٩٩٢م٠

على أتباع دين أو مذهب معين، وإنما يوجد المتطرفون الذين يمارسون العنف لأسباب مختلفة فى العديد من الأديان السماوية وغير السماوية، كما أن الأمر نفسه يمتد ويتواصل إلى بعض التوجهات السياسية والفكرية ٠

وهكذا يتجلى لنا من خلال الواقع الداخلى والخارجى أن الإرهاب سلوك متعدد الدوافع والأهداف، يؤمن به معتنقوه بهدف فرض الرأى بالقوة بعد الفشل فى تغييره بأقل من ذلك، وفيما يتعلق بالجماعات الإسلامية التى مارست العديد من التجارب فى السنوات السابقة ليسوا جديدين على الساحة ولا على المجتمع الإسلامى؛ فتاريخ الحركات الإسلامية يذهب إلى أبعد من ذلك، لكن معالجتنا لهذا الأمر تتجسد فى المعاينة والمشاهدة التى لمسناها بأنفسنا، وتحدث عنها كثير من المعاصرين، فأعضاء هذه الجماعات يوصفون بصفة عامة وهى التشدد فى سائر أمور الحياة، كما يوصفون أنهم متطرفون، أو أصوليون أو سلفيون، مع أن هذا ليس عيبا، وكل ذلك ما دام فى نطاقات لا تصل إلى مرحلة العنف فهو أقل ضررا من فريق آخر يتخذ أتباعه من الإسلام ستارا، ويمارسون الإرهاب بشتى صوره مما يجعل الصورة قاتمة السواد، وهذا ما يدعونا إلى ذكر بعض أسباب الإرهاب تمهيدا لإيجاد حل لهذه المعضلة التى تسيئ إلى الدين أكثر مما تفيده، وتتمحور هذه الأسباب فى مجملها حول الفراغ السياسى، والبطالة، والميل إلى التشدد والتطرف، وسلبيات أنظمة الحكم، وبعض الأمور الأخرى التى سبقت الإشارة إليها، وليكن معلوما أنه لا يمكن القضاء على التطرف والعنف والإرهاب بالطرق البوليسية وحدها، ولكن لابد

من العلاج الهادئ والحوار الهادف، فمن خلال الحوار يمكن الوصول إلى الحقيقة الواضحة تمهيدا للمعالجة، ولابد أن يراعى فى المتحاورين مع الشباب مذاهبهم، وتوجهاتهم فإذا كان المتشددون ومرتكبو العنف والإرهاب طلاب سياسة فليكن المتحاورون معهم ممن يفهمون أبعاد الأمر، ويدركون أهمية الحوار، حتى يتحقق بعض المستهدف على المدى القريب.

أما معظم أبعاد هذا الأمر فترتبط بالجماعات الدينية للمرعيات التى تحدثنا عنها، ولا علاج لمقاومة الجماعات التى يتخذ بعض أعضائها من العنف سبيلا إلى فرض الرأى ــ إلا العلاج الدينى وهو من أهم الوسائل فى المعالجة ، وما سواه لا يقدم ولا يؤخر، بل ربما يزيد الأمر تعقيدا ويولد من العنف عنفا، والمعلوم يقينا أن الإسلام لا علاقة له بالعنف ولا يحرض عليه، ونقدم فى هذا الأمر بصورة عامة قابلة للاتساع قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [١].

وقال ﷺ : "لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض"[٢].

وأما الذين يمارسون العنف مع أهل الأديان الأخرى بصورة عامة فإن صنيعهم ليس مسايرا لسماحة الإسلام ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ

---

(١) الأحزاب ٥٨ .
(٢) متفق عليه .

أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ (١).

وقال تعـالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (٢).

إن مقاومة بعض المتشددين الذين يتخذون من التطـرف الـديني سبيلا إلى فرض الرأى لابد أن يكون التصدى لهم ومقاومة أفكـارهم ومعالجة حالاتهم بدواء لا نرى سواه وهو العلاج الدينى.

ويتطلب ذلك تجديدا فى الخطاب الدينى يتواكب مـع المتغيـرات الجديدة والأفكار الوافدة فلابد إذن أن تتغير معايير خطبة الجمعة بحيث تكون محاور الحديث فيها عن القضايا المهمة التى تتصل بالمشـكلات الاجتماعية، وأن تخطو وزارة الأوقاف خطوات واسعة فى سبيل ذلك، وبحيث لا تتم إقامة الزوايا فى أركان من المنازل العـامرة بالسـكان بصورة لا يتحقق منها الأهداف المرجوة من إقامـة المسـاجد ، وأن يؤخذ فى الاعتبار التوسع فى إنشاء المساجد الجامعة التى تحقق مـا لا تحققه الزوايا التى تخضع لصاحب منزل أو عقار مع عدم التشكيك فى سلامة توجهه ونبل مقصده.

---

(١) سورة التوبة ٦ .
(٢) الممتحنة ٦ .

كما يتطلب الامر من إدارات الوعظ بالأزهر مزيدا من الجهد والعطاء لنشر الفكر الإسلامى الصحيح، كما لابد أن تعطى وسائل الإعلام الجهد الكافى لتنوير الشباب والأخذ بأيديهم إلى الاستقامة والاعتدال.

وأحب أن أؤكد أمرا سبقت الإشارة إليه، وذلك بهدف تجميع الشباب واستثمار طاقاتهم وتوجهاتهم الدينية والسياسية، وهو الموافقة على إنشاء حزب خاص بأصحاب التوجه الدينى المعتدل وتذليل المعوقات الدستورية؛ لتحقيق ذلك علما بأن هذا الأمر مطروح فى الساحة على استحياء منذ سنوات. كما أن كثيرا من الرواد لا يحبون أن يدخلوا فى هذه القضية، وربما اعتبروا الحديث عنها تعاطفا مع الإرهابيين ودفاعا عنهم، ولكنه فى الحقيقة ترشيد وإضاءة لجموع من الشباب المضللة التى عجزت عن مواجهة الحياة فارتمت فى أحضان التطرف ، فأنجبت فى كثير من الحالات عنفا وإرهابا، وهذا مما يؤسى ويؤسف له.

وأعجب كيف يسمح للعديد من أصحاب التوجهات السياسية المختلفة كالماركسيين بإنشاء أحزاب سياسية فى الوقت الذى لا يسمح فيه لأصحاب التوجهات الدينية بالموافقة على قيام أحزاب.

فإذا ما تمت الموافقة على إنشاء حزب دينى معتدل ينضوى تحت لوائه كل من تخول له نفسه بالابتعاد عن جادة الطريق، ويمكن كذلك محاسبة أعضائه وتقييم تصرفاتهم والاستفادة بآرائهم الإيجابية لخدمة دينهم ووطنهم، خاصة أن جمهرة الشباب لا تثق بدرجة كافية فى

الأحزاب القائمة، وتراها ضروبا من العبث لا تستقيم علـى حـال، ويتلاشى دورها فى المنظومة السياسية يوما بعد يوم .

إن قضايا الشباب وهمومه جديرة بأن تحتل قدرا كبيرا من العناية والاهتمام إذ أنهم لم يعودوا يثقون فى أحد ولا فى أى شيىء ، فبعد أن كانوا أصحاب توجه دينى حال النظام بينهم وبين ما يسعون إليه ويرغبون فيه، فتوجه الكثير منهم إلى الإعجاب بالنموذج الغربى والفكر المستورد والإعلام الوافد، فتقطعت حبال الود بينهم وبين دينهم ووطنهم، فزادت حيرتهم، وأصبح الكثير منهم فى تيه وضلال، لا يقدرون أحدا، ولا يفكرون إلا فى أنفسهم، ويبحثون عن منفذ يتركون فيه الوطن، ويبتعدون عن أهلهم وذويهم، وهذه حيرة تستدعى اليقظة وتقوية الشعور الدينى وتنمية الحس الوطنى، وليس ذلك على الله بعزيز .

١٠ـ ضعف القانون الوضعى لحماية المجتمع وعقاب المجرمين:

تقع بعض الجرائم في صورة جهرية مستفزة مما يعد استهانة بالعقوبة ــ على بساطتها وخفتها أحيانا ــ وتحديا لأجهزة الأمن ، وفقدا للثقة فيها، وجهلا تاما بعواقب الأمور، وفهما خاطئا للحكم على الآخرين .

ونؤكد أن هذا الأمر لا يرتبط ــ فى معظمه ــ بجماعة إسلامية معينة، ولا بأصحاب مذهب سياسى محدد، كما لا يقتصر وقوعه على دولة دون أخرى، فإن الإجرام ومخالفة القوانين الشرعية والوضعية

يمارسه عتاة المجرمين، وكبار اللصوص والمغتصبين لحقوق الآخرين، كما يقع من المعتدين على أعراض الناس، والخاطفين للنساء، وما شابه ذلك، إلا أن الأمر يزداد خطورة، عندما يحدث ذلك من الشباب على اختلاف مستوياتهم الثقافية والاجتماعية مما يجعل الموضوع فى غاية الخطورة، خاصة أن بعض السلوكيات تحدث للحصول على الأموال أو للتقليد الأعمى للآخرين، أو لشراء المخدرات، وتزجية أوقات الفراغ ، كما يمتد كل ذلك إلى الطوائف الجاهلة بما تفعل ، والتى لا تدرك ــ غالبا ــ نتائج التصرفات التى تحدث كثيرا بصورة جماعية مع ما يتمخض عنها من قتل للأنفس، وإرهاب للناس، وخوف ورعب من هذه الخروجات على الأنظمة السياسية والشرائح الاجتماعية، ويزداد العجب عندما نعلم بوقوع هذه الجرائم فى السجون وعلى مقربة من أقسام الشرطة، ودور العبادة.

ولا يمكن أن ينهض أى نظام سياسى وحده ــ مهما كان لديه من إمكانات ــ بتحقيق الأمن الاجتماعى التام لكافة الناس فهذا عبء كبير ومسئولية ضخمة، خاصة فى بعض المدن التى تعج بملايين البشر .

ويشتكى رجال الأمن أحيانا من عدم تعاون الناس معهم قائلين إن المجرم جبان، ولا ينبغى المبالغة فى الخوف منه، لكن الناس ليس لديهم ــ الآن ــ الوقت ولا المال؛ حتى ينهضوا بهذا الواجب المتمثل فى مقاومة المنكر، وإن كانت النزعة الدينية والشهامة والمروءة ما

زالت ماثلة ومستقرة فى أعماق الكثيرين الذين ينهضون بالإرشاد عن المجرمين، لضبطهم وسوقهم إلى أقسام الأمن.

ويتحدث الناس أيضا عن ضعف الأمن الجنائى بالنظر للأمن السياسى الذى يلقى كل عناية واهتمام، وإن كان الاثنان يكملان بعضهما ، ولا ينبغى التفريق بينهما .

ثم إن القانون الوضعى قاصر فى ردع المجرمين ، وبخاصة فى بعض الجرائم مثل (هتك العرض) [١]، مع أن الرجوع إلى الشرع الإسلامى أفضل بكثير من القوانين الوضعية أو المستوردة والتى تكثر فيها الثغرات فيما يتصل بقانون العقوبات ـ وعندما تقع الجريمة ينفجر الناس بالغضب ويطالب المصلحون المعتدلون بالعودة إلى الشرع الإسلامى، وتطبيق أقصى العقوبة ، ثم تخفت الأصوات، وتهدأ النفوس إلى أن تقع مأساة جديدة.

وليس الشباب فى عزلة عن هذا الواقع، وإنما هو غارق فيه متضرر منه، إذ ينعكس عليه انعكاسا سيئا مما يشتت رؤيته، ويفقده الثقة فى كل ما حوله بل ربما غرق فى هذه المستنقعات غير الأخلاقية التى تجف قليلا ثم تزداد فتنمو بها الأوباء، وإن كانت انتكاسات الواقع آخذة فى التراجع كثيرا مما يعطى مزيدا من الأمل فى الخلاص إلى أن يصحو المسلمون من غفوتهم، وتنتصر إرادتهم ولعل ذلك يكون قريبا.

---

(١) حدث تعديل قانونى فى هذا الأمر كما تم إقرار ما عرف بقانون الإرهاب فيما بعد.

البحث العلمى

العناية بالبحث العلمى:

تجلت العناية بالبحث العلمى عند العرب والمسلمين، فالحضارة القديمة التى نرى آثارها باقية حتى اليوم لم تكن عملا ارتجاليا خاليا من التخطيط، وإنما كانت محصلات إيجابية فى العديد من البحوث والدراسات المتنوعة.

وقد قرأنا بعض ما نشر عن بناء الأهرامات، وصناعة الآثار، وشق القنوات، وتطوير الزراعة فكان مدهشا ومثيرا للغاية. أما علم التحنيط عند المصريين القدماء فكان عملا متميزا وسباقا، ونشاطا ملحوظا ونتيجة لعمل الفكر، وحسن التخطيط، والالتزام.

. وجاء الإسلام مصحوبا بنزول القرآن، فكان الحديث عن العلم مرتبطا بأول كلمة تلقاها الرسول عن ربه، كما كان الحديث عن القلم مرتبطا بقصة الخلق، وبداية النشأة، والتكوين على ظهر الكون.

وتجلى القرآن بسوره وآياته فى الحديث عن العلم والعلماء، والإخبار عن الماضى والحاضر والمستقبل؛ إذ لم يكن الزمن مغيبا فى قصة الإعجاز القرآنى عن بيان مجتمع النمل والأغذية والنباتات والبحار والفلك، وتعاقب الليل والنهار، وغير ذلك من القضايا والموضوعات.

وتواصلت المسيرة، وأسهم العرب والمسلمون بدور بارز فى الشركة الحضارية، ولينظر من شاء إلى كتاب علاء الدين على بن

أبىالحزم القرشى المعروف بابن النفيس (الموجز فى الطب)، ولسوف تأخذه الدهشة، ويستحوذ عليه الإعجاب بما قام به هذا العالم وأمثاله فى البحث والتجريب، خاصة هذا الرجل الذى كان لـــه فضـــل اكتشـــاف الدورة الدموية •

وظهرت القضايا الجديدة على الساحة العلمية، وكنا فى معظمهـــا تبعا لغيرنا، ولم تكن لدينا إلا نشاطات بحثية قليلة بسبب ما لحق بالأمة من تداعيات، ودواه، جعلت الأمة لا تتقدم مثل الآخرين الـــذين كـــانوا بعدنا ثم صاروا متقدمين علينا، وتوقفنا عند مرحلة، ولم نتجاوزهـــا إلا بخطوات قليلة، ثم صحونا وبدأنا فى إقامة العديد من المراكز البحثيـــة على اختلاف تخصصاتها وتعدد اتجاهاتها فضلا عن مراكز البحـــوث بالجامعات•

ولكن هل تؤدى هـــذه المراكـــز أينمـــا وجـــدت مـــع اخـــتلاف تخصصاتها جميع ما ننتظره منها؟ أو بعض ما نأمله ونطمح فيه؟ تلك قضية تحتاج إلى حوار ونقاش ..

لقد تمخضت الثورة العلمية عن قضايا جديدة أو متجـــددة شـــغلنا بتطبيقاتها ومدى الاستفادة منها والتوابع الناجمة لتداعياتها •

لقد كثر حديث العلماء عن زرع الأعضاء أخذا من إنسان لآخـــر والتهجين الزراعى، واستنساخ الحيوان والإنسان، والهندسة الوراثيـــة، والتقدم المذهل فى علم الاتصالات، وغير ذلك من القضايا التى يـــدور الجدال فيها أكثر مـــن العنايـــة بهـــا، ومـــن المؤســـف أن الضـــمير

الإنسانى يغيب أحيانا عن دائرة السباق العلمى، ولا تراعــى الــروابط الأخلاقية ما دام العلم قد قال كلمته ٠

هموم البحث العلمى:

تشكل الجامعات المصرية العمود الفقرى للبحث العلمى، وأن أية محاولة لإصلاحه تأتى أولا من الجامعة بما فيها من عوامل وبواعــث لتطوير مناهج البحث، ثم تلى ذلك المراكز البحثية التى تنتشــر فــى جوانب الوطن حسب تخصصاتها المختلفة، وقد أوردت مقالة بالأهرام هذا الأمر جاء فيها:

"يمثل البحث العلمى فى الجامعات المصرية الركن الأساسى فــى منظومة البحث العلمى، فالجامعات تستأثر وحدها بأكثر من ٧٥% من الباحثين، وأكثر من ٩٠% من البحوث التى تجرى فى مصر، ولــذلك فإن أى محاولة لإصلاح البحث العلمى لابد أن تبدأ وتنتهى بالجامعات، وقد برز حديث إصلاح البحث العلمى طوال هذا العام، وانعقد من أجل ذلك مؤتمر أسفر مثل كثير من مؤتمراتنا العلمية عن توصيات، ربمــا تعكف الآن الوزارة المعنية على دراسة تنفيذها"(١)٠

ويبقى السؤال المطروح فى حاجة إلى إجابة ــ ومضمونه كيــف توظف البحوث العلمية فى المراكز المتخصصة لخدمة الفرد والمجتمع وضرورة إخراجها إلى حيث التطبيق؟ وهل هى وثيقة الصلة بالبيئــة؟

---

(١) جريدة الأهرام فى أول يناير ٢٠٠٦م٠

ولابد من التأكيد أنها أجل أهداف أكثر تفعيلا وإيجابية، للـدخول فـي السباق العلمى المحموم بين كثير دول العالم.

•

لا شك فى أن المعوقات التى تقف فى طريق ازدهـار البحـوث العلمية والتعليمية هى إما مادية وإما معرفية، وإمـا وظيفيـة تـرتبط بالإنسان وطموحاته فى التقدم والازدهار لخدمة نفسه ووطنه، وترجـع ميادين البحث العلمى إلى مجالات متعددة فى الطب والعلوم والتربيـة وطرق التدريس واللغات وسائر العلوم ، وعملية السعى نحو ازدهـار البحث العلمى محتاجة إلى جهود مضاعفة من الدولة ومـن الباحـث فجزئية بسيطة مثل حفظ المؤلفات على شرائط الحاسـب الآلـى تعـد مهمة تسهل طريقة الاستفادة من المعلومات، كمـا أن الاسـتفادة مـن الرسائل العلمية التى تنوء بها المكتبات الجامعية لا تكاد تذكر، فعلـى سبيل المثال أجد أمام عينى أكثر من سبعين رسالة دكتوراه وما يزيـد على مائة رسالة ماجستير فى إحدى الكليات لا قيمة لها فـى المجـال التخصصى، وأن هم الباحث منها هو الحصول على الدرجـة العلميـة ولا شيىء غير ذلك،فالأثر يعود إليه، وأما البحث العلمى فعليه السلام.

وعلى جانب آخر يترامى إلى سمعى النشاط العلمـى والبحثـى الجاد فى أحد المراكز حيث يحقق ما لم تحققه عدة مراكـز مجتمعـة والأمثلة على أرض الواقع أبلغ دليل.

أما مسألة التنسيق بين المراكز والوزارات والهيئات فأعتقد أنهـا شبه منعدمة، ولذلك تفقد مراكز حيث البحوث معظم نشاطات الباحثين

فيها، وأذكر أننى كنت فى مؤتمر من سنوات بجامعة عين شمس، وجاء النقاش إلى موضوع تدريس اللغة الإنجليزية فى الصفوف الابتدائية الأولى، وفاجأ أحد الأساتذة سائر الحاضرين عندما ذكر أن هذا الموضوع لم يعرض فى المراكز البحثية المتخصصة أساسا ، وبالتالى لم يتم إقراره، وكأنهم بلا دور يقومون به ما دامت القضايا الخاصة بهم لا يتم بحثها بحثا علميا مستفيضا٠

إذن ما هو الدور المنوط بالمراكز البحثية فى طول البلاد وعرضها؟

أرى أن هوة سحيقة تفصل بين مراكز البحوث والوزارات والهيئات المختصة مما يجعل الموضوع فى غاية الخطورة، وفى حاجة إلى صياغة جديدة للعمل والتنسيق والتفاهم بين هذه الجهات ٠

بحوث الماجستير والدكتوراه:

الماجستير ــ أصبح الحصول على هذه الدرجة والترقى بها هو الهدف الأسمى لكل باحث خاصة فى الكليات النظرية، وقد زاد التساهل فيها بدعوى أنها تجربة للدكتوراه، وأنها مشروع بحث غير مكتمل، وهى طريق للوصول إلى ما بعدها، وهو الحصول على الدكتوراه، كما أن باحث الماجستير ليس إلا مشروعا لباحث لم تتيسر له السبل الكافية لتقديم بحوث مؤهلة للاستفادة منها، باستثناء أعداد محدودة وضعت أمامها أهدافا معينة ارتفعت فوقها مظلة البحث الجاد والعمل الدءوب ، والاستفادة من الأساتذة المتميزين فى تخصصاتهم المختلفة٠

ولقد تعرض كثير من الأساتذة الذين حاولوا الوقوف ضد الرسائل الضعيفة والتى ترجع أسباب ضعفها إما لغياب شخصية الباحث أو للنقل المستمر عن الآخرين بدون تحديد مصادر، كما تقضى بذلك الأمانة العلمية ، أو لتقصير المشرف فى أداء دوره الإشرافى ... أقول تعرض هؤلاء الأساتذة لضغوط يصعب تحملها، وأنهم يواجهون شعارات تشجع على التساهل والتقصير مثل: إن كل الباحثين هكذا ــ الدعوة إلى مراعاة الرحمة إذ أنها فوق العدل، وتكون النتيجة هى البدء فى إعداد باحث لا يعنيه إلا اللقب العلمى، ثم تقدم الرسالة بعد المناقشة فتوضع فوق أرفف المكتبات، وشيئا فشيئا لا يكون لها ذكر، ولا تحقق أثرا يذكر فى خدمة البيئة والمجتمع، وتغيب عن ذاكرة الدارسين، ولا تفيد البحث الجامعى بأى جديد بعدما أنفق عليها، وبذل فيها الكثير من الوقت والجهد.

وأذكر أنى كنت عضوا فى مناقشة لواحدة من رسائل الماجستير بإحدى الكليات وبان فيها تراخى المشرف عن أداء دوره؛ إذ لم يستفد منه الباحث شيئا، ولم يجد من يوجهه، فكانت الأطروحة الجامعية عبارة عن فصول مهترئة لا قيمة لها، وكان الرأى هو الرفض ثم تخفف إلى المنح مع إعطاء الباحث مزيدا من الوقت لإصلاح ما فى بحثه من خلل، ومرت شهور عديدة إلى أن كان وقت كتابة هذه الصفحات دون أن يحقق الباحث شيئا مما كلف به.

الدكتوراه:

ينسحب على رسالة الدكتوراه معظم ما قيل عن بحث الماجستير غير أن الدراسة فى الدكتوراه تكون فى الغالب منسقة وبها كثير من الجزئيات التى يلتئم من معظمها الموضوع، وتشتمل على أعداد أكثر من الصفحات ويكون صاحبها أكثر خبرة ومعرفة، لكن إعداد البحث لا يعبر إلا عن شخصية الباحث، وقياس معارفه، واستفادته من كل ما قرأ، ويضاف إلى ذلك دور المشرف الذى ينبغى أن يقود الباحث إلى كل جيد وجديد.

ويبقى أثر البحث فى خدمة التخصص هو المعول عليه فى هذا الأمر، ونعتقد أن السمة الغالبة هى فقد رسالة الدكتوراه لقيمتها وأثرها ، والطموحات المنتظرة منها ليست بغريبة على أحد خاصة ممن يعملون فى الجامعات ومراكز البحوث.

بحوث الترقية :

إن المعلوم لكل عضو من أعضاء هيئة التدريس أن أى بحث لابد من الوصول معه إلى مجموعة من النتائج والأهداف، التى تميز بحثا عن آخر، وإلا فلا قيمة لما يكتب، ولا يساوى تكاليف الطباعة التى أنفقت عليه.

والمعروف أن البحوث العلمية فى المجال التطبيقى ترتبط بالبيئة وتخدم المجتمع — كما أن البحوث فى المجال النظرى كالدراسات الإنسانية تنهض هى الأخرى بذات الدور مع اختلاف فى الأهداف

والغايات، وإن كانت البحوث التطبيقية فى حاجة أكثر إلى الاستفادة من البحوث المتخصصة فى الدول المتقدمة بمعنى أن تكون بحوث عضو هيئة التدريس غير محلية، وإنما تنطلق إلى المجال الرحب فى دول العالم المتقدمة.

إن مما يؤثر فى جدية البحث والباحثين ظهور حالات غير قليلة يظهر تمرس أصحابها فى السطو المباشر أو السطو المقنع على مؤلفات الآخرين، إما نقلا كاملا أو تلخيصا سافرا، مما يفقد الباحث أجل الصفات فى هذا المجال وهى الأمانة العلمية التى يتحلى بها، ويسعى إليها كل باحث جاد.

إن كثيرا من البحوث الجامعية تحتاج إلى مراجعة قبل أن تقدم إلى المجلات العلمية للنشر؛ لأن طبع بحوث لا تستحق النشر فى المجلات العلمية، سلوك متدن يضعف من قيمة المجلة وتأثيرها فى صغار الباحثين، كما يفقدها أيضا جوانب أخرى من الرسالة المنوطة بها، فالباحث يرغب فى الترقية ويضعها أمام عينيه ويسعى إلى النشر، ويستعطف المحكمين، أو يوجه إليهم من يستحثونهم على التساهل، وقد يستجاب لذلك أحيانا فينشر البحث وتكون النتيجة فى غاية الخزى، ولا تليق بمجلة علمية محكمة، مما يجعل البحث العلمى ينتقل بضعفه من سيىء إلى أسوأ.

أما الذين يسعون إلى البحوث الجادة فإنهم يحتاجون إلى ميزانية كبيرة يستعينون بها فى شراء المراجع النادرة، ويجلسون الأوقات

الطويلة أمام شبكات المعلومات، ويعرضون ما يكتبونه على مجـالس الأقسام العلمية؛ لكى يستفيدوا بآراء العلماء المخلصين، فيهم خاصة أن عضو هيئة التدريس مطالب بتقديم العديد من البحوث والمؤلفات فـى مدة محددة مما يجعلهم يعملون فى همة ونشاط، حتـى يصـلوا إلـى أهدافهم المنشودة.

ونؤكد أن العلماء المخلصين والباحثين الجادين موجـودون، وإن كانت الموجة الأخرى تبدو هى الأكثر وهى الأعلى صـوتا ببحـوث أصحابها [المسلوقة أو المسروقة] والتى لا نفع فيها بـل إنهـا تحمـل الضرر والأذى الكبير.

الأساتذة:

تتميز الجامعات المصرية بأعداد لا بأس بها من الأساتذة الـذين صنعوا أنفسهم علميا، وقدموا الكثير الذى يخدم الجامعـة والمجتمـع، ويعملون فى صمت ، لكن الأكثرية قد جرفتهم تيارات متعـددة مثـل الانشغال عن العلم، والتنقل بين العديد من الكليات، وتوجيه نشـاطاتهم نحو الكتاب الجامعى (الدراسى) وأعمالهم الخاصة، حتى إن بعض هذا التوجه ينعكس سلبا على الإشراف العلمى، فليس لديهم من الوقـت ولا الجهد الذى يوجهونه نحو الإسهام فى تنشئة باحث جديد ، كما أن مـن المؤلم حقا تأثير ذلك على تطوير أنفسهم علميا، فليس لديهم ما يقدمونه لا للبحث ولا للطلاب، ولا للقب أستاذ الذى يشرفون بحمله ويترقـون به إلى وظائف جامعية وبحثية ذات بريق ولمعان، وتكـون الحصـيلة

تكاسلا أو توقفا عن البحث، أو إخراجا لدراسات قليلة القيمة فى مجال التخصص.

والقضية ليست وليدة اليوم ، ولكنها كبيرة السن، وتنذر بعواقب وخيمة، وكان ممن نبه إلى هموم الأستاذ الجامعى وانعكاس ذلك على بحوثه ومؤلفاته الأستاذ أنيس منصور الذى قال :

"أما الأساتذة ـــ يرحمهم الله جميعا ـــ فلا عندهم وقت للقراءة والبحث ، وإذا كان هناك وقت فخصما من ضرورات الحياة الشخصية والاجتماعية، وليس عندهم مال لشراء الكتب الحديثة، ولذلك يتساقطون فى المكتبات العامة وراء الكتب الجديدة، إن وجدوها، أو يظلون هكذا متخلفين متجمدين على الذى تعلموه فى سنوات سابقة.

وقد انبهرنا ونحن ندرس الفلسفة من الرهبان فى الأديرة، ومن الشيوخ المتصوفين، فقد استطاعوا أن يستوعبوا، وأن يكتبوا وأن يبدعوا، وهم لم يستطيعوا ذلك ، إلا لأنهم اعتزلوا الحياة، واختصروا تكاليفها ، وارتضوا فتافيت المال والطعام والشراب واللباس والسلطة. وهذا ما لا يقدر عليه أحد من أساتذة الجامعة.

ونحن نشق عليهم كثيرا إذا طلبنا إليهم أن يضيئوا أكثر وهم محترقون، وأن يأخذوا بيد الطلاب وأيديهم مغلولة، وأن يعطوا للأجيال القادمة ما لا يجدونه لأنفسهم"[١].

(١) جريدة الأهرام ٢٨/ ١٠/ ١٩٧٩م.

كان الأستاذ أنيس منصور يقول الذين يدخلون الجامعة ولا يخرجون منها هم الأساتذة، أما ما كتبه عن أساتذته فقد قاله عن الفترة التى تخرج فيها من كلية الآداب، وعمل فيها مدرسا للفلسفة، وهذه النماذج الراقية غير موجودة الآن، مما يدعونا للترحم على ذلك الزمن الجميل، وفى مرحلة تالية قال أحمد زويل عن أساتذته وتجربته الدراسية: "عندما ذهبت إلى كلية علوم الإسكندرية لم أكن أعرف ما هو العلم ولكن عندما رأيت الأساتذة ، والطلبة ينظرون إليهم بكل إعجاب ورهبة تمنيت من أول يوم أن أكون واحدا من هؤلاء الأساتذة.

كان عددنا فى الكلية صغيرا وكان الأساتذة يهتمون بنا اهتماما كبيرا، ويعرفوننا بالاسم، ويعطوننا المراجع، وتخرجت بامتياز مع مرتبة الشرف"[١].

على أننا نؤكد أن وضع الطلاب وسعيهم إلى البحث يختلف من طالب لآخر، كما أن الأساتذة يعطون مزيدا من الاهتمام لكل طالب جاد وحريص.

إذ أن كثرة الأعداد وتدنى الطموحات تختلف عما إذا كانت الأعداد قليلة والهمم عالية؛ إذ تبرز الرغبة فى العلم بصورة واضحة.

فالأستاذ هو رمز الديمقراطية والحرية والكرامة والعدالة والمثل العليا، وينبغى عليه أن يحرص على ذلك، وأن يتمسك به، وألا يتخلى عنه، وأن ينقله إلى طلابه بأمانة وصدق، وأن يعمل فى إطار منظومة

---

(١) جريدة الأهرام ٢/ ٥/ ١٩٩٨م.

مجالس القسم والكلية والجامعة؛ حتى تستمر لديه حركة التنمية البحثية بما يعود نفعه على الجامعة والمجتمع، لكن هذا فى تناقص بصورة متدنية تضر بالبحث الجامعى وبالباحثين.

وأخطر ما يهدد نشاط الأستاذ هو ضعف رغبته فى التطوير، واستسلامه لمشيئة الآخرين الذين يخلدون إلى الراحة، ولا يشغلون بهموم البحث ومعاناته، مما يفرغ دور الأستاذ من مضمونه ومحتواه.

إصلاح مسيرة البحث العلمى :

تحدث الكثيرون عن قضية إصلاح البحث العلمى فى الجامعات والمراكز البحثية، ولقد كان الحديث عن ميزانية البحث العلمى هما مشتركا شغل به الكثيرون؛ ذلك أن البحوث الجادة تحتاج إلى ميزانية كبيرة لتغطية النشاطات البحثية، ولذلك يلاحظ أن الدول المتقدمة تعطى ميزانية للبحث العلمى بصورة تجعل الطرق مُعَبَّدة أمام العلماء لكى ينهضوا ببحوثهم دون أن يشغلوا بأى شىء آخر، وقد كثرت الدعوات فى السنوات الأخيرة إلى إعادة النظر فى ميزانية البحث العلمى ولكن يبدو أن لا حياة لمن تنادى.

إن العالم يتسابق الآن على التقدم فى مجال العلوم التطبيقية، ولا يتحقق ذلك إلا بالميزانية التى تغطى النشاطات المختلفة التى تتميز بها دولة من أخرى، كما أن الاهتمام بميزانية البحث يعطى العلماء مزيدا من الوقت للتفكير وكد الذهن، ومعاناة البحث والسعى نحو الجديد من المعارف والموضوعات التى تسهم بدرجة كبيرة فى خطط التنمية

البشرية، كما تسهم العلوم الثقافية والإنسانية فى تطور الحيـــاة وتنميـــة المعارف عند الباحثين٠

ومن الملاحظ أن كثيرا من أعضاء هيئة التدريس فى الجامعـــات ومراكز البحوث بمجرد حصولهم على الدكتوراه أو علـــى الأســـتاذية يخلدون إلى الراحة، ويرون أنهم قد قاموا بـــدورهم وأدوا رســـالتهم، فيتوقفون عن البحث وتقتصر أنشطتهم على بحوث مشتركة بين عـــدد من الأساتذة أو على بحوث موجزة لا تعبر عن الدرجة التـــى ارتقـــوا إليها أو الوظيفة التى يشغلونها، وإنما ينبغى أن يكون الأمر مختلفا؛ إذ يجب على انعضو الباحث أن يكون حركة دائبة فـــى مســـيرة الرقـــى بالبحث العلمى، وعليه أن يسعى إلى تنمية معارفه من خلال مصادرها المتاحة للراغب فى المشاركة مثل المؤتمرات العلمية فهى مجال رحب لتبادل الثقافات والمعارف والدخول فى الحوارات الجادة التى يـــنعكس مردودها على الباحثين، ومثل المكتبات العلمية التى يتيسر فيهـــا مـــا يعجز الباحث تملكه والحصول عليه ٠

وقد صارت الآن شبكة المعلومـــات (إنترنـــت) ســـبيلا جديـــدا للراغبين فى المعرفة بشتى ألوانها وتعدد اتجاهاتها، وهى ســـبيل مـــن سبل المعرفة لا يمكن الاستغناء عنها فى العصر الحديث٠

وقد فوجئ الجامعيون فى مصر بتقريـــر دولـــى يحـــدد أفضـــل الجامعات إفريقيا وعالميا، ولم تحصل الجامعات المصرية على مركز نفخر به ، وإنما كان الترتيب مخزيا مما يحتم زيادة الهمـــة لتحســـين الأوضاع وتغيير الصورة التى تركها هذا التقرير٠

فقد حصلت جامعة القاهرة على المركز ٢٨ إفريقيا من بين مائة جامعة إفريقية كما حصلت على المركز ٤٩٧٨ عالميا من بين خمسة آلاف جامعة، وهذا الشيىء لا يسعد أحدا بأى حال من الأحوال وقد حزن على ذلك القليلون الذين تابعوا الأمر بكل ضيق ومعاناة، بينما تجاهله وغض الطرف عنه معظم الجهات المسئولة فى مصر، مما أثار حفيظة الكثيرين، فزاد الحديث والنقاش حول إنقاذ التعليم الجامعى والبحث العلمى فى مصر، وجاء فى جريدة الأهرام بحث موجز لمجموعة من الوصايا حول هذا الانقاذ، وورد فى حديثنا السابق ما أسماه كاتب البحث (الوصايا العشر) وهى:

١ - النقاط البحثية والتى لابد أن تكون محددة فى رسائل الماجستير والدكتوراه ، وكذلك فى بحوث الترقية التى تخدم خطة التنمية.
٢ - نظام الترقية: وهو فى الجامعات ومراكز البحوث يحتاج إلى إعادة نظر خاصة أن أكثر البحوث مكتوبة بطريقة (سلق بيض).
٣ - البعثات: وقد لوحظ فى السنوات الأخيرة انخفاض عدد المبعوثين ولهذا مردود سيىء على حركة البحث العلمى، كما لوحظ التأخر بصورة ملفتة للنظر فى عمل البحوث التى ترتبط بالمجالات التى تستحوذ على الكم الأكبر من التخصصات النادرة، مثل: الهندسة الوراثية، والأطباق الطائرة، وتحلية مياه البحار، والطاقة الشمسية، والاستنساخ، وهذا لن يتحقق إلا بإرسال البعثات إلى الدول المتقدمة[١].

---

(١) انظر جريدة الأهرام ١٣/ ٢/ ٢٠٠٦م.

٤ – النشر العلمى: وعرضنا لهذا الأمر فى المجلات العلمية وهموم ذلك، وانعكاس سلبية الموضوع على حركة تطوير البحث العلمى٠

٥ – المؤتمرات ـــ تحدثنا عن أهميتها فى كلامنا السابق٠

٦ – المعارف العلمية ـــ وهذه لا تتوقف عند حد، وصارت سبلها كثيرة، ومتنوعة بصورة تشجع على البحث ٠

٧ – التجهيزات العلمية: تعد هذه التجهيزات من الوسائل الفعالة فى حركة تطوير البحث التطبيقى، وكل كلية أو مركز بحوث فى حاجة إلى أجهزة تختص به وتتناسب مع كثرة أعداد الطلاب والباحثين، وهذا الأمر يحمل فى طياته كثيرا من الضيق؛ فالمعامل الجامعية تفتقر إلى كثير من المواد الخام التى تستعين بها، حتى المدارس الثانوية فى غاية الحاجة الملحة لإجراء التجارب العلمية البسيطة، وأذهب أحيانا إلى بعض الأقسام فى الكليات المعملية فأجد كثيرا من المعامل والورش فقيرة ومحتاجة إلى الكثير الذى ينبغى أن يعتمد عليه الباحثون٠

٨ – جامعة للدراسات العليا : هذه فكرة تحتاج إلى دعم مالى كبير للانتقال بها إلى حيز التنفيذ والممارسة إذ يكون الهدف من هذه الجامعة السعى لتطوير البحث فى المجالات العلمية ويختار لها صفوة الأساتذة من الجامعات ومراكز البحوث، ويوضع لها

كادر خاص يميز العاملين فيها من غيرهم، وترتبط بالمصـــانع والهيئات الحكومية ذات الصلة الوثيقة بالبحث العلمى ٠

٩ – المكتبة العلمية: وسبق أن تحدثنا عن أهمية تطويرها، وضرورة تنوع ما فيها من ثقافات ومعارف٠

١٠ – الميزانية: تعد الميزانية عصب النشـــاط العلمـــى، ولا يمكـــن الاستغناء عنها، ونأسف كثيرا ونأسى لمستقبل البحـــث عنـــدنا، عندما نوازن بين ميزانيات البحث فى الدول المتقدمة وميزانيتـــه عندنا، فنجد أن الفرق هائل ومثير للإحباط بدرجة كبيـــرة، وإلا فكيف نفسر حصول جامعاتنا على صفر فى قائمـــة خمســـمائة جامعة على مستوى العالم فى نهاية عام ٢٠٠٤م ثـــم حصـــولنا على صفر فى قائمة أفضل الجامعات الأفريقية فى نهايـــة عـــام ٢٠٠٥م ويبقى باب الأمل مفتوحا، فلعل رياح الفكـــر والتغييـــر تبدل كثيرا من هذا الحال مما يؤهلنا للتقدم بصورة كبيـــرة فـــى مجالات البحث العلمى٠

البيئة وأهمية المحافظة عليها

لقد كثر الحديث عن البيئة فى السنوات الأخيرة؛ لما تمثلــه مــن خطورة وتأثير على سائر الكائنات الحية، ولم يعد الأمر قاصرا علــى العناية بالطريق وتنظيف الشارع والمحافظــة علــى الأشــجار، بــل تجاوزت كل ذلك لتشمل سائر جوانب الحيــاة فــى الأرض والنهــر والبحر والهواء بما يحتويه من متغيرات تؤثر فى الإنسان وتتأثر به.

ونشاهد فى كل عام الثورة العارمة التى تجتاح مصر كلها أثنــاء ظهور سحائب الأدخنة السوداء التى تمتلئ بها سماء القاهرة وبعــض المحافظات الأخرى بسبب حرق قش الأرز وحطب القطــن والقمامــة وغير ذلك، وكان المزارع فى حيرة من أمره فكيف له أن يتخلص مما تكدس لديه، ولم يجد له مصرفا.

والمحافظة على البيئة مسئولية مشتركة لابد أن تنهض بها وسائل الإعلام المختلفة، وأن ينبه إلى ذلك أولياء الأمر والمفكرون والــدعاة أينما وجدوا، حسب تخصص كل شخص ودوره فى المجتمع.

ما هى البيئة؟

البيئة: هى المنزل وجميع ما يحيط بالإنسان والمجتمــع ويــؤثر فيها، فقد جاء فى معجم لسان العرب لابن منظور : باء إلى الشــيء يبوء بوءا: أى رجع، وتبوأ: نزل وأقام.

وقد جاء بالمعجم الوجيز أن البيئة هى المنزل، وكذلك ما يحــيط بالفرد أو المجتمع ويحيط بهما وتعريفها فى القــانون رقــم ٤ لســنة

١٩٩٤م المعروف بقانون البيئة (مادة ١) هى: المحيط الحيوى الذى يشمل الكائنات الحية وما يحتويه من مواد، وما يحيط بها من ماء وهواء وتربة، وما يقيمه الإنسان من منشآت.

وقد زاد الاهتمام بها عن ذى قبل، وذلك فى مراكز البحوث العلمية والجامعية والإدارات الحكومية ووسائل الإعلام بالتنسيق مع وزارة البيئة، وتجلى ذلك بوضوح من خلال المؤلفات المطبوعة والبرامج المسجلة والحلقات النقاشية والتحقيقات الصحفية، ومما أصدرته وزارة الثقافة من مطبوعات القراءة للجميع كتاب مسائل بيئية لرجب سعد السيد، والتلوث البيئى والتنمية الاقتصادية للدكتورة منى قاسم ، والصحة والبيئة للدكتور محمد كمال عبدالعزيز.

كما صدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية مع إطلالة عام ٢٠٠٠م كتاب (الإسلام والبيئة) للدكتور/ إبراهيم على حسن، فضلا عن بعض المطبوعات الأخرى التى تناقش جوانب هذا الموضوع وما يتصل به مما له تأثير على سائر الكائنات .

ولا شك فى أن أكثر الدراسات البيئية تعطى مزيدا من البحث والدراسة للمكونات العامة للبيئة وهى الأرض والماء والهواء.

أولا: الأرض :

تشمل الأرض سائر الكتلة اليابسة سواء أكانت أرضا مزروعة أم صحراء غير مأهولة ، أم طريقا يسلكه الناس أم منشأة يستفيدون بها، أو يقيمون فيها.

وقد دعا القرآن الكريم إلى المحافظة على الأرض وعدم الإفساد فيها على أية صورة ، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١) .

وأن الهدف من منع الفساد على الأرض هو الحفاظ على الإنسان الذى فضله الله على غيره من الكائنات ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٢).

لكن الفساد عندما يظهر بين الناس فى الأرض تنعكس آثاره السيئة على الإنسان، ولذلك وجب الحفاظ على كل ما يتعلق بالأرض فلا تتدنس بالمخلفات والشوائب الضارة أو التبرز فى الطريق وإلقاء القمامة به؛ لأن ذلك يلحق أذى بالناس وضررا بالطريق، ولذلك ينبغى مقاومة التلوث بشتى الطرق من خلال غرس الزروع وزيادة المساحة الخضراء، والتصدى لمسببات التلوث التى سنعرض لها بعد قليل، كما ينبغى مقاومة التلوث السمعى؛ فإن له تأثيرا سيئا على سمع الإنسان وراحته وصحته وعلاقاته بالآخرين، وتعد الأرض الفضاء موضعا

---

(١) الأعراف ٥٦ .
(٢) الإسراء ٧٠ .

لنشر الأمراض والضوضاء والروائح العفنة؛ إذ تلتقى عليها الدواب الضالة والهوام الطائرة والزواحف المتجمعة ٠

والثابت علميا أن قش الأرز يمثل ثروة قومية يمكن استعماله فى صناعة الأعلاف، لزيادة الإنتاج الحيوانى، وفى تخصيب الأراضى الصحراوية، وفى صناعة الأوراق، وغيره ، ومع أن هذا الحريق الذى يشتعل فى بداية الليل يجرى على الأرض ثم ما يلبث أن يمتد إلى البيئة الهوائية المحيطة بالإنسان٠

ويحدث الشيىء نفسه فى المكامير التى تحرق فيها الأخشاب للحصول على الفحم النباتى، ثم يرتفع الهواء الملوث مما يلحق أبلغ الضرر بالكائنات الحية فى الأرض والسماء؛ حيث لازالت هذه الطريقة تتم بالأسلوب البدائى على حواف الترع والمجارى، ومن أشد أخطار مسببات التلوث فى الأرض انتشار المسابك داخل الكتل السكانية؛ إذ أنها مازالت تنشر سمومها وأخطارها المحملة بالرصاص، بما له من تأثير بالغ الخطورة على الدم فى الإنسان، ويحدث ذلك أيضا من مسابك الزهر التى تقوم بعمل مواسير الصرف الصحى وأغطية البلوعات والتى تقوم بصهر الحديد وأخطر هذه الغازات أول أكسيد الكربون، وثانى أكسيد الكبريت، الذى يؤدى إلى التسمم، وحيث تلحق هذه الأخطار أضرارا لا حدود لها خاصة ممن يعانون من أمراض الصدر والحساسية"(١)٠

---

(١) انظر جريدة الأهرام فى ٢١/ ٨/ ٢٠٠٠م٠

ومن الغرائب التى نلاحظها بين البشر زيـادة انتشـار شـرب الأدخنة وإطلاق النيران فى بعض المناسبات، وعـادة التقبيـل بـين الرجال ، وهذه بالذات نراها بصورة مبالغ فيها فى مناسبات الأحزان.

ثانيا: الماء :

يلاحظ أننا لا نقدر الماء حق قدره فهو أساس الحيـاة والسـبب الرئيسى للنبات، والمنبت للجنات وحب الحصيد، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

وقد حثنا المولى سبحانه وتعالى على المحافظة عليه، لمـا يـرد عليه من متغيرات وشوائب لا تجعله صالحا للاستعمال"(٢) ويلاحظ أن الناس لا تبالى بمياه الأنهار التى تستخدم فى كثير من مصالح الإنسان حيث نشاهد الكثيرين وهم يلقون فى الماء بقايا الأطعمة، وكثيرا مـن روث المواشى والدواب النافقة ومجارى الصرف الصحى ومخلفـات المصانع، إذ لابد للإنسان أن يعتبر ويقدر هذه النعمة التى من الله بهـا عليه، وألا يعتدى على حقوق الآخرين فى الاستفادة بالماء علـى أيـة صورة من الصور.

ويحدث تلوث الماء بإدخال أى مادة تغير من صفاته الطبيعية مما يؤثر فى درجة الاستفادة به .

---

(١) الأنبياء ٣٠ .
(٢) انظر كتاب الإسلام والبيئة للدكتور/ إبراهيم على حسن صـ١١٥ .

وأهم ملوثات الماء ما يأتي ــ تلك التي جاءت في كتاب الإسلام والبيئة:

١ - الفضلات العضوية ومصدرها المخلفات المنزلية، والفضلات الصناعية ذات المنشأ الحيواني والنباتي ، وإذا كانت الفضلات المنزلية تمثل الكم الأكبر، فإن فضلات الصناعة أصبحت في ازدياد، خاصة أمام تزايد منشآت الصناعات الغذائية وصناعات الورق والتي تصرف في مجاري المياه كميات كبيرة من الأجزاء النباتية والحيوانية.

ويؤدي تفكك هذه الفضلات العضوية بفعل الجراثيم إلى استهلاك جانب مهم من أكسجين المياه مما يؤثر على الأسماك والأحياء المائية ويوفر مناخا للتلوث الإنتاجي"(١).

وجاء في الكتاب المذكور بعض الملوثات الأخرى للمياه مثل الجراثيم والفيروسات وسائر الأحياء المجهرية التي تدخل إلى الماء مع القاذورات المنزلية، ومثل الكيماويات العضوية كالمبيدات الحشرية والكيماويات الصناعية، خاصة المستعملة في التنظيف المنزلي، ومثل الكيماويات اللاعضوية كالمواد المعدنية الناتجة عن خامات التصنيع والتعدين. ومثل الأسمدة التي تنتج ملوثات تصبها في الماء، ومثل المواد المشعة والماء الساخن والنفط وعن هذا الملوث جاء في الكتاب السابق بيانه ما يأتي : "وينساب النفط من السفن إما بإهمال من

---

(١) الإسلام والبنية د/ إبراهيم على حسن صـ ٨١، ٨٢ .

المسئولين عنها، أو نتيجة لحوادث الناقلات، أو نتيجة لعمليات البحث عن البترول تحت مياه البحار .

"ويقدر أن مليونا ونصف مليون طن من النفط تتصرف إلى المحيطات كل عام مما يحدث تخريبا للأحياء المائية، وإفسادا لغذاء الأسماك، والذى يترتب عليه نقص فى تكاثرها، كما يؤثر فى موارد الأشخاص الذين يعتمدون على الأسماك فى غذائهم"(١) .

فضلا عن المشكلات المؤثرة فى الحياة بشكل عام والمتمثلة فى دفن النفايات النووية تحت مياه المحيطات مما يجعل الموضوع فى غاية الخطورة، لما يمكن أن يتسرب إلى ذهن الإنسان من هروب بعض هذه النفايات لتلحق الضرر بشكل عام على سائر الأحياء البشرية وغيرها .

ثالثا : الهواء :

يعد الهواء من أعظم النعم التى جعلها الله أساسا للحياة، فهو غذاء رئيسى لما يتضمنه من أكسجين ينهض بدوره فى تغذية دماء الكائنات الحية سوى النباتية، ولذلك ينبغى الحفاظ عليه وعدم تلويثه، وتقليل شأنه ، وللهواء وظائف أخرى تسهم فى تعمير الأرض واستمرارية الحياة، فبالهواء يتم إرسال الرياح، وتحريك السحاب، وإسقاط الماء على الأرض المحرومة منه، والصالحة للزراعة، وهو يحمل اللقاحات

---

(١) السابق صـ٨٣ .

من موقع إلى آخر قـال تعـالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ (١).

وأوردت آيات كثيرة للرياح الحاملة للسحب التى يسـقط ماؤهـا على الأرض، فيعم خيره الإنسان والحيوان والنبات .

إن أكثر ما يحدث من تلوث فى الأرض والماء يصل إلى الهواء الذى لا يستغنى عنه الإنسان، فمجموع ما قلناه يصل إلى الهواء مثـل الحريق المقصود وغير المقصود، وكذلك التلوث النووى الذى بـدأت آثاره تظهر بجلاء فى السنوات الأخيرة منعكسة على الإنسـان، وقـد عالج الإسلام مشكلة التلوث التى تزداد خطورتها يوما بعد يوم بكلمـة موجزة لسيدنا رسول الله ﷺ حيث قال : "لا ضرر ولا ضرار"(٢).

أى لا يضر الإنسان نفسه، أو يضر غيره أو يلحق به ضررا من ناحية التلوث البيئى، وبذلك تأخذ الحياة أشكالا أكثر التزاما وإيجابيـة لصالح مسيرة الحياة.

إن التتبع المستوفى لحصر ملوثات الهواء أكبر من أن يسـتكمل فى كلمات موجزة، كمثل ما نحن فيه من تتبـع لهـذا الأمـر، فمنهـا ملوثات طبيعية، وأخرى ناتجة عن نشاطات إنسانية ، وثالثـة تتعلـق بالتربة الزراعية، ورابعة عن التلوث السمعى الذى بات يهدد الناس فى أجسامهم، ومقدار أسماعهم؛ إذ أن من العادات السيئة التـى يصـعب

---

(١) الحجر ٢٢ .

(٢) رواه مالك والشافعى.

التحلل منها هى: حرص كل فرد على أن يتملك الشارع لنفسه دون مراعاة لحقوق الآخرين، فإذا أقيمت مناسبة فرح وسرور كانت السيارات تجرى فى الشوارع رافعة أصواتها بصورة تسهم فى إيذاء الأسماع، أو يغلق الشارع تماما؛ لإقامة الاحتفال الذى لا ينتهى إلا فى آخر الليل، وقس على ذلك فى المناسبات الخاصة مثل حفلات افتتاح المحلات التجارية وغير التجارية، ورفع أصوات وسائل الإعلام بصورة يبلغ بها الضرر أقصى مداه، وقد وجهنا القرآن الكريم إلى مراعاة حقوق الآخرين بخفض الأصوات فى كل أمر يكون محورا للنقاش والمناداة، وأن رافعى الأصوات بالطريقة المؤذية قريب الشبه بأصوات الحيوانات ذوات القرون الطويلة.

وأخيرا:

إن الإسلام رسالة خير ومحبة وإيمان وتقوى، لا تنهض فيه مصلحة فرد على حساب الجماعة، قال ﷺ : "الناس شركاء فى ثلاث الماء والكلأ والنار" (١).

والحياة كل متكامل، لا تراعى فيها مستلزمات بعض مكوناتها دون الأخرى فلا يصح أن نمنع التلوث فى موضع، ثم نمارسه فى موضع آخر.

إن منع التلوث يكون بالتوعية الجادة والمستمرة، والاقتناع الصادق بأخطار، على جميع الكائنات الحية فى الأرض والماء والهواء؛ إذ لا يكون الالتزام بقانون يسعى الناس للتهرب منه.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود.

عند خطر أى ملوث لابد من إيجاد الحل الذى تنتهى به المشكلة، فلا يكفى أن تلقى الأوامر بمنع حرق القش والقاذورات دون أن نوجه الزراع إلى الوسيلة الموجودة على أرض الواقع التى تنتهى معها المشكلة.

إن منع التلوث ليس مشكلة مستعصية على الحل، وإنما هى مسألة تحتاج إلى صدق وإخلاص ومراعاة بالدرجة الأولى لحقوق الآخرين.

عندما ينتشر الهواء الأسود فى السماء لا تنعكس آثاره الضارة على من أشعل الحريق فقط مهما كانت أعدادهم، وإنما يعم الضرر كل من يستنشق هذه السموم سواء أكان مريضا أم سليما، كبيرا أم صغيرا، من علية القوم أم من عامة الشعب، ويقاس على ذلك معظم الملوثات الأخرى.

إن الهدف الأول والأخير من التنبيه إلى خطر التلوث هو خدمة الإنسان الذى كرمه الله سبحانه وتعالى ، فالإنسان يتغذى على الحيوانات ومنتجاتها ، وكذلك النباتات ـ والحيوانات تحتاج إلى ما تأكله من الزروع، وكل الكائنات تحتاج إلى الماء والهواء من خلال حياتها على سطح الأرض، أو فى هواء الجو، أو فى الأنهار والمحيطات، مما يجعل المحافظة على البيئة من أهم مشكلات الإنسان فى الحياة المعاصرة.

دور الإعلام فى خدمة المجتمع

لم يعد الإعلام قاصرا على جريدة ومجلة وإذاعة وتلفاز، بل تجاوز هذه الوسائل واتسع فى استعماله لها، إذ أسهمت الأقمار الصناعية فى تحويل العالم كله خاصة فى السنوات الأخيرة إلى ما يشبه القرية الصغيرة التى ينكشف كل ما فيها لمن يقيمون بها، وأدى ذلك إلى تحمل الإنسان الجديد لهموم العصر ومشكلات الأمم وصراعات الشعوب والأفراد.

وتعددت قنوات التلفاز فى كل دولة، بل لم تعد تلك القنوات قاصرة على حدودها الإقليمية ومجالاتها الفضائية، وإنما تجاوزتها إلى دول تبعد عنها آلاف الأميال.

كما تنوعت الإذاعات بين محلية وإقليمية وعالمية، وكثرت الصحف والمجلات على اختلاف لغاتها واتجاهاتها وتخصصاتها، وزادت استعمالات شبكة الانترنت، وانتشر الحاسب الآلى إلى غير ذلك من الوسائل التى يتوالى ظهورها بما لها من إيجابيات ملموسة ومن سلبيات تعود إلى مستعمليها، وليس إلى الأجهزة نفسها غالبا، ويتجلى ذلك بصورة بارزة فى المنطقة العربية التى تتميز بخصائص متفردة، وعادات وتقاليد راسخة والتزام بالحياة الدينية القويمة، وحرص على لغة عربية واحدة ينضوى تحت رايتها ما يقرب من مائة وخمسين مليونا من البشر فضلا عن الجموع الأخرى التى تلهج بها فى شتى قارات العالم.

التوجهات الاجتماعية:

تتنوع وتختلف أهداف المجتمع وتوجهاته من دولة إلى أخرى، لكن هناك أمورا مشتركة بين كثير من البلدان فى حقب زمانية متقاربة تحرص عليها الأنظمة السياسية فى سبيلها إلى تحقيق المعادلة الصعبة بين الإمكانات والمتطلبات، وإن كان ذلك ليس بالأمر اليسير الذى يسهل تحقيقه فى ظل المتغيرات التى يلحظها الفرد أو المواطن حول الحياة المعيشية، وتحقيق العدالة والمساواة بين الأفراد، والحرص على العلم والثقافة، والقضاء على الأمراض القديمة والمستحدثة التى تهدد صحة الإنسان وواقعه المتغير، ومستقبله الذى يبدو غير واضح لمن ينظرون إلى طموحاتهم المحدودة وآمالهم المتواضعة، ويأتى مع كل ذلك السيادة الإقليمية لكل دولة على أراضيها ومياهها وأجوائها، ورفض كل أنواع التدخل فى شؤونها الداخلية حفاظا وحرصا على سيادتها المنشودة.

ولا شك فى أن أهداف المجتمع المصرى وتوجهاته فى الوقت الراهن تختلف عنها فى القرن التاسع عشر، أو فى النصف الأول من القرن العشرين، فقد كانت الأمة حينئذ حريصة على مقاومة الغزاة المحتلين، رافضة كل أنواع التدخلات الأجنبية التى تهدد الكيان السيادى، فضلا عن بقية الأهداف الأخرى المحفورة فى الذاكرة، ولكن الأمور قد تغيرت بصورة لم تكن متوقعة، كما أصبحت طموحات المجتمع منصبة ومشغولة بالإصلاح الاقتصادى الذى صار عصبا للحياة، وهذا لا يتحقق إلا بكثرة الإنتاج، وتنوعه، وزيادة الصادرات،

وتقليل حجم الواردات، وخفض الإنفاق وتوظيف العلـم والتكنولوجيـا لخدمة المجتمع وتحقيق أهدافه بصورة متوازنة بمـا يحفـظ الهيكـل الاجتماعى من الانكسارات العنيفة التى قد تؤتى بنتائج غير متوقعة ٠

ونظرا لأن أهداف المجتمع وطموحاته فى ظل الخطط المتوازنة كثيرة جدا فى الوقت الحاضر، وأن الأولوية فيها منصرفة إلى ما يهـم فكر المواطن وأسلوب معيشته واستقرار حياته، وأن الدور الإعلامـى باختلاف وسائله مهم جدا ،ويمثل دورا كبيرا فى توجيه الـرأى العـام ويكفى ما يطلق على إحدى وسائله وهى الصحافة من أنهـا السـلطة الرابعة، فوسائل الإعلام على اختلاف أدواتها وتنوع الخدمة فيها كفيلة بالإسهام فى تحقيق الدولة للعديد من الأهداف الاجتماعية المنشودة وقد أصبحت الرسالة الإعلامية ذات دور مؤثر فى تفعيل الرسالة المنوطة بالكيان الاجتماعى كله، ولذلك أصبح من مطلوبات الأجهزة الإعلامية التصدى بالرأى والنقاش الحر النزيه لمجموعة من الأمور منها:

١ - القضاء على التطرف والإرهاب ونشر الوعى الدينى بين أفراد الأمة٠

لقد عاشت مصر بخاصة مئات السنين بعيدة إلى حـد مـا عـن التطرف فى الفكر وممارسة العنف وفرض الرأى بالقوة حتى لو انتهت صلاحيته إلى أن أصيبت بما ابتليت به الكثير من دول العالم فى شرقه وغربه، وشماله وجنوبه، وأصبحت الحوادث الإرهابية حديث الوسائل الإعلامية للعديد من الدول وبخاصة فى منطقة الشرق الأوسـط ومـا

حولها وصارت مصر ــ إحدى الدول التى ظهــرت فيهــا الحــوادث الإرهابية، وإن كانت قد تلاشت آثارها بدرجات كبيرة فــى الســنوات الأخيرة، لكن هذه الحوادث لم تنته تماما؛ إذ أنها لا تلبث بعد الاختفــاء إلا أن تظهر فى مناطق مختلفة لم يكن أحد يتصور أن نار الإرهــاب ستصل إليها ، والقضية فى مجملها تحتاج إلى بحث ومعالجــة شــاملة لتقصى أسباب هذا التطرف وبيان دواعيه، وهل يرجع إلــى ســلبيات داخلية مترسبة ؟ أم إلى غير ذلك ؟٠

إن المعالجة الجادة لهذا الأمر الخطير يقتضــى التعــرف علــى منابعه وروافده قبل البحث عن حلول جذرية له، أو أن الأمر أكبر من كونه حالات اجتماعية تمثل انتفاضة فكرية متطرفة، وإذا لم يكن هــذا الأمر بهذا التصور، فهل يعود إلى كونه حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب وأنه يستمد كثيرا من قوته من الخارج؟ وقــد يكــون الموضوع متصلا بهذه الرؤيا من جانب آخــر وهــو الهــم العربــى للمواطن شبه المقهور فى المنطقة الممتدة عبر الزمان والمكان كضياع حقوق الشعب العربى فى فلسطين والعراق ، وتدخل العنصر الأوربى الأمريكى فى شؤون دول العالم الثالث، أو أن هذه التدخلات ترجع إلى مسببات وتبعات يتحمل وزرها من أتاحوا الفرصة للآخرين عن ضعف أو عن صمت أن يحتلوا أراضيهم ويتحكموا فيها ٠

وكل ذلك يجعل الإنسان المقهور فى حيرة مما يقع أمامه ويلمسه بنفسه، لكن تلك الأمور مع قسوتها ورفضــها، لا تصــلح لأن تكــون

مسوغا لإشعال نيران الإرهاب إلى الإنسان مهما تغير دينـــه وشـــكله وفكره وسائر مكوناته الشاملة التى تميزه عن غيره٠

وهنا تتجلى رسالة الإعلام فى التبصير والإثارة لمن يرى طريقه نفقا مظلما لا يظهر فى آخره إلا بصيص من الضوء الخافت٠

ومن المؤسف أيضا أن الحوادث التى نشاهدها ونتبرأ منهـــا يـــتم تناولها ــ فى وسائل الإعلام ــ على أنها مرتبطة بالدين الإسلامى نقلا عن الجماعات التى تظهر نوعا من الولاء لهذا الدين الحنيف ٠

ولابد أن تنهض الوسائل الإعلامية بإبراز الفروق بين ما هو من صميم الدين الإسلامى ولا يختلف الناس فيه وبين كل ما هو بعيد عـــن الدين ولا يمثله ولا يعبر عنه وليس إلا آراء متشددة تضر أكثـــر ممـــا تفيد، ذلك لأن الدين الإسلامى دين يدعو إلى التسامح والعفو والرحمـــة والتواصل قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [1] وقال تعـــالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [2] وقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [3] وقـــــال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ

(١) الشورى ٤٠ ٠
(٢) البقرة ٢٥٦ ٠
(٣) آل عمران ٦٤ ٠

ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (٤).

وكانت السنوات الأولى فى التسعينيات من القرن الماضى بداية لمرحلة مختلفة اكتوينا فيها بنيران التطرف والإرهاب من بعض الذين يدعون ارتباطهم بالدين وحرصهم على الإسلام، ومن غيرهم من أصحاب التوجهات الأخرى التى لا تلتزم بشرع، ولا تحرص على قانون، وإنما يسعون فقط إلى جمع الأموال عن طريق السطو واستحلال أموال الآخرين، وقد تصدى المشرع المصرى لهذه الحوادث آنذاك فصدر القانون رقم ٩٧ لسنة ١٩٩٢م والذى عرف بقانون الإرهاب وجاء بيان الإرهاب فيه على النحو التالى: "كل استخدام للقوة أو العنف أو التهديد أو الترويع يلجأ إليه الجانى تنفيذا لمشروع إجرامى

---

(١) التوبة ٦ .
(٢) يونس ٩٩ .
(٣) النحل ١٢٥ .
(٤) الممتحنة ٨ .

فردى أو جماعى، إذا كل من شأن ذلك إيذاء الأشخاص، أو إلقاء الرعب بينهم، أو تعريض حياتهم أو حرياتهم أو أمنهم للخطر"[١].

وعليه يجب الفهم الواسع للعلاقات المتبادلة بين الدول فى ضوء المنظومة العالمية التى تقرها وتدعو إليها المنظمات العالمية.

وأكد الشيخ محمد الغزالى وكثير من العلماء الرفض الصريح لأى اعتداء على السائحين ، فهم ضيوف وغرباء عن بلادنا ومن حقهم علينا أن نحفظ دماءهم وأموالكم وأعراضهم ، ولذلك كان إطلاق الرصاص عليهم غدرا بعقد الأمان معهم الذى تمخض عن التأشير لهم بدخول البلاد .

وعلى السائح أو الضيف الزائر أن يلتزم بمظاهر الدين فى البلد الذى يذهب إليه، وأن يحافظ ـ قدر جهده ـ على العادات والتقاليد بحيث لا يؤذى بتصرفاته المنفردة مشاعر أهل البلد الذى يزوره ويتنقل بين أرجائه.

فالمتطرف شخص يؤمن بمجموعة من المعتقدات المتشددة ، أو الشاذة، والخطر أقل بدرجات كبيرة من الإرهابى الذى يسعى إلى إرهاب الناس، وفرض آرائه عليهم بالقوة.

والاختلاف كبير جدا بين شاب يحرص على ممارسة شعائره الدينية ويلتزم بحقوق الآخرين فى الحياة ، وآخر يتشدد على نفسه

---

(١) من القانون المذكور (٩٧ لسنة ١٩٩٢) .

ويتطرف فى فكره ويقتصر على قراءة كتاب أو كتابين لا يتجاوزهما مما يجعله ضيق الأفق ومحدود المعرفة، وثالث ليس لديه فكر ويخضع للآخرين، وينقاد لهم فيقتل ويسرق ويستحل أموال المواطنين، أو لديه فكر ضال لا قيمة له، ويسعى لفرضه على الناس.

إن رسالة الإعلام رسالة خطيرة ينبغى توجيه الكثير من وسائلها إلى حماية الشباب من الأفكار الوافدة والمبادئ الضالة، فلا أحد ينكر حق الشباب فى المعرفة على اختلاف أنواعها ومستوياتها ، سواء اتصلت بعلوم الدين أم بعلوم الدنيا"(١).

ونؤكد أهمية توظيف الكلمة الهادئة فى التصدى للتضليل والإرهاب؛ لأنه الآن من أخطر المشكلات التى تتعرض لها كثير من الدول، ولذلك يجب التصدى له ومقاومته بكافة السبل المتاحة بالعقل والحكمة، وحتى يكون الحل معبرا عن الفكر مستعينا بالنقاش الهادئ وليس قاصرا على الحلول البوليسية وحدها؛ لأن العنف يولد العنف.

قال ﷺ : "لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض"(٢).

---

(١) أصدرت الهيئة العامة للكتاب فى عام ١٩٩٣م مجموعة من الكتب تحت عنوان شامل هو المواجهة نذكر منها :
١ - التطرف والإرهاب د/ أحمد شوقى الفنجرى .
٢ - جذور الإرهاب لمجموعة من كبار الكتاب والمفكرين .
٣ - موقف الإسلام من العنف ، الأستاذ/ حسن محمود خليل.
(٢) متفق عليه.

وينبغى على وسائل الإعلام أن تطور فى أسلوبها، وأن تعالج فى هدوء يتواكب مع الحوار والنقاش حسب متطلبات العصر٠

ونعرض من خلال ذلك لقضية أو مشكلة ذات أهمية قصوى فى السير على أول طريق التقدم العلمى وهـى: القضـاء علـى الأميـة والمساعدة فى تحقيق البرامج التعليمية المستهدفة٠

ومن المؤسف أن تسعى كثير من الدول النامية إلى القضاء علـى الأمية بتعلم القراءة والكتابة فى الوقت الذى تنتقل فيه الدول المتقدمـة إلى فك أسرار الكون ، وغزو الفضاء وتطوير سبل الاتصالات وغير ذلك، واستثمار هذه التقنيات فى زيادة الدخل القومى الخاص بها، ولهذا تعد الأمية من أخطر المشكلات القومية والوطنية فى كثيـر مـن دول العالم الثالث فالذى يقرأ جريدة أو مجلة أو يشهد برنامجا مرئيا هادفـا يستطيع حسب قدرته أن يتعرف على أحوال النـاس وقضـايا الأمـة وأخبار العالم وطرق الزراعة وأسرار الآلات المستخدمة فى الصناعة أو فى غيرها بصورة تفوق غيره ممن لا يقدر على فك مغاليق القراءة والكتابة، ثم إن المتعلم كثيرا ما يحمى نفسـه مـن العـوز والجهـل والمرض، ويستفيد بتجارب الآخرين، ويتعلم الدين الصحيح، والعقيـدة المستقيمة٠

إن كثيرا ممن يعرفون القراءة والكتابة يحتاجون إلى محو لأميتهم وإنارة لعقولهم بعد أن صارت رسالة التعليم منحصرة فى الشـهادة أو الورقة يظفر بها من يدعى العلم، ويحمل صكا للجلوس بمقتضاه أمـام

مكتب، أو استثماره فى أى شأن من شؤون الحياة، أو أن يكون العجز عن القراءة والكتابة والاستسلام للجهل قد لازم الكثيرين حتى وصل الحال ببعض ذوى الجاه من أبناء وطننا فى مرحلة قريبة أن يظفروا بعضوية المجالس النيابية ،وهم غير مؤهلين لأبسط متطلبات المعرفة، فكيف يسهم هؤلاء وأمثالهم فى وضع القوانين، وهم عاجزون عن المشاركة فى ذلك، واقتصر دورهم غالبا على التصفيق والصياح والحديث فيما لا يفيد وخداع البسطاء الذين لا حول لهم ولا قوة ٠

إن الاحتلال الأجنبى لمصر قد وجهها لمصالحه وخدمة اقتصاده وأوقعها فى ربقة (الفقر والجهل والمرض) وسعت ــ ولله الحمد ــ منذ ثورة ١٩٥٢م لإزالة مخلفات الماضى وصبغ حياتها بألوان مشرقة زاهية حتى تنعكس على كل الأجيال٠

ولا شك فى أن النتائج الماموسة فى تحقيق المستهدف من القضاء على الأمية عن طريق وسائل الإعلام لم تكن بالدرجة المطلوبة، مع تقديرنا لما كانت تبذله منذ سنوات إذاعة الشعب، ولما يقدم فى بعض القنوات التلفازية من استمرار فى الدعوة إلى العلم والقضاء على الأمية، ولكن الرغبات تنصرف إلى الدراما الهزلية والأفلام التجارية والحوارات الجدلية التى تبعد عن متطلبات الأجيال الحديثة والشيوخ الكبار الذين لم يتمكنوا فى سنوات أعمارهم لمعرفة القراءة والكتابة لكن البرامج التعليمية متواجدة على فترات متقطعة مما يجعل الأهداف غير محققة بصورة متكاملة، كما تسهم الصحف والمجلات المختلفة فى

مساعدة الطلاب والدارسين على التفوق وتحصيل العلوم وتجديد الثقافات بما يتناسب مع الميول والاتجاهات.

ومن أهداف المجتمع خاصة فى وطننا محاولة الإصلاح الاقتصادى، وزيادة الإنتاج، وترشيد الانفاق، والتحول إلى التصدير، ووضع الخطط والبرامج للمستقبل بما يحقق بعض الطموحات لنهوض الأمة ولكن كيف يتحقق ذلك والرقعة الزراعية لا تزيد إلا بمقدار ما يقتطع منها مما يجعل الموضوع كله فى حاجة إلى معالجة شاملة من النظام الحاكم بكافة هيئاته ووسائله وتجهيز العقول للقدرة على النقاش وتبادل الآراء.

إذا لابد من العناية بصورة جادة لغزو الصحراء وتحويلها إلى واحات خضراء، وتشجيع الناس على تنمية المجتمعات الجديدة بالصناعة وكافة أنشطة الحياة، وقد شجع الدين الإسلامى على زراعة الأرض والسعى فى طلب الرزق والمشاركة فى التصنيع الإيجابى للحياة فعن أنس ﷺ قال : "قال رسول الله ﷺ : "إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها"(١).

وقال الإمام على ﷺ وكرم الله وجهه: "لا يقعدن أحكم عن طلب الرزق ويقول : يا رب، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا".

أما ما يجب على وسائل الإعلام المختلفة أن تنشط له وتبذل فيه جهدا متميزا فهو القضاء على المخدرات ومحاربة انتشارها والمتاجرة فيها .

---

(١) رواه أحمد والبخارى وغيرهما.

وقد كتب أحد الباحثين محاضرة عن الشباب والسموم الاجتماعية جاء فيها: "الواقع أن موضوع المخدرات، موضوع معقد ومتشابك، وله أبعاد كثيرة لا يمكن لشخص واحد أن يلم بها، فهناك البعد الاجتماعى ـ التنشئة الاجتماعية والعلاقات الأسرة والعلاقات فى المدرسة والعمل والعلاقات بالمجتمع ككل ـ كلها أبعاد اجتماعية من اختصاص عالم الاجتماع"[١].

علما بأن هناك أبعادا أخرى متنوعة يزيد الحديث فيها عن نطاق هذا المقال القصير.

ومن هنا يجب على كل الأجهزة المعنية أن تنشط فى تفعيل دورها؛ لبيان خطورة المخدرات بكافة أشكالها، وتأثيرها السلبى على البناء الاجتماعى.

وتأتى أجهزة الإعلام فى مقدمة هذه الجهات المعنية بمقاومة هذا الخطر الداهم الذى يؤثر على جميع فصائل المجتمع.

ومما يجب على وسائل الإعلام أيضا: أن تنمى الشعور القومى لدى المواطنين بالحفاظ على الهوية والتصدى للغزو الفكرى المنحرف، والتعرف على تجارب الأمم الأخرى فى تحقيقها لأهدافها وتوجيه وسائلها الإعلامية لخدمة قضاياه القومية والإنسانية.

ولذلك زادت بصورة مضطردة أهمية الوسائل الإعلامية فى تحقيق أهداف المجتمع من خلال منظومته السياسية والفكرية والثقافية حسب ما يتاح لكل بيئة فى الوقت الراهن.

---

(١) محاضرات نادى جدة الأدبى الثقافى صـ١٣١ المجموعة السادسة.

مشكلات الإنسان مع القرن الحادى والعشرين

استقبلت الإنسانية من مدة قريبة مطلع قرن ميلادى جديد بدأ العالم به الألفية الثالثة مع مطلع القرن الحادى والعشرين٠

ولا شك فى أن المشكلات التى تهدد الإنسان قد بدأت فى الظهور شيئا فشيئا منذ عشرات السنين، وجاءت بدايات القرن الحادى والعشرين امتدادا لبعض ما تعرف الناس عليه، ولسوف تظهر بعض الهموم والمآسى الإنسانية بأكثر مما يعانيه البشر ويتضجرون منه الآن، ولكن العلماء والمفكرين يتوقعون ظهور مشكلات أخرى تثير هموما ليست فى تقدير البشر؛ إذ لا يستبعدون وجودها وانشغال العالم بها، ولننظر إلى طبائع الحياة وسماتها العامة ، وحوار الثقافات فى مطلع القرن العشرين ، ونوازن بينها وبين ما وصل إليه الإنسان المعاصر من تغيرات شاملة فى بدايات القرن الحادى والعشرين ، ولسوف نرى الفوارق هائلة، والمتغيرات تفوق الإحصاء، إذ لم يكن أكثر المفكرين تطلعا للمستقبل يتوقعون ما وصل إليه العالم بعد ذلك من حضارة وازدهار فى شتى نواحى الحياة٠

فمن كان يتصور أن يصل الإنسان إلى القمر ويسبح فى الفضاء بمنطقة انعدام الوزن، وأن تصل الأجهزة المتطورة إلى الكواكب الأخرى، ويدرس العلماء الحياة وعدمها على المريخ، وتسبح الأقمار الصناعية فى الفضاء على الصورة التى نلاحظها ، ونلمس آثارها يوما بعد يوم٠

وهذه بعض المشكلات التى نقف معها وقفة عابرة.

١ - **التلوث** : تشكل هذه القضية أهمية كبيرة على حياة الإنسان فى الوقت الراهن ؛ لأنها تتناول جوانب شتى من العالم المحيط بنا، وليست أحداث المفاعل النووى فى (تشرنوبيل) بغريبة علينا أو بعيدة منا، وانعكست هذه المشكلة على الإنسان والحيوان والنبات، وامتد الخوف من التلوث والأغذية المخصبة إلى الإنسان فى كل مكان، وانعكس ذلك على صحته وقدرته على العمل والإنتاج، ثم ظهرت الأمراض التى لم تكن معروفة حيث تنتقل من الحيوانات والطيور إلى الكائن البشرى الضعيف [الإنسان] فظهر لنا المرض الذى سمى بجنون البقر ، ومرض أنفلونزا الطيور الذى بدأ يهدد العالم فى كل مكان.

ولابد من إحكام السيطرة على المواد المشعة والمخصبة والتى يمكن أن تلحق أضرارا بالغة بسائر الكائنات الحية.

واتخذت بعض القوى العظمى من هذه القضية ذريعة لإحكام السيطرة وفرض النفوذ على دول العالم الثالث ؛ لأن الحكومات فيها غير مستقرة يمكن أن تلحق أضرارا بما يمكن أن يتوفر لديها من أسلحة نووية ينبغى أن تكون أساسا فى خدمة التقدم العلمى، فقد كانت أمريكا تلاحق العراق لتدمير ما تقول إنه يختزن أسلحة الدمار الشامل، ثم فرضت نفوذها عليه، والذى يئن الآن تحت وطأة الاحتلال الأجنبى، وهى الآن تلاحق إيران وبعض الدول للسبب نفسه ، لكنها تغفل عن إسرائيل بخاصة مع ما لديها من أسلحة نووية خطيرة، أى أنها تكيل

بكيلين، وهذا مما يعقد مشكلات المنطقة، ويسهم فى إشعال فتائل الحرب فيها، ولكن أخطار هذا النوع من الأسلحة يمثل تهديدا لحياة الإنسان، لا ينبغى إغفالها والتجاهل عنها .

ولا تتوقف أخطار التلوث ومشكلات البيئة على الفضاء، بل تمتد إلى باطن الأرض حيث ترتفع درجات الحرارة فتزداد البراكين والتشققات فى القشرة الأرضية ، وتهديم المنازل، وتهديد البيئة، والإضرار بصحة الإنسان، والتأثير على إنتاج الغذاء.

إن الضوضاء الناجمة عن المواصلات، وما ينتج عنها من احتراقات للوقود على سطح الأرض، وفى الجو أيضا تشكل أخطارا شديدة خاصة على المناطق القريبة من المطارات وغيرها كالأنهار ومصانع الغذاء، لذلك لابد أن تسعى المنظمات العالمية والمحلية لمناقشة هذه القضية مناقشة جادة لا تتحقق فيها مصلحة دولة على حساب دول أخرى.

وقد انتابنى العجب والحيرة والضيق بسبب حاملة الطائرات الفرنسية كليمنصو، وهى فى طريقها البحرى من فرنسا مرورا بقناة السويس، حتى يتم تفكيكها بما فيها من ألواح مسرطنة، ليتم إغراقها ودفنها فى المحيط الهادى جنوب الهند، فلماذا يكون التفكيك فى جنوب الهند والمرور بقناة السويس، ولم يكن كل ذلك فى المحيط الأطلنطى جنوب فرنسا ؟ إنها علامة استفهام وحيرة قاتلة فى غمرة الحديث عن

التلوث أن تكون العلاقة بين الشرق والغرب محكومة بهذه النظرة التى تكتفى فيها مالكة الحاملة بدفع رسوم العبور وليكن بعد ذلك ما يكون.

إن الذين يكتبون عن التلوث، ويحذرون من أضـــراره ويســـعون للحفاظ على البيئة وتطهير الأرض والماء والســـماء يـــذهب كلامهـــم أدراج الرياح، ولا قيمة له عند النـــاس الـــذين يخضـــعون للعـــادات والمصالح التى يعتبرونها الأساس فى توجيه تصرفاتهم قبل أى شيىء آخر.

٢ - ظهور بعض الآثار السلبية للتقدم العلمى.

أ - بدأ يظهر فى السنوات الأخيرة الإنسان المختلط أو المركب الذى أضيف إليه عدد من أعضاء جسم آخر، فلا شك أن التقدم العلمى قد بدأ توظيفه لخدمة الإنسان بصورة ملموسة، وتجلى ذلك فـــى نقـــل عضو من جسم إنسان لشخص آخر مثل الكلية وبعض صمامات القلب والقرنيات، وفص من الكبد أو الكبد كله وأعضاء من عظـــام الجســـم وأعضاء أخرى معروفة لدى الأطباء المتخصصين، لكن مـــا يترتـــب على ذلك قد يكون مشوبا بالمعاناة وبعض المشكلات التى تمثل هموما جديدة للإنسان المعاصر، حيث تدخلت الأموال بصورة بشعة فى هـــذه القضية؛ إذ صار لكل عضو ثمن يؤخذ ثم يبدد أحيانا فيمـــا لا يفيـــد، ولذلك ينبغى التحكم فى هذه المسألة حتى لا يتحول الكائن البشرى إلى سلعة رخيصة فى عالم الأموال؛ إذ أن بعض المستشفيات التى لـــديها من الوسائل ما تفلت بها من المساءلة والمحاسبة حيث تنتزع الأعضاء

عن طريق السطو والسرقة أو عن طرق أخرى تتم الإغارة فيها على جسد الكائن البشرى فور وفاته فى مستشفى أو فى طريق أو فى حادث، فصارت المسألة تمثل هما للعارفين بها، ويبقى الغافلون عنها فى هدوء وطمأنينة ما دامت القضية بعيدة عنهم، ويضاف إلى ذلك قضايا أخرى مثل تأجير الأرحام حيث يتم زرع بويضة ملقحة بحيوان منوى من رجل وامرأة لتزرع فى رحم امرأة أخرى ينتقل فيها الحمل من مرحلة إلى أخرى حتى الولادة فمن هى الأم فى السيدتين؟ وما يترتب على ذلك من نسب ومواريث وعلاقات قرابة وغيرها ٠

أما بنوك الأجنة فهى قضية ظهرت على السطح، وإن كانت بصورة محدودة حيث تستطيع المرأة فى حياة زوجها أن تحتفظ ببويضتها الملقحة من حيوانه المنوى مدة زمنية فإذا ما رغبت فى الحمل بعد ثلاث سنوات أو أكثر أو أقل يتم زرع البويضة فى رحمها ليظهر الحمل إلى أن يكتمل وتلد المرأة بعد أربع سنوات من وفاة الزوج، فيترتب على ذلك مشكلات إنسانية أيضا لا تتوقف عند حد، وقريبا من ذلك بنوك الألبان التى يمكن أن تكون مشاعا للعديد من الأطفال، وهذا ما يترتب عليه أمور خطيرة فى العالم الإسلامى بصفة خاصة فيما يتصل بالقضايا الاجتماعية مثل الزواج٠

ب - الاستنساخ : برزت إلى الساحة العلمية فى أواخر التسعينيات من القرن الماضى قضية علمية أثارت جدلا واسعا فى سائر دول العالم، وهى قضية الاستنساخ٠

والاستنساخ فى حقيقته العلمية البسيطة يتمثل فى أخذ نواة خلية من أى مكان فى جسم الرجل ووضعها علميا فى بويضة أنثى مفرغة من النواة لإتمام عملية التلقيح ، لكن شرح ذلك أكبر من عرضه بهذه البساطة إذ ينهض بذلك العلماء المتخصصون وقد تمت عملية الاستنساخ بصورة ماثلة للعيان فى النعجة (دولى) المشهورة علما بأن الاستنساخ علميا قديم، ويتم منذ مدة طويلة فى الضفادع والفئران والقرود.

فالاستنساخ يمثل قلقا للضمير الإنسانى والروابط الأخلاقية، ويثير جدلا واسعا فى الأوساط العلمية، وهموما ومشكلات لا حصر لها للإنسان فى مستقبله القريب إلى جانب القضايا الأخرى التى تعد حلقة من حلقات هذه الهموم التى ما زال بعضها فى رحم الغيب، والبعض الآخر ماثل للعيان تترتب على الهندسة الوراثية والجينات وبنوك الأجنة وتأجير الأرحام والرحم الجماعى، كما أن الاستنساخ فى المحاصيل الزراعية التى تزيد من انتاجيات المحاصيل، ويمكن أن يحقق الاستنساخ فى الحيوان تحسين السلالات الحيوانية.

علما بأن إخضاع هذه القضايا للمنظور الإسلامى يمثل خطرا وهما متعدد الجوانب فكيف يتم استنساخ البشر دون زواج؟ ثم يمكن أن يترتب على توظيف العلم مزيد من خداع البشر والمعروف أنه لم يتم استنساخ إنسان من إنسان حتى الآن، وقد هدأت هذه الثورة العلمية أو

بمعنى أصح النشاط العلمى، وحلت محله الحروب ، والنزاع على الثروات المخزونة فى باطن الأرض، وغير ذلك ٠

جـ - انفلات الفيارس والطفيليات والميكروبات والجراثيم ومقاومتها وعدوانها على الإنسان، وظهور أمراض جديدة لم يكن للإنسان معرفة بها من قبل ، وتعرف عليها العلماء نتيجة لزيادة التقنية والتقدم العلمى، وغزو الإشعاع والكهرومغناطيسيات لجسم الإنسان، ولذلك يعيش العالم من خلال علمائه وباحثيه فى صراع مع هذه الكائنات لأنها تهرب من المقاومة أحيانا وتعود للثأر لنفسها فى أحيان أخرى، ويكون ضحية ذلك هو الإنسان الذى يوظف لتجريب مستحدثات الأدوية والأغذية المهجنة بعد عرضها على حيوانات التجارب، لكن ضحايا البشر كثيرون خاصة من دول العالم الثالث النامى أو النايم فى غفلة الزمان ٠

٣ - الصراع بين الدول والشعوب حول العديد من القضايا ٠

أ - مشكلات الحدود: تمثل مشكلات الحدود نزاعات تبدأ ساخنة ملتهبة، وتهدأ بعض الوقت ثم تعود من جديد لتلقى بظلالها الداكنة فى سماء العديد من البلدان مثل مشكلة الصحراء الغربية بين المغرب والجزائر ، وكذلك مشكلات الحدود بين اليمن والسعودية ، وبين قطر والبحرين، وبين الإمارات وإيران ، ثم كانت المشكلة الأكثر ضخامة وهولا بين العراق والكويت، وأمثلة ذلك كثيرة جدا حتى إن معظم الدول العربية تكتوى بهذه النزاعات التى لم يتم حل الكثير منها حتى

الآن، وبقيت مخزونة فى تفكير الشعب العربى، ونتجه شـرقا متصـل إلى الهند وباكستان حيث تمثل مشكلة كشمير نزاعا على هـذا الإقلـيم منذ أكثر من خمسين عاما، وتشتعل الحروب الحدودية بينهما ولا زالت هذه المشكلة بلا حل، وتستمر بسببها نيران الحرب بين الدولتين.

أما فى قبرص فالعلاقة بين اليونان وتركيا لم تتجـاوز مرحلـة السوء وعدم الوفاق بسبب النزاع على هذه الجزيرة واقتسـامها إلـى جزء ضعيف تحت النفوذ التركى، وجزء قوى تسيطر عليـه وتـديره دولة اليونان ، وهكذا تتجاوز مشكلات الحدود أكثر من منطقة بل إنها لا تتوقف عندما ذكرنا، وإنما تحدث بصور مختلفة أو أقل حـدة فـى بعض الدول الأخرى فى قارات العالم، وتبقى منطقة شـرق أوروبـا والشرق الأوسط والشرق الأدنى [وسط آسيا] هى المقدمة فى الاكتواء بهذه المشكلات الإنسانية التى يصعب حلها، ولعل فى أولها وفى آخرها بدرجات تمثل هموما كثيرة لمنطقة الشرق الأوسـط بخاصـة، وهـى مشكلة فلسطين التى لا تخفى قضاياها وهمومها ومشكلاتها على أحـد وتمتد إلى أبعد من الساحة المحيطة بها.

ب - مشكلة الماء والغذاء:

تعد هذه المشكلة ذات خطر كبير على الأمن والسلام العالمى؛ لما تمثله من تأثير إيجابى أو سلبى فى حياة الأمـم والشـعوب، كمـا أن مشكلة الماء بصفة خاصة تمثل أولوية فى الصراع الذى يتواجد بـين دولتين أو مجموعة من الدول، ثم يهدأ وتبقى المشكلة مؤجلة إلى وقت

ينشأ فيه نزاع بسيط فيزداد الصراع، ويكبر من جديد، وقد شاهدنا فى السنوات الأخيرة ما كان بين سوريا وتركيا من خلاف حول مياه نهـر الفرات، وتدخل بعض القادة السياسيين فهدأت المشكلة وسكنت الفتنـة آنذاك، وكذلك مثل مشكلة المياه بين الأردن وإسرائيل فى ميـاه نهـر الأردن، وتزداد خطورة مشكلة مياه الأنهار؛ لأنها لا تقتصر على دولة واحدة، وإنما تمتد إلى دولتين أو أكثر فأحيانا يبرز خلاف بين دولتـين أو أكثر عن مياه نهر النيل، ثم تهدأ الفتنة، وتنتهى الزوبعة احتكاما إلى وثائق موقعة، واتفاقات موثقة تقر استحقاق كل دولة فى مياه هذا النهر الخالد العظيم ، وهنا لابد من وضع الضوابط الثابتـة لإقـرار هـذه الحقوق حول كل نهر تجرى مياهه العذبة فى أكثر من دولة لكن بعض الأنظمة الثائرة ترى أن من حقها التجديد أو التغيير فى هذه الاتفاقـات التى مر عليها زمن كبير، فمشكلة مياه الأنهار تؤرق الكثير مـن دول العالم ، لما يترتب عليها من أنشطة زراعية تحتاج إلى الماء أكثر من أى شىء آخر.

أما على المستوى المحلى فإن استهلاك المياه يزداد عامـا بعـد عام، وبالتأكيد سوف يتأثر المخزون الاستراتيجى لكل دولة، فكثيرا من المحاصيل الزراعية تروى بالغمر وبإسراف رهيب فى استعمال المياه فى الزراعة.

إذ أن هذا التوجه لابد من تغييره، حتى يمكن ترشيد الاسـتخدام وعدم إهدار الكثير من الماء، وهذا الاستعمال بهذه الصـورة تجعـل

حاجة الدولة إلى الماء تزداد عاما بعد عام مما يوقعها فـــى مشـــكلات داخلية، وأزمات مع الدول المشتركة فى حقوق الاســـتفادة مـــن ميـــاه الأنهار ٠

أما المخزون الأرضى من الماء فيتجه إلى النقص عاما بعد آخر، وهذا بطبعه يوقف مشاريع القضاء على التصـــحر استشـــرافا لزيـــادة الرقعة الزراعية، لمقاومة مشكلة الغذاء، وهكذا تتجسد مشكلة المياه فى الأنهار العذبة التى تمر بأكثر من دولة وهذه بخاصة التى يتولد ويتجدد فيها الصراع ، ولكنها على كل حال مشكلة مقلقة تحتاج إلى سعى جاد من الحكومات ، وهى بصدد وضع الخطط المستقبلية لمشاريع التنميـــة والاقتصاد ٠

وتأتى مشكلة الغذاء تابعة ومرتبطة بمشكلة المياه، لأن الزراعـــة تعتمد على الماء قبل أى شىء آخر ٠

وقد تجاوزت مشكلة الغذاء حدود الدولة الواحدة إلـــى نطاقـــات أوسع فى دول العالم؛ إذ أن المعروف أن من لا يملك غذاءه لا يملـــك حريته؛ حيث تتخذ القوى الكبرى من إنتاجها الوفير الذى يفيض عنهـــا وتصدره إلى بلدان أخرى مدعاة للتدخل فى شؤون هذه الدول، لأنهـــا صاحبة الفضل عليها فى بيع غذاء كالقمح لها دون غيرها، كما يمكـــن أن تقع الدول النامية المحتاجة إلى الغذاء، فى مشكلات لا حصر لهـــا بسبب عمليات استيراد وشراء الغذاء، إما لعدم توفير الأموال اللازمة، أو لأنها لا تجد من يبيع لها المطلوب حسب نظام الســـوق العـــالمى،

وتتضخم لذلك مشكلات الغذاء بسبب أولى وهو عجز الدولة عن توفير متطلباتها .

إذن فمشكلة الماء والغذاء مشكلة عالمية، وقد شاهدنا فى السنوات الأخيرة كيف كانت دولة عظيمة مثل روسيا تتوسل وتضحى بجزء من إرادتها لكى تظفر بما تحتاج إليه من القمح الأمريكا سواء عن طريق الشراء أم عن طريق المنحة أو الهدية.

ويتولد عن هذه المشكلات سوء فى العلاقات بين الدول، فى الوقت الذى يتحدث الكثيرون هنا على مستوى الوطن العربى عن السوق العربية المشتركة، التى كانت ولا زالت نظرية أو حبرا على ورق بلا أى تأثير إيجابى فى الوضع العربى .

٤ـ العنف والإرهاب :

يعد العنف والإرهاب من أخطر المشكلات التى تواجه المجتمع الدولى منذ عدة سنوات، إذ لم تعد آثاره تنعكس على منطقة دون أخرى، كما أنه لم يعد بسيطا محدودا قاصرا على فرد أو جماعة، وإنما يتطور بدرجة رهيبة لم يكن يتصورها أحد فزادت أعداد المنظمات الإرهابية، وكثر عدد المشاركين فى كل واحدة منها، وامتد نشاط (المنظمة أو الجماعة) إلى عدد كبير من الدول بطريقة محكمة، وبتكليفات محددة فى أزمان معينة، غالبا ما تكون مفاجئة وغير متوقعة.

ولم تتوقف هذه الجماعات عند الأعمال البسيطة، وإنما انتقلت إلى مرحلة جديدة استعانت فيها بالأسلحة والذخائر والأدوات شديدة الفتك واسعة الانتشار، تؤثر تأثيرا مدمرا فى المجتمع الذى تحدث فيه العمليات؛ لأنها تلحق أضرارا بالغة بالمواطنين على اختلاف أعمارهم وأعمالهم بدون تفرقة، كما يمثل قلقا ورعبا للأنظمة الحاكمة التى تستشعر ضعف قدرتها فى حماية الشعب وصيانة المرافق والممتلكات العامة والخاصة، فضلا عن القتلى من أفراد الأمن والنظام ومن المدنيين، وإلحاق الأضرار السيئة بالمصابين فى هذه العمليات.

ويأتى الإرهاب تعبيرا عن العنف الذى استشرى فى المجتمع الدولى فى العشرين سنة الأخيرة بصفة خاصة، ولا ينهض الإرهابيون بهذه العمليات لمجرد القيام بها، وإنما إيمانا واقتناعا بآراء ومتطلبات بعضها حق مشروع، لكن لا تكون المطالبة بها بهذه الصورة الشديدة العنف، والتى تمتد آثارها فى المقام الأول إلى المواطنين الأبرياء العزل الذين لا حول ولا قوة لكثيرين منهم، أو يتم تنفيذ تلك العمليات استجابة لمذاهب ومعتقدات متطرفة غير جديرة بالنقاش والبحث، ويحدث ذلك من الجماعات السياسية التى تعبر عن وجهات نظر خاصة بها .

وتزداد حدة الصراع والإرهاب حول الأماكن الملتهبة مثل فلسطين وأفغانستان والعراق، ويضم إلى ذلك مشكلات الأقليات العرقية والدينية مثل الأكراد ، ومثل الصراع على منطقة الشرق الأوسط

بصفة خاصة، لما تمثله من أهمية كبيـرة بسـبب الثـروة والموقـع، واختلاف الآراء والمعتقدات، فضلا عن ضعف بعض الأنظمـة ممـا يشجع على التدخل الأجنبى فى شؤون المنطقة.

تعد أمريكا القوة العظمى الوحيدة الآن على مستوى العالم، وهى الأسبق والأقدر على فرض نفوذها على هذه المنطقة بدعوى مقاومـة الإرهاب ومساعدة الحكومات على الاستقرار، وممارسة الديمقراطيـة والتصدى لسباق التسلح ونبذ الحروب، والحياة فى أمن وسلام.

ولا يروق ذلك لجماعات العنف فى المنطقة؛ إذ يرفضـون كـل تدخل فى شؤون الآخرين، ويقاومون هذا الاحتلال السـافر باسـتعمال العنف والأعمال الإرهابية المسلحة.

ولا يقتصر الإرهاب على الجماعات التى تتخذ من الدين شـعارا لها ، أو الجماعات الأصولية التى تقاوم المنكر وكل مـا تـراه يهـدد الإسلام بالكلمة أو بالعنف، كما يأتى الإرهاب من أقليات خارجة عـن المعتقدات والأعراف الثابتة بحثا عن مطالبات غريبة أو شاذة لا تقرها الأغلبية المعتدلة ، وأذكر بصدد ذلك جماعة الألويـة الحمـراء فـى إيطاليا والجيش الأحمر فى اليابان؛ إذ لا علاقة لأتباعها بالأديان أيـن كانت ، وإنما الخضوع والإذعان للتوجه السياسى، علما بأن نشاط هذه الجماعات قد تلاشى الآن ــ بصورة كبيرة ــ وفى حـدود المتابعـة لأعمال العنف والإرهاب على مستوى العالم.

ولا شك فى أن الإرهاب بالصورة الماثلة الواقعة أمام أسماعنا ومشاهدنا ينذر بشر دائم ولا يبشر بخير على الإطلاق ، حيث لا تتوقف آثاره السيئة على دولة دون أخرى، إنما يحتاج إلى معالجة شاملة تلتقى فيه بلدان العالم، وتضع ميثاقا ملزما بالتعاون ووضع الخطط للمستقبليات، حتى تهدأ نيران هذا الشر المستطير .

كما لابد فى ظل هذا التلاقى التنسيق بين المواقف من تنمية الحوار بين الأمم والحضارات، والتصدى لأية محاولة ينقلب فيها الحوار إلى صراع لا يخدم الأمن العالمى، ونقدم مثالا آنيا نحو إشعال الفتنة بين الشرق والغرب؛ إذ قامت جريدة دنماركية فى الثلاثين من سبتمبر ٢٠٠٥م بنشر اثنى عشر رسما مسيئا لشخصية سيدنا محمد ﷺ، ويبدو أن الجريدة قد لاحظت أن الرسومات السيئة لم تحقق ما كانت تأمله من دوى وتأثير فى بلدان الشرق، فأعادت نشر هذه الرسوم فى شهر يناير ٢٠٠٦م، وتبعتها فى ذلك صحف من النرويج ومن بعض الدول الأوربية الأخرى، وقد رفض المسؤولون عن الجريدة الاعتذار عما بدر منهم، كما رفض رئيس الوزراء الدنماركى فى أعقاب نشر الرسوم للمرة الثانية الاعتذار أيضا قائلا إن الجريدة التى نشرت الرسوم جريدة خاصة، ولا سلطان عليها وهى لم تفعل أكثر من استعمال حقها فى التعبير والنشر، قائلا ومدافعا عما سماه حرية الرأى.

لكن هل معنى حرية الرأى أن يكون ذلك بإهانة الأديان والإساءة إلى المعتقدات، وقد نشطت دول الشرق وقاطعت منتجات بعض الدول الأوربية، وقامت المظاهرات الغاضبة وأعمال العنف فى بعض الدول، مما ألحق ضررا بدولة الدنمارك وبعض الدول الأخـرى ممـا جعـل الصحيفة تتراجع عن موقفها فتعتذر بحجة أنها لم تقصد الإساءة إلـى الرسول وازدراء الدين الإسلامى٠

وأخذ السياسيون فى عديد من الدول يهدئون من هذه الثورة التى اشتعلت فى دول العالم الإسلامى بسبب تصرف أهوج من صحيفة ذات نوايا سيئة، وهكذا تولد العنف بين العديد من الدول فى مرحلة زمنيـة يعيش العالم فيها وهو يقاوم الإرهاب، ويسعى إلى الأمن والعيش فـى سلام٠

٥ـ سباق التسلح :

إن السباق بين الدول على تطوير الأسلحة المدمرة مـن أخطـر المشكلات التى تواجه المجتمع العالمى، لما يترتب عليها من نزاعـات وحروب لا تقف عند حد معين، وقد زادت خطورة هذا السـباق فـى السنوات الأخيرة بصورة مكشوفة ٠

ومما يسهم فى تعقيد هذه المشكلة أن النظرة فيها إلى الدول غير متساوية، وتكيل القوى العظمى بأكثر من كيل فى تناولها لهذا الأمـر بصورة عامة ٠

كما أن بعض الدول تتباهى بادعاء المقدرة تعبيرا عـن أهـداف تراها محققة لمكانتها ومنزلتها فى ظل الصـراع المحتـدم بـين دول العالم، واتضح ذلك فى الصراع بين العراق وإيـران أولا، ثـم مـع الكويت ثانيا، وأخيرا مع العديد من بلدان العالم فى مقدمتها الولايـات المتحدة الأمريكية ، فبعد حرب عام ١٩٩١م بـين العـراق والـدول الحليفة، واستسلام العراق تماما وخروجها من الكويت بـدأ الـرئيس العراقى آنذاك فى إدعاء العظمة والقدرة علـى المقاومـة والتصـدى للأعداء فادعى أن لديه مخزونا كبيرا من الأسلحة النووية ، ثم استسلم لسلطان القوة ودمرها، مما حرم بلده من الاستفادة من هذا المخـزون الذى يعد آنذاك قوة للمناورة وفى المفاوضات، ثم ادعى أن لديه الكثير مما لم يدمره فخضع مرة أخرى للتفتيش من قبل ممثلى منظمة الأمـم المتحدة، وأخيرا تدخلت أمريكا فى العراق لتدمير ما لديه من أسـلحة دمار شامل، وكان هذا بالقطع ادعاء لا أصل له فى الواقع.

وقد عرضت لبعض الأحداث فى هذه المشكلة الطويلة والمعقـدة لأصل فى آخرها إلى أن التسلح كان أحد الأسـباب المـدعاة لـدخول العديد من دول العالم فى العراق ، مؤكدا أن المشكلة الواحدة لم تقتصر على دولة أو دولتين، وإنما امتدت آثارها إلى الثلاثين دولة التى لهـا جيوش فى العراق وإلى غيرها من الدول التى كانت تعانى من همـوم هذه المشكلة ، وتشغل بها، وتستعد لما يمكـن أن يـنجم عنهـا مـن تداعيات، وتكاد المشكلة تتكرر بصورة مختلفة وفى نطاق ضيق وزمن مختلف مع إيران؛ حيث تقف فى مواجهة أمريكا وحلفائها، ويخشى من

أن ينجم عن هذه المشكلة ما لا تحمد عقباه، فقد شرعت إيـــران بثقـــة مبالغ فيها فى تطوير سلاحها النووى ولا ترضى أمريكـــا عـــن هـــذا التوجه وكأنها تريد أن تحتكر كل تطوير علمى للسلاح حتـــى يكـــون السبق فى هذا المجال خاصا بها وببعض حلفائها أيضا.

تقول إيران: ولماذا لا يشمل هذا الحظر إسرائيل ولماذا تســـتفيد بما لديها من سلاح نووى فى الوقت الذى لا تمكن فيه بقية الدول فـــى آسيا وأفريقيا من النهوض فى تطوير سلاحها النـــووى، ومـــا زالـــت المشكلة قائمة ولا يعلم أحد ماذا ستسفر عنه الأيام .

ويحدث مثل ذلك فى دول أخرى مصنفة أمريكيا بأنهـــا تســـاعد الإرهاب، لكن المشكلة بصورة عامة فيها كثير مـــن التهديـــد للســـلام العالمى، وتكاد تجر المنطقة إلى حرب قد لا تبقى ولا تذر، وتتحـــول بذلك مجموعة الدول المجاورة لإيران للعيش فى قلق وضيق مما يمكن أن يحدث بسبب التفجيرات النووية من المتحاربين.

٦ - مشكلات أخرى:

لا تتوقف مشكلات العالم عند حدود ما ذكرنا ، وإنما تمتـــد إلـــى هموم ومشكلات أخرى مثل غزو الفضاء الذى يمكن أن يكـــون فـــى المستقبل محلا وموضعا للصراعات بين الأمم فلا تتوقـــف الحـــروب على الأرض ومجالها الجوى بل تتعداها وتصل إلى الكواكب والنجوم، ومن هنا تتعقد مشكلات الإنسان وتزداد معاناته .

والمشكلات التى تتعلق بأطماع الدول الكبرى والرغبة الجامحة فى سيطرتها على أماكن الثروة فى العالم.

ومشكلة الصراع بين الحضارات الذى يشتعل ثم يهدأ، ويبقى كامنا فى النفوس ومتجليا فى العديد من المواقف، وهو فى حاجة إلى التقارب قبل أى شىء آخر، فضلا عن المشكلات التى تتولد فى بلدان أخرى على سطح الكرة الأرضية مما يحتم الدعوة إلى السلام والحوار والتكاتف والوصول إلى النتائج التى لا تحمى فيها الأعراف والمعتقدات، وحقوق الشعوب التى لا تتعارض، ولا تتنافر مع الدعوة إلى العولمة فى مفهومها العام.

التصوف بين الدين والأدب(*)

يسأل كثير من الناس عن حقيقة التصوف، وبيان مدى الشرعية فيما تمارسه الطرق الصوفية من عبادة واحتفالات، وعما فى الأدب الصوفى من رموز وإشارات.

ولكن الإجابة ليست سهلة ميسورة؛ لكثرة الآراء المختلف فيها بين التأييد والمعارضة لهذا الاتجاه الذى تحول عبر التاريخ إلى طريقة دينية أو مجموعة طرق، وإلى أدب متميز، وعلم له مبادئه ورواده الذين ليسوا على درجة واحدة من التقوى والإخلاص.

والثابت أن الطرق الصوفية فى حالتها الراهنة لم تكن موجودة فى عهد الرسول ﷺ ، ولا فى عهد أصحابه الأجلاء، وأن الملابس الخضراء أو غير الخضراء ليست مرتبطة بالسنة النبوية؛ إذ لا يوجد على الإجمال ما يسمى بالزى الإسلامى. وأن الحكم على إنسان لا يكون من واقع زيه وهيئته، وإنما بمقدار التزامه بما جاء فى القرآن الكريم، وبما ورد من صحيح القول لرسول الله، كما أن الإسلام لا يقر الانصراف عن الحياة والتشدد فى العبادة، فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام: "إن الرهبانية لم تكتب علينا" (١).

وينبغى أن يعرض كل ما يقوم به المتصوفون من عبادات وأعمال على ميزان الإسلام، فما اتفق معه، ولم يخرج عليه قبلناه

(*) نشر بعضه فى جريدة عقيدتى بالعدد ٥٣٢ بتاريخ ٢٠٠٣/٢/٤م.

(١) رواه أحمد.

ورضينا به، وما خرج عليه رفضناه وأنكرناه وتصدينا لــه بالحكمــة والقول الحسن٠

ولقد كثرت الكتابات عن التصوف بــين القــدماء والمحــدثين ، وتضاربت الأقوال فى الحكم عليه، وعلى تحوله من ســلوك يمارســه الفرد إلى مذهب له أتباع ومريدون ٠

أصل التصوف :

ينسب البعض التصوف إلى جماعة من المهاجرين الفقراء الــذين لم تتهيأ لهم أمكنة يقيمون فيها على عهد رسول الله ، فكــانوا ينزلــون بشمالى المسجد النبوى بالمدينة المنورة فى الموضــع الــذى يســمى (الصفة)، ومنهم أبوهريرة وسعد بن أبىوقاص ، وهــم ممــن أشــار القرآن الكريم إليهم فــى قولــه تعــالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (١) وفــى قولــه تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (٢).

---

(١) الحشر ٨ ٠
(٢) البقرة ٢٧٣ ٠

وكتب أبو عبدالرحمن السلمى[١] (توفى فى نيسابور عام ٤١٢هـ) تاريخهم، وذكر أنهم كانوا من أعظم الناس جهادا مع رسول الله ﷺ ، ولم يتأخروا عن عمل أسند إليهم، ولم يتوانوا عن طلب الرزق والسعى فى والأرض .

ويقال: إن التسمية ترجع إلى الصوف ، فالصوفى يتخذ ملابسه من الصوف، وهو زى النساك المتعبدين الذين يميلون إلى الزهد والتقشف والملابس الخشنة ، ويبتعدون عن الترف والنعيم.

وأرجع البعض معنى التصوف إلى الصفاء، فالمتصوف من أخلص، وصفا قلبه لله تعالى.

وذكر العقاد أن الكلمة مستعارة من اليونانية بمعنى الحكمة الإلهية، فمعنى التصوف مقابل لمعنى الحكمة العقلية وهى الفلسفة؛ لأن الصوفى يطلب الحكمة عن طريق الدين[٢].

وقيل برجوع التسمية إلى آل صوفة الذين كانوا يخدمون الكعبة ويتنسكون بها، فنسب المتصوفون إليهم تشبيها بهم فى العبادة والنسك.

وقال القشيرى فى رسالته عن التصوف: "ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس، والظاهر أنه لقب، ومن قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوى" وقال: "وكذلك من الصوف؛ لأنهم لم يختصوا بلبسه"[٣].

---

(١) فى كتابه (طبقات الصوفية).
(٢) التفكير فريضة إسلامية صـ١٥٠ .
(٣) من مقدمة ابن خلدون صـ٤٣٩ وانظر (بيان للناس من الأزهر الشريف) جـ٢ صـ٣٧ .

والواضح أن هذه التسميات محل خلاف، ويبقى أكثرها لا معنى له فى نطاق القول بنوع من التأثر بين زهاد المتصوفين فى الجزيرة العربية، وأتباع المسيحية والديانات الأخرى فى أطراف الجزيرة العربية، وبعض الأماكن الأخرى وتتسع درجات الاختلاف فى ربط التصوف الإسلامى بالفكر والفلسفة اليونانية، وإن كان القول بإرجاع التسمية إلى ارتداء خرقة من الصوف هو الأكثر قبولا لدى الكثيرين من الزهاد فى القرن الهجرى الثالث وهو عصر الحلاج (الحسين بن منصور)، أشهر المتصوفين الذين أضيروا بتوجهاتهم الفلسفية، ونزعاتهم الدينية.

أما الآخرون من أهل التصوف فيقنعون بمذهبهم الذين يرون التصوف درجة من الإحسان أخذا من قول الله تعالى:﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾(١) وذلك هو التصوف الإسلامى القويم، والذى ذكره الدكتور أحمد الشرباصى،فقال: "هو أن يبلغ المؤمن درجة الإحسان التى هى أعلى الدرجات فى التوجه إلى الله عزوجل، والتى يشير إليها القرآن الكريم فى قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢)(٣).

---

(١) لقمان ٢٢ .
(٢) العنكبوت ٦٩ .
(٣) انظر يسالونك للشرباصى جـ١ ص٥٥٧ .

وقد قال الرسول ﷺ فى جوابه لسؤال جبريل عن الإحسان، قال: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ..."[١].

وقال الشرباصى عن معنى الإحسان وهو لب التصوف: "التوجه الكلى إلى الله، والتعلق الدائم به، والتفكير الموصول فى صفاته وآياته، والمراقبة المستمرة لعظمتــه وجلالــه، والمشــاهدة الدايمــة لأنــواره وأضوائه"[٢].

ويرى أن الأدعياء على التصوف كثيرون، وأن المخلصــين لــه قليلون .

ولم يكن التصوف بصفته مذهبا دينيا، أو طريقة أو منهجا فكريــا موجودا فى القرن الأول الهجرى، وإنما كانت أصــوله وخصائصــه وصفات أتباعه ترجع إلى حياة من الزهد كالتى عاشــها والتــزم بهــا الحسن البصرى، ثم بدأ هذا التوجه فى النمو مع نهاية القرن الثانى فى ظلال حياة من اللهو والمجون، والابتعاد عن الدين، والقول بالشعوبية، وانتشار الترف الزائد، وظهور الكثير من البدع والخرافات فى غمــرة الاتصال بين العرب المسلمين والأمم الأخرى المجاورة.

ولقد كان ظهور التصوف فى هذه الحقبة رد فعل للابتعــاد عــن الدين، وبدأ الزهاد والمتصوفون يعيشون حياة التقشف وتحصيل العلوم، والبحث عن الذات الإلهية، وهكذا تحول هذا السلوك الذى ظهر وبــدأ بسيطا إلى علم له مناهج وقضايا وأتباع يصنفون إلى طبقــات مــنهم

(١) من حديث رواه مسلم.
(٢) انظر يسالونك للشرباصى جــ١ ص٥٥٧ .

الأقطاب والأبدال والمريدون، واعتبر المقياس المتبع فى الحكم علـيهم هو قول الله تعـالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢).

وقول النبىﷺ:"من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"(٣).

أما موقف الأزهر من التصوف فيحدده ما جاء فى بيانه للنـاس على النحو الآتى : "فإن كانت الطرق الصوفية ملتزمة بالـدين عقيـدة وشريعة فهى محمودة، وينبغى تشجيعها، وإن انحرفت فهى مذمومـة، ويجب تقويمها، والتقويم يكون على المنهج الذى رسـمه الله لنبيـه ﷺ بقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (٤)(٥).

---

(١) يونس (٦٣، ٦٤).
(٢) الأنعام ١٥٣ .
(٣) البخارى ومسلم .
(٤) النحل ١٢٥ .
(٥) من (بيان للناس) جـ٢ صـ٣٨ .

واتسعت الطرق الصوفية من قرن إلى آخر، حتى كان القرن السادس الهجرى، فاتجه الأدب إلى التصوف ، وظهرت المدائح النبوية، فقال البوصيرى فى مدح الرسول بقصيدة (البردة):

هو الحبيب الذى تُرْجى شفاعته ∴ لكل هوّلٍ من الأهوال مُقْتَحمِ

وقال :

فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ ∴ وأنه خيرُ خلْقِ الله كلهِم

وفيها أيضا:

يا أكرمَ الرُّسْلِ مالى من ألوذ به ∴ سواك عند حدوث الحادث العَمَم

ولن يضيق رسولَ الله جاهك بى ∴ إذا الكريم تحلّى باسم منتقم

ولم يرض ابن تيمية عن هذا الإطراء للرسول، ورأى أن ما قاله البوصيرى شرك بالله يستحق التوبة، ولا ينفعه تصوفه وورعه، إلى غير ذلك من القضايا التى ثار حولها جدل واسع.

وبلغ التصوف الذروة فى القرن السابع الهجرى؛ لما طرأ على المجتمع الإسلامى من تغيرات بسبب الحروب الصليبية والتترية وانهزام المسلمين فى الأندلس.

لقد تحول التصوف عبر تاريخه الطويل من طريقة فى التبتل والزهد والإحسان والإقبال على الله، والانصراف عن الدنيا وزينتها إلى علم له قواعد وأصول، وإلى أدب له خصائص واتجاهات، وإلى فلسفة وفكر وإشارات ورموز وأقوال مرسلة فى الحب والعشق الإلهى،

وصار فى القرن السابع مختلفا تماما عما كان عليه الحال فى القــرن الثالث.

وممن كتب عن التصوف أبو عبدالرحمن السلمى فــى (طبقــات الصوفية)، وابن سينا فى (الإشارات)، والغزالى فــى (إحيــاء علــوم الدين) وابن القيم فى (مدارج السالكين) والسهروردى فــى (عــوارف المعارف) كما كتب عنه ابن خلدون فى (المقدمة) فقال:

"هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة فى الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتــابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصــلها العكــوف علــى العبــادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخارف الــدنيا وزينتهــا، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفــراد عــن الخلق فى الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف"(١).

وقد تميز المتصوفون بسعيهم إلى المعرفة من خلال مجموعة من المقامات يترقون خلالها حتى يصلوا إلى الغاية المطلوبة، ويكون ذلك بالمجاهدة والخلوة والذكر والاطلاع على عوالم مــن أمــر الله مثــل الروح، وكشف حجاب الحس، ولا يعتبر عظمــاء المتصــوفة بهــذا الكشف ، ولا يخبرون عن حقيقته؛ لأنهم لم يؤمروا بالتكلم فيــه، بــل يعدونه محنة، ويتعوذون منه إذا وقع لهم(٢).

---

(١) المقدمة صـ٤٣٩ .

(٢) انظر المقدمة صـ٤٤١ .

ومال بعض المتصوفة إلى القول بالاتحاد والحلـــول، أى أن الله تعالى متحد بالمخلوقات، إما بمعنى الحلول فيها، أو بمعنى أنـــه هـــو عينها، وليس هناك غيره جملة ولا تفصيلا، وذكر ابن خلدون أن هـــذا الاتحاد هو الحلول الذى تدعيه النصارى فى المسيح عليـــه الســـلام ، وذكر "أن ذات القديم كامنة فى المحدثات محسوسها ومعقولها متحـــدة بها فى التصورين وهى كلها مظاهر لها ، وهو القائم عليها، أى المقوم لوجودها، بمعنى لولاه كانت عدما ، وهو رأى أهل الحلول"(١).

أما الحديث عن التجلى فلا أول ولا آخر له، وأقرب الفهـــم أنـــه نوع من كشف الوجود وترتيب حقائقه وصدوره عن الفاعل الواحـــد، وأول مراتبه تجلى الذات على نفسه لقوله فى الحديث القدسى: "كنـــت كنزا مخفيا، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق ليعرفونى"(٢).

واعتبر ابن خلدون كلام المتصوفين فى هذا الشـــأن غامضـــا لا يقتدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه، وهو شبيه بما تقوله الرافضـــة فى توارث الأئمة، وبما تقوله الشيعة فى النقباء، حتى خرقة التصـــوف رجعوا بها إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه.

وقد كان النقاش يدور مع أهـــل التصـــوف حـــول المجاهـــدات ومحاسبة النفس وطبيعة الكشف، والحقيقة المدركة من عالم الغيب، ثم

---

(١) السابق صـــ٤٤٣ .

(٢) السابق ص ٤٤٣ ، وهذا الحديث ليس من كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يعرف له إسناد صحيح ولا ضعيف ـــ ينظر كشف الخفاء للعجلونى رقم ٢٠٦ ، والمقاصد الحسنة رقم ٨٣٨ .

التصرفات فى العوالم والأكوان بأنواع الكرامات، وأخيرا الألفاظ الموهمة الظاهر، والتى صدرت من أكثر أئمة المتصوفة، ويعبر عنها بالشطحات، حيث أضير بسببها الكثيرون ومنهم الحلاج والسهروردى وغيرهما .

وليس المتصوفون على درجة واحدة فمنهم الأقطاب والأبدال والمريدون، وهم فى درجات متفاوتة من المعرفة التى تقذف الرياضة الروحية فى النفس، ومن القول بوحدة الوجود التى اعتبرت الدعوة إليها والقول بها من صميم الشطحات التى أضرت بالتصوف، وكذلك القول بالحلول الإلهى فى النفوس الإنسانية، وما دعا إليه ابن عربى حول وحدة الأديان وغيرها من القضايا.

وقد حمل (محمد بن عبدالوهاب) رائد الحركة الوهابية على التصوف فانبرى يسفه الداعين له، ويرى أنه: انحراف عن طريق الله المستقيم ومجموعة من البدع التى ليس لها أصل فى الشرع، ولأنهم يتوسعون فى التأويل والعلم الباطنى، وما إلى ذلك كالقول بالكرامات والأوهام، وترك العمل والتواكل، وإقامة الموالد والاحتفالات المحرمة، والحرص على دفن الأولياء بالمساجد، وإحياء البدع، فهذه الرحلة للتصوف فى القرون الأخيرة كانت مليئة بالتقلبات والتشدد والاعتدال، فقد أفتى الفقهاء وبعض المتصوفين بقتل (الحلاج)؛ لأنه زنديق، وكانت شطحاتهم بالابتعاد عن الكتاب والسنة سببا فيما لحق بهم.

وتخلى الكثيرون من أهل التصوف عن تلك النظريات التى قيلت فى الماضى، ولحق بسببها الضر والأذى ببعض أقطاب التصوف، وتقرر فى المادة الثانية من الباب الخامس من لائحة الطرق الصوفية لسنة ١٣٢٠هـ (١٩٠٣م) "أن كل من يقول بالحلول أو الاتحاد أو سقوط التكليف يطرد من الطرق الصوفية كافة"[١].

وأصبح الحديث ـ الآن ـ عن هذه النظريات القديمة ـ لا معنى له، وإن كانت الحركات الصوفية فى حاجة مستمرة لمقاومة أى انحراف يقع من أتباعها ومريديها، فضلا عن ضرورة تنقية احتفالاتهم من أية شبهة تسيىء إلى التصوف، وإن أخطر ما يمكن أن يشوه المتصوفين ما يقع فى موالد الأولياء من مخالفات يظنها الكثيرون عبادة وتبتيلا ، وهى ليست كذلك، فلابد أن يكون المتصوف الحقيقى حريصا على القرآن والسنة، رافضا لكل ضلالة وبدعة فى قضايا الشرع التى استقرت وثبتت منذ عهد الرسول ﷺ .

لقد أمكن إخضاع التصوف (فى مصر بخاصة) لإشراف الدولة من خلال المجلس الأعلى للطرق الصوفية الذى يشارك فيه الأزهر الشريف، ووزارة الأوقاف ، وبعض الوزراء وكبار العلماء، مما يتيح لكل صاحب رأى أن يواجه المتصوفين ويناقشهم حتى يستقر الإيمان الصحيح فى القلوب، وينقى الدين مما يمكن أن يلحق به ويسيىء إليه.

والله يهدى إلى سواء السبيل

---

(١) التفكير فريضة إسلامية للعقاد ص١٥٩ .

حدود الاستطاعة

فى الفرائض والأحكام الإسلامية(*)

الاستطاعة هى القدرة على تحمل الشيئ والنهوض به فى حدود الشرع والعرف، سواء أكانت بدنية أم مالية،فى العبادات أو المعاملات، وفى منهاج علاقة الإنسان بربه، أو فى نطاق علاقة الفرد بالآخرين؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى عادل رحيم لا يحاسب المؤمن إلا على ما يستطيع القيام به. قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(١).

والتكليف: الأمر بما يشق عليه، والوسع: الطاقة والجدة، وقد كتب القرطبى فى أعقاب هذا الجزء من الآية، فقال: "نص الله تعالى على أنه لا يكلف العباد من وقت نزول الآية عبادة من أعمال القلب أو الجوارح إلا وهى فى وسع المكلف، وفى مقتضى إدراكه وبنيته؛ وبهذا انكشفت الكربة عن المسلمين فى تأولهم أمر الخواطر"(٢).

فالإسلام لم يكلف أحدا شيئا لا يطيقه ولا يقدر عليه.

قال الشاعر:

ما كلّف الله نفسا فوق طاقتها ∴ ولا تجودُ يدٌ إلا بما تَجِد

(*) نشر فى جريدة صوت الأزهر فى العددين ١٦٩ ، ١٧٠ بتاريخ ٢٠/١٢/٢٠٠٢م و ٢٧/١٢/٢٠٠٢م.

(١) البقرة ٢٨٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ٣ صـ٤٢٩ .

قال تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (١)، وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ (٢) وذلك فى شأن إنفاق الزوج على زوجته وولده الصغير قدر طاقته، وفى حدود حاجة من ينفق عليه، فلا يكلف الفقير بالإنفاق مثل ما يكلف الغنى المستطيع.

فهذا التكليف عام فى النفقة على الأهل والتصدق على الفقراء، والمشاركة فى أعمال البر، وفى سائر الأمور التى نص عليها الشرع، ويحكمها العرف الذى اتفق معظم الناس عليه.

وقد تنوع الحديث عن الاستطاعة فى القرآن الكريم والسنة النبوية حسب طبيعة كل عبادة وأخرى، وبما يتناسب مع الحكم الشرعى المنوط بالمسلم.

وأكثر ما ترد الآيات والأحاديث عن الاستطاعة فى الحج؛ لأنه يكاد يكون العبادة الوحيدة التى لا يجب الأداء فيها على الفور، وإنما على التراخى ــ وذلك عند البعض ــ وفى ضوء ما نص عليه القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأفاضت كتب التفسير والأحاديث والفقه فى بيانها وتحديدها بما يكشف عن يسر الإسلام وسماحته، ثم تأتى بعد ذلك بقية العبادات، مثل تغيير المنكر ، وتقوى الله، والإصلاح بين الناس، والانتقال من أمر إلى آخر فى كفارات الأيمان وغيرها .

---

(١) الأنعام ١٥٢ .
(٢) الطلاق ٧ .

الاستطاعة فى الحج :

الاستطاعة فى الحج شرط من شروط الوجوب، فقيل لا يجوز تأخيره مع القدرة عليه ، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ۚ﴾ (١) فيشترط فى المكلف بالحج أن يكون صحيح البدن؛ حتى يتحمل مشقة السفر وأداء المناسك ، كما يشترط أن يكون مالكا للزاد والراحلة، وهى الاستطاعة المادية التى يحوز بها ما يكفيه ويكفى من يعولهم طوال مدة الحج ذهابا وعودة فى حدود المتعارف عليه، لمن هم فى مستواه الاجتماعى، فإذا كانت التكاليف لنفقة المكلف عن نفسه فى متوسط الأحوال عشرة، وجب عليه الحج، حتى لو كانت هذه التكاليف لغيره تصل إلى العشرين .

كما أن الاستطاعة البدنية تخضع هى الأخرى لحدود المتعارف عليه، فإذا لم يقدر المكلف على المشى – حتى لو كانت المسافة قريبة – واستطاع أن يثبت على الراحلة وينهض بالنسك وجب الحج ، أما إذا استشعر عدم القدرة على السفر، أو أفتى بذلك الطبيب الثقة فلا موضع للوجوب، فعن ابن عمر رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ : "بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا"(٢).

---

(١) آل عمران ٩٧ .
(٢) البخارى ومسلم.

فالاستطاعة التى ذكرها القرآن والحديث تتسع لتشمل كل ما يتصل بالرحلة لأداء الفريضة، كالقدرة على تحمل السفر والإحساس بالأمان فى الطريق والاستعداد بالزاد والنفقة اللازمة له ولأهله؛ لأن الحج لا يجب على العاجز أو الفقير.

فالتزود للحج ضرورى جدا خاصة فى هذه السنين التى كثرت فيها تكاليف السفر والإقامة، والانتقال بين المشاعر، وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال: "كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [1].

وبعض الناس يرغبون فى أداء الفريضة، ولا يملكون ما ينفقونه فى أيام الحج ، فيذهبون إلى مكة ويتسولون بها، ويعرضون أنفسهم للمشقة والعناء، كما أن بعضا منهم قد سبق له الحج ولكنه أحب السفر، واستحلى الراحة، فلا يكتفى بأداء الفريضة مرة أو مرتين، ولكنه يحرص على تكرارها، وهو لا يملك . وإذا كان لديه ما ينفقه فلا يجب عليه الحج إلا مرة واحدة، فعن أبىهريرة ﷺ قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال "يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا، فقال رجل : لا أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا فقال ﷺ : "لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم" ثم قال : "ذرونى ما تركتكم فإنما أهلك من كان

---

(١) البقرة ١٩٧ .

قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه"(١).

ولا شيىء فى أن يعمل المسلم عملا أثناء تأدية النسك، يتكسب منه كالتجارة مثلا ما دام ذلك لا يعيقه عن فعل الأركان والواجبات.

إن الحج عبادة قديمة وفريضة سامية، ذات أهداف متعددة قال تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ (٢) وقال القرطبى : "وأنكرت الملحدة الحج، فقالت: إن فيه تجريد الثياب، وذلك يخالف الحياء، والسعى وهو يناقض الوقار، ورمى الجمار لغير مرمى، وذلك يضاد العقل، فصاروا إلى أن هذه الأفعال كلها باطلة إذ لم يعرفوا لها حكمة ولا علة، وجهلوا أنه ليس من شرط المولى مع العبد أن يفهم المقصود بجميع ما يأمره به، ولا أن يطلع على فائدة تكليفه، وإنما يتعين عليه الامتثال، ويلزمه الانقياد من غير طلب فائدة، ولا سؤال عن مقصود"(٣)، أما من لا يجب عليه الحج لعدم الاستطاعة، وأجهد نفسه، وتحمل من الصعاب ما قدر على تجاوزه، وأدى الفريضة كاملة الأركان والواجبات، فإن ذلك يجزئه وحسابه على الله تعالى .

---

(١) البخارى ومسلم .
(٢) الحج ٢٨ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ٤ صـ١٤٣ .

٢ـ حدود الاستطاعة فى النكاح والعدل بين الزوجات :

تتجلى الاستطاعة فى النكاح وما يتبعه من إجـراءات كالخطبـة والعقد والصداق وتعدد الزوجات، وقد خاطـب الرسـول ﷺ الشـباب وحضهم على الزواج فى حدود الاستطاعة والعرف الذى لا يتعـارض مع الشريعة الإسلامية، فقال ﷺ : "يا معشر الشباب من استطاع مـنكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لـم يسـتطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"(١).

ونعجب من الذين يتشددون فى هذه القضية، ويخضعون للعادات التى يتمسك بها كثير ممن لا يفهمون الجوهر الحقيقى للإسـلام، فـإن الغلو فى المهور، والطلبات المبالغ فيها تصرف الشباب عن إحصـان نفسه ، وتوجيه طاقته توجيها سليما ، وإلا فما المقصـود مـن قـول الرسول ﷺ : "التمس ولو خاتما من حديد"(٢).

فالاستطاعة ضرورية وواجبة فى الإقبال على الـزواج ، ولكـن ينبغى على أولياء المرأة أن يحرصوا على التيسير ،ومجانبـة الغلـو والتشدد فى النفقات التى تسيطر عليها بعض العادات البعيدة عن يسـر الإسلام وسماحته.

وتكون النفقة أيضا فى حدود الاستطاعة والإمكانيـات المتاحـة مصداقا لقـول الله تعـالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ (٣) وكان الإسلام قد رغب فى نكاح الحرائر ، فإذا لم يسـتطع الرجـل ، وخشى الوقوع فى الإثم جاز له أن يتزوج بالأمة ، قال تعـالى: ﴿وَمَن

---

(١) البخارى وبعض أصحاب السنن .
(٢) البخارى ومسلم.
(٣) الطلاق ٧ .

لَمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ (١) ولابد من الاستطاعة أيضا عند رغبة الرجل فى الزواج بأكثر من واحدة إذا اقتضت الأحوال ذلك، ولو لم يقدر على العدل المطلق بينهن، لأن الميل القلبى خارج هذا النطاق الذى لا يحاسب الشخص عليه .

ونفى القرآن الكريم استطاعة الزوج القدرة على العدل بين النساء قال تعالى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٢).

فالعدل فى القسمة والنفقة ممكن مستطاع، أما الميل العاطفى والرغبة فى المباشرة الزوجية والحظ القلبى فلا يلزم الشخص بتحقيق العدل فيه، أما تجاوز حدود العدالة فى الحقوق التى يمكن توجيهها والتحكم فيها فظلم بين على المرأة التى تجد نفسها كالمعلقة ، فلا هى مطلقة ولا ذات زوج.

٣- الاستطاعة فى تغيير المنكر:

لقد كثر الحديث عن تغيير المنكر، وزاد الاختلاف حول هذه القضية مع أنها مرتبطة بالاستطاعة بصريح حديث الرسول، فعن

---

(١) النساء ٢٥ .
(٢) النساء ١٢٩ .

أبىسعيد الخدرى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"(١).

فلابد أن يكون التغيير خاضعا للاستطاعة التى يملكها الفرد أو الجماعة، وترتبط بالرغبة فى التغيير أو باللسان لما فيهما من المجاهرة أو التصدى للقائمين بفعل المنكر، فلربما استجابوا لرغبة من يمنعونهم باليد أو يوجهونهم باللسان، وربما تصدوا لهم فيحدث ما لا تحمد عقباه، ومن هنا كان التغيير مرتبطا بالاستطاعة، وهى القوة الفعالة والمؤثرة مثل قوة الأب أو ولى الأمر على الأبناء أو من يأتمرون بأمره.

أما المنكر فلابد من الإجماع عليه فلا يكون أمرا محل اختلاف يتطرق الشك إلى الحكم على إنكاره، وأن يكون ظاهرا واضحا لا يحتاج إلى تحايل وتجسس فى بيانه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ (٢).

ولا شك فى أن التغيير واجب ، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (٣).

---

(١) رواه مسلم وبعض أصحاب السنن.
(٢) الحجرات ١٢ .
(٣) آل عمران ١٠٤ .

ولكنه فرض كفاية إذا قام به البعض سقط فرض القيام بـــه عـــن الأخرين، وهذا واضح من التعبير بكلمة منكم فى الآية السابقة، وفـــى حديث الرسول ﷺ عن التغيير أيضا، ولابد كذلك أن يسبق النهى عـــن المنكر بالدعوة الصريحة إلى الأمر بالمعروف الذى ينهض به العلماء الفاهمون للكتاب والسنة فهما صحيحا وألا يترتب على تغيير المنكـــر ضرر أكبر يلحق بالفرد أو الجماعة، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، ولا يقدر على تغيير المنكـــر ومنـــع أضـــراره والتعـــدى لمرتكبيه ــ بدرجة كبيرة ــ إلا الرجال المكلفون بحماية الأمة، وبعض أولى الأمر ممن لهم سلطان وولاية علـــى مـــن يـــأتمرون بـــأمرهم ويخضعون لتوجيهاتهم .

أما التغيير بالقلب فهو فى استطاعة الكثيرين، ويكون فى صورة شهادة يبلغها الشخص إلـــى المســـئولين، قـــال تعـــالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ (١).

وقد يكون التغيير بالقلب فى صورة مقاطعة ورفض لما يقوم بـــه مرتكب المنكر ؛حتى يشعر بأن الناس كلهم يقاطعونـــه ، فيرجـــع إلـــى صوابه ويعود إلى رشده.

وقد قيل باستثناء بعض الفئات من اشتراطات وجـــوب اســـتعمال التغيير فى حقها، مثل الأب والأم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا

---

(١) البقرة ٢٨٣ .

تَنْهَرْهُمَا ﴾ (١) وكذلك غير المسلم لقوله تعـالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) وقولـه : ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ (٣) كما تجب الفطنة والتبصر عند مواجهة الحاكم إذا مارس المنكر، لقوله: "ومن أهان سلطان الله في الدنيا أهانـه الله يـوم القيامة"(٤) وكذلك الزوج بالنسبة للزوجة.

فالاحتكام إلى الاستطاعة عند تغيير المنكر، والنهى عنه، تشريع ثابت فى القرآن الكريم والسنة النبوية، ولا ينبغى الجدل والاختلاف فى كل أمر واضح جلى.

٤ـ أنواع أخرى من الاستطاعة :

لا شك فى أن الاستطاعة معيار يكشف عن تيسير الأحكـام فـى التشريع الإسلامى، وأن تجاهلها وإغفالها لا يـدم إلا دعـاة التشـدد والمبالغة والتعسير والإفراط فى فهم الإسلام، فقد بين القرآن الكـريم الاستطاعة فى أمور يظن البعض أنها بعيدة عن مقدرة الإنسـان مثـل التقوى التى ارتبطت بأقصى حدود الاستطاعة، قال تعـالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ (٥).

---

(١) الإسراء / ٢٣ .
(٢) يونس ٩٩ .
(٣) البقرة ٢٥٦ .
(٤) رواه الترمذى وابن حنبل.
(٥) التغابن ١٦ .

ولا يقتصر الأخذ بالاستطاعة على الحج، وإنما تراعى فى سائر العبادات كالصلاة والزكاة وغيرها، ففى الصلاة مثلا يباح للشخص أن يصلى قاعدا أو مضطجعا أو على جنب ما دام غير قادر على القيام، قال ﷺ : "صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب"[١] وقال : "إذا لم يستطع المريض السجو. أومأ برأسه إيماء"[٢].

كما يكون الإصلاح بين الناس فى حدود الاستطاعة أيضا قال تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [٣].

وكذلك الاستعداد للجهاد ، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [٤] وتراعى الاستطاعة فى الكفارات، قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [٥] وذلك بعد العجز فى كفارة الظهار عن تحرير رقبة، وعن صيام شهرين متتابعين .

وكذلك لابد من تحقيق القدرة والاستطاعة فى إملاء الدين، فإذا عجز المدين عن إملائه قام به وليه بالعدل قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [٦].

---

(١) البخارى .
(٢) رواه مالك فى الموطأ .
(٣) هود ٨٨ .
(٤) الأنفال ٦٠ .
(٥) المجادلة ٤ .
(٦) البقرة ٢٨٢ .

ونبه الإسلام إلى ضـــرورة مراعـــاة الاســـتطاعة فـــى بعـــض التصرفات أو السلوكيات التى ينفر الناس منها مثل التثاؤب، قـــال ﷺ : "وإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع"[١].

وفى الحديث : "وكان ﷺ يحب التيمن ما استطاع فـــى شـــأنه"[٢] فالأعمال المنفرة ينبغى مجافاتها والاحتراس منها قدر الاستطاعة .

فالحديث عن الاستطاعة فى القـــرآن والســـنة متعـــدد وملائـــم للفروض والأحكام، ويدل على يسر الإسلام وسماحته، ونبـــذه للتشـــدد والتطرف، والله يقول الحق ويهدى إلى سواء السبيل.

---

(١) مسند ابن حنبل.
(٢) رواه أبو داود والنسائى .

الإساءة إلى الرسول ﷺ فى صحيفة بالدنمارك

نشرت صحيفة بولاندز بوستن الدنماركية فى الثلاثين من سبتمبر عام ٢٠٠٥م اثنى عشر رسما كاريكاتوريا تسيىء إلى الرسول ﷺ ثــم أعادت الصحيفة فى يناير ٢٠٠٦م نشر هذه الرســوم، كمــا نشــرتها صحيفة نرويجية، واشتد غضب المسلمين لذلك ، ولــم يقتنــع ســائر العلماء والمفكرين بدعوى البراءة من الإساءة إلى الرسول، وأنه كــان ادعاء بالحق الذى يعتمد على القول بحرية الرأى والتعبير، ولما عــم الرفض معظم دول العالم الإسلامى دخلت صحف أوربية أخرى ساحة هذا الصدام، فنشرت هذه الرسوم تأكيدا للقول بالحجة المذكورة، وقــد رفضت الصحيفة المذكورة الاعتذار عن الإساءة كما رفضتها الحكومة الدنماركية، وكثير من حكومات الدول التى نشرت الرســوم بصــحف تابعة لها.

بعد أن زادت حدت المقاطعــة لمنتجــات الــدنمارك ، وعمــت المظاهرات سائر البلاد الإسلامية تغير الموقف من رفض الاعتذار إلى قبوله وإحياء الدعوة إلى الحوار بين الشرق والغرب، بل إن المقاطعة لم تقتصر على منتجات الدول الدنماركية، وإنما امتدت إلى سائر الدول المشاركة فى تضخيم الأزمة، على أن الإساءة فى أساسها لم تكن نابعة من الجهل بالدين، وإنما كانت فى حقيقة الأمر تشويها متعمدا ومقصودا للإساءة إلى الإسلام، مع ضرورة الفصل بين حرية الرأى، والإســاءة لشخصية سيدنا محمد ﷺ ، وقد حدثت تداعيات خطيرة علــى الســلام

العالمى خاصة أن بلاد جنوب شرق آسيا كانت كارهة لهذا الازدراء بصورة كبيرة ورافضة أى اعتذار عابر لا قيمة له، ولا يمثل شيئا أو تغييرا للمواقف على ساحة الواقع، وفى غمرة هذه الموجة المستفزة من بعض الصحف الغربية، والرد عليها من معظم الدول الإسلامية ردا علميا بالمقاطعة ، واحتجاجيا بالمظاهرات التى نجمت عنها تداعيات خطيرة ، فقد نشرت الجريدة الدنماركية بصلف وغرور أنها سوف تنشر الرسوم فى كتاب، وأن جماعات الكارهين للحوار بين الشرق والغرب قد أعلنوا أنهم سيقومون بمظاهرات تتجلى فيها الإساءة إلى القرآن الكريم، أما الشيىء المثير للعجب ما أعلنه وزير فى الحكومة الإيطالية من أنه سينشر الصور على قمصان توزع بالمجان ، وقد فعل ذلك فلبس قميصا به صور الرسوم، وقامت على إثر ذلك مظاهرات صاخبة فى ليبيا أسفرت عن إحراق السفارة الإيطالية فى بنغازى، وقتل فى هذه المظاهرات ستة أشخاص، أو يزيد عن ذلك، ولما تبين للحكومة الإيطالية تطرف هذا الوزير ، والذى ترتبت على ما قام به آثار سيئة للغاية لعلاقة ليبيا بإيطاليا، فطلبت منه الاستقالة فاستقال على الفور بسبب محدد وهو إساءته للإسلام وتشجيعه على نشر هذه الرسوم، أما الشيىء الذى يثير العجب والضيق بصورة كبيرة ما حدث فى عدد من الصحف العربية والإسلامية ويبدو أن العدوى قد انتقلت إليها من الغرب وأن القائمين على إذاعتها ونشرها كانوا ضحايا لأكذوبة القول بحرية الرأى والتعبير، فقد أذيعت الرسوم فى محطة تليفزيونية بالجزائر، كما نشرتها صحيفتان بهذه الدولة العربية

المسلمة، وتم مجازاة القائمين على أمر المحطة، وسجن مديرى تحرير الصحيفتين، كما نشرتها ثلاث صحف باليمن، وتمت أيضا مجازاة القائمين على تحريرها، كما نشرتها صحيفة [دى ستار] الماليزية، وقد قام آلاف الغاضبين بمنع طائرة وزير دفاع النرويج من الهبوط فى جنوب السودان تعبيرا عن الاحتجاج والرفض للتطرف الغربى، وعلى الجانب الآخر فقد بدأ الغرب فى تغيير مواقفهم لتهدئة الأوضاع فى الدول الإسلامية وأخذ الكثيرون من رؤساء الدول يعلنون بصوت عال رفضهم الكامل بأى شكل من الأشكال للإساءة إلى الأديان، وقد قام [خافيير سولانا] (١) بجهد هادئ لا ينكر نحو الاعتذار الأوربى عما حدث من المتطرفين الغربيين الذين لا يمثلون إلا أنفسهم، وكذلك ما قامت به وفود الكنائس الدنماركية من رفضهم الإساءة إلى الإسلام بأى شكل من الأشكال، فضلا عن اعتذار الجريدة الدنماركية وغيرها من الصحف التى حذت حذوها .

والآن(٢) قد بدأت الأمور تتجه نحو الهدوء من نواح متعددة خاصة من المفكرين والساسة الغربيين، ومن العلماء البارزين المعتدلين فى الساحة الأوربية .

إن هذه الأزمة بكل تداعياتها صورة من صور الصراع بين الشرق والغرب، وأنها تمثل فى معظم جوانبها شكلا سيئا من أشكال

---

(١) خافيير سولانا هو الممثل الأعلى للسياسة الخارجية والأمنية بالاتحاد الأوربى فى الوقت الراهن فبراير ٢٠٠٦م .

(٢)آخر فبراير عام ٢٠٠٦م .

الاستهانة بالدين الإسلامى، وقد كانت الحروب الصليبية إحـدى هـذه الحلقات التى لم تسفر عن شيىء نافع مفيد للإنسانية، ولم تـتمخض إلا عن مئات الألوف من القتلى الذين ذهبوا ضحية لتهور بعـض القـادة والساسة الذين كانوا يتوجهون فى سـلوكياتهم تحـت شـعار الـدين، ولحماية بيت المقدس ، وهم فى ذلك غافلون كارهون للإسلام، لأن هذا الدين مبنى على السماحة والدعوة إلى الخير والمحبة والأمـان، لكـن الحوار أخذ ينمو بصورة كبيرة فى القرنين السابقين مما شـجع علـى زيادة الأمل فى تغيير المواقف الأوربية، وإنارة العقول المتشددة فـى الغرب مما يعلوها من صدأ يجعلها فى غيبة عـن متطلبـات الواقـع وطموحات المستقبل، كما أن هذا التوجه الغربى كان يجذبه إلى الخلف زيادة الهجرة من بلدان الشرق إلى الـدول الغربيـة، وقيـام هـؤلاء المهاجرين المسلمين بالمطالبة بحقوقهم فى الحرية والعمل والمعاملـة بمثل ما تعامل به الأقليات الأخرى .

فقامت بعض الدول الغربية فى السنوات الأخيرة بإشعال نيـران الفتنة فى المجتمع الغربى فإذا بالعلاقات تتحرك نحو السوء والحوادث على ذلك كثيرة مثل تفجير القطارات فى مدريد التى سقط فيها عدد من الضحايا ، واغتيال مخرج هولندى شهير على يد شاب مغربـى ثـار على ما رآه هجوما واعتداء على بعض الرموز والقيم الإسلامية فـى (فيلم) لهذا المخرج.

وأحدث التشريع الفرنسى احتقانا شديدا فى العلاقات العربية الإسلامية، عندما قرر منع ارتداء الفتيات المسلمات الحجاب فى المدارس الفرنسية العامة، وفى معظم هذه الأمور كان المهاجرون العرب والمسلمون يدخلون كطرف مباشر أو غير مباشر للأزمات المتصاعدة فى العديد من الدول الأوربية، ثم كانت الرسوم المسيئة للرسول لتحدث الأزمة التى لم تظهر على الساحة العربية الإسلامية من بعد نهاية الاستعمار الأوربى لبلدان الشرق مما جعل الرفض يشتد بصورة لم تكن متوقعة؛ إذ أنه من الملاحظ تجمع الدول الإسلامية على رفض الإساءة للرسول بصورة لم تكن لتحدث فى أمر آخر من خلال الدعوة العادلة للفصل التام بين حرية الرأى والتعبير، والإساءة إلى الإسلام.

إن هذه الاعتراضات وممارسة الاحتجاجات، كانت تصرفا مطلوبا حتى ينزل الفكر الغربى من عليائه ويقر إقرارا تاما بأن الساحة ليست خالصة لهم، وأن العلمانية لا تفرض بالقوة ولا بالتطرف والإرهاب المدعوم من الأنظمة الحاكمة لكننا نطالب فى الوقت نفسه أن يكون ذلك بأسلوب حضارى خال من التدمير والعنف لا يمثل اعتداء على الأنفس ولا على الممتلكات، وإنما يمكن أن يمتد إلى المقاومة الاقتصادية، والتى تتجلى فى رفض البضائع المستوردة من الدول الداعمة للتطرف، وتوظيف الفكر لمحاربة الأديان، وقد أسهم بدرجة كبيرة فى إشعال نيران الفتنة اليمين الأوربى المتطرف الذى كان ولا يزال راغبا ومشجعا لتأجيج نيران الكراهية فى صدور

المواطنين الأصليين فى مواجهة القلة الإسلامية المهاجرة إلى أوربا الذين أصبحوا فى ظل الأحداث الأخيرة ـ ومن قبلها أيضا ـ لقمة غير مستساغة فى حلق المواطنين الأصليين، حتى تسوء العلاقة أكثر مع الشرق، هؤلاء الذين لا يرضيهم ولا يسعدهم أى تقارب مع البلاد الإسلامية ، وإن القول بحرية الرأى والتعبير لم تكن مشجبا تعلق عليه النوايا السيئة.

إن الدعوة إلى الحوار لابد أن تكون هدفا صادقا نحو استئصال هذه الفتنة وغيرها مما يمكن أن ينمو على سطح العلاقة بين الشرق والغرب بدلا من الصدام العنيف الذى يولد الكراهية عند معظم البلدان فى دول العالم على اختلاف توجهاتها وميولها ومذاهبها السياسية والفكرية والدينية، ذلك أن اليمين المتطرف الذى أشرنا إليه يخوض معركة تحت ظلال الكراهية مع الحكومات المعتدلة فى بلاده، وذلك بالرغبة المستمرة فى استفزاز المسلمين والغرب على السواء لإدراك أن ردود الأفعال العنيفة من الدول العربية والإسلامية ضد الحكومات الأوربية سوف تعزز مواقفه أى أن اليمين المتطرف والمتشدد يسعى لتحجيم دور المسلمين العرب الذين حصلوا على مكاسب عديدة لم تنل رضا وقبولا من المتشددين الأوربيين، وإذا ما استوعبنا كل ذلك بصورة كبيرة فسوف نصل إلى رؤية واضحة حول تفويت الفرصة على هؤلاء السياسيين من أهل التطرف والتشدد الذين يرون أهمية فى ضرب المصالح العربية فى الغرب، وتقطيع وسائل الاتصال بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية، ولذلك ينبغى أن يكون تعاملنا

فى هذه الأزمة مبنيا على تفهم أبعاد الموقف من كافة صوره، وألا نحول الرفض للرسوم إلى ممارسة قتل النفوس الأوربية البريئة وغير البريئة، خاصة أن ذلك لم يغير من الأمر كثيرا على الجانب الآخر، بل إنه سيزيد من حدة الكراهية للإسلام، وتأكيد تصويره على أنه دين يحض على العنف، ويشجع على الإرهاب بصورة نظرية وتطبيقية.

ومن سوء الفهم أن كثيرا من المسلمين يتحولون بمعتقداتهم من حيز الممارسة المبنية على المودة والتسامح إلى نطاق التعامل بالعنف الدموى مما يجعل الخطاب الإسلامى فى صورة مشوهة وغير حقيقية.

هل كان يمكن الاستماع إلى دعوة التسامح والحوار فى هذا الموقف قبل التحول إلى الاعتذار بصورة معلنة من الكثيرين؟

لا نعتقد أن الدعوة إلى الحب والتسامح والحوار الهادئ لم تكن لتجدى نفعا وحلا لهذا الموقف بما فيه من سرء لو لم تقم المظاهرات والمقاطعة فى معظم البلدان العربية والإسلامية، فالمقاطعة مع المظاهرات حولت الساسة الأوربيين من الصمت التام والتجاهل لكل معاناة البلاد الإسلامية إلى الفعل الإيجابى والحركة الدائبة فى البلدان الإسلامية، ذلك أن الحرص على تنمية الحو ر بين الحضارات فى الوقت المناسب يعد محاولة لتهدئة الأوضاع وزيادة التقارب ورفض الصدام بحاجتنا إلى الغرب وحاجته إلينا فى ظل المصالح المشتركة مع رفض الدعوة إلى تعميم العولمة بالأسلوب القهرى ، وأن الاعتذار عن

هذا السلوك المشين من الصحيفة الدنماركية وغيرها ، ومن المسئولين الغربيين لابد أن يكون مطلبا لا يمكن تجاهله، وتقليل دوره.

إن وضع قانون دولى تحت مظلة هيئة الأمم المتحدة لاحترام الأديان ينبغى أن يكون هو الحل الذى يعالج أمثال هذه المشكلة وغيرها مما يمكن أن ينجم فى المستقبل من مشكلات مماثلة، على أن ينص فيه على العقوبات المناسبة، وتخول الأمم المتحدة فى تنفيذ ذلك بعد التأكد من الإساءة وعدم تقدير الشخصيات الدينية .

يجب أن نعرف الغرب بالإسلام تعريفا منصفا يكشف عن حقيقته وجوهره، وتأكيد أنه دين ينبذ العنف والكراهية والإساءة للآخرين، وذلك بالنشر فى الصفحات التى يمكن الإعلان فيها عن هذا الغرض ويختار له الأساتذة المتخصصون فى هذا المجال ممن عاشوا فى الغرب، وتفهموا الطريقة المجدية فى مخاطبته والتعامل معه، أو أن توظف قناة فضائية خاصة بالدين الإسلامى؛ لتكون منبرا للرد على أى اتهام يوجه له، وحتى تكون منبرا للتعريف بالقرآن الكريم والسنة النبوية بما يعطى الإسلام شكله وجوهره الذى يعبر عنه، وليس كما يعبر عنه بتصرفات القلة الجاهلة التى تسيىء إليه أكثر مما تفيده.

لابد من تفعيل وتوجيه التحرك الإسلامى المنظم من خلال منظمة المؤتمر الإسلامى، وذلك بالدعوة إلى رفض ازدراء الأديان، وتأكيد أن الحرية الدينية لا تكون على حساب إيذاء المشاعر الدينية.

إن الأقليات المسلمة فى البلاد الأوربية التى هاجرت إليها وعاشت فيها فى حاجة إلى من يساندها بكل الصور الممكنة، وليس بالبيانات التى ترفض أو تشجب ثم تموت فى مهدها، وقد تألمت كثيرا لما ذكره إمام المركز الإسلامى بالدنمارك إذ قال لا يوجد إلا مسجد واحد فى هذه البلاد بنى فى عام ١٩٥٦م وهو تابع للطائفة الأحمدية ومن أيامها إلى الآن لم تتم إقامة أى مسجد آخر فيضطر المسلمون إلى الصلاة فى البيوت أو فى الأماكن الضيقة المغلقة التى لا تقوم بما يقوم به المسجد من دور دينى واجتماعى، فلا يليق بنا أن نترك المسلمين فى أوربا دون أن نقدم لهم يد العون، والمساعدة فى وقت أصبح العالم فى حاجة إلى التقارب والتجميع بين أصحاب المعتقدات والمذاهب السياسية والفكرية، فلا يليق أن نعظ أنفسنا وأن ننصرف فى خطابنا الدينى إلى توجيه الآخرين، والتعريف بالإسلام، وضرورة تغيير الفكر الدينى بما يفيد الإنسانية فى عالمها المتغير الذى لا يثبت على حال ، فى الوقت الذى نترك فيه الأقليات المسلمة بالدول الأوربية وحيدة فريدة فى ميدان الكلمة الهادئة للتعريف بالإسلام، وقد كانت أزماتهم شديدة وعنيفة من يوم أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م وحتى الآن والمواقف لا تتغير، والكراهية تنمو خاصة فى صدور المتشددين الغربيين الذين يلقون التأييد والدعم الفكرى والمادى من الساسة المتقلبين الذين لا يثبتون على حال.

كما نقر أيضا أن بعض الغربيين قد أعدوا مؤلفات عن الرسول وكتبوا عن الإسلام كتابات منصفة تنم عن البراءة وإقرار ما فى هذا الدين من دعوة إلى المحبة والأمن والسلام.

مظاهر الفرقة والخلاف بين المسلمين

استاءت جموع المسلمين العارفين بدينهم الصادقين فى إيمانهم من تصرفات بعض الشباب الذين ينسبون للأسف الشديد – إلى الإسلام، حيث قاموا بمجموعة من الأفعال الأجرامية التى يعاقبون عليها بحكم القانون الإسلامى وبحكم القانون الوضعى، وذلك مثل الاستيلاء على المجوهرات من محلات الذهب، والاعتداء على بعض الأفواج السياحية وتخريب المرافق، والاعتداء على بعض الأفراد من أصحاب الرأى والفكر، وأسهم ذلك فى ترديد ما يقوله خصوم الإسلام من أنه دين يشجع على الإرهاب ويدعو إليه ٠

وسعد الناس كثيرا أن خفت هذه الاعتداءات، وإن كان ظهورها يتجلى بين حين وآخر فى سائر أنحاء الوطن٠

ولقد أكد كثير من العلماء للناس فى أماكن كثيرة على سطح الأرض أن هذه التصرفات ليست من أخلاق الإسلام، ولا يعبر هؤلاء المنحرفون عن الشريعة الغراء، إذ أن أفعالهم تندرج فى نطاق التصرفات الفردية ٠

ولقد صار التطرف والخروج على الشرعية مرتبطا بشباب المسلمين لأسباب كثيرة يرجع بعضها إلى الظروف الخاصة بكل مجتمع، فالتطرف من هذه الجماعات ليس قاصرا عليها وحدها وإنما يمتد بآثاره وسلبياته إلى نطاقات أوسع من دول العالم مثل أمريكا وإيطاليا وألمانيا واليابان وغيرها ٠

وهناك يرتكز على الجنسية أو اللغة أو الميول المشتركة أو التصرفات الشاذة التى لا ترتبط بالأخلاق والمعانى الإنسانية النبيلة، أما فى العالم العربى أو الإسلامى فينتسب إلى الدين، خاصة أن هذه فى السنوات الأخيرة جاءت مواكبة للصحوة الإسلامية بما فيها من نشاطات وأعمال جماعية للبر والخير والفكر الإيجابى المعتدل، كما فشل كثير من شباب العرب والمسلمين فى الوصول بآرائهم إلى الحاكمين وأصحاب الرأى المؤثر فى الحياة السياسية، ولم يكن الحوار مع كبار العلماء والمفكرين مثمرا فبدأوا فى الهروب من الأضواء والعمل بهمة ونشاط بما يخدم توجههم الإنسانى إلى أن صارت تصرفاتهم موضعا للشك والارتياب وهكذا شأن كثير من المجتمعات فى ظل الأزمات المعاصرة التى يعانى منها الجيل الجديد مثل البطالة وظهور طبقة فريدة من أصحاب الأموال، وزيادة سبل الاتصالات بين بلدان العالم ، وكان من نتيجة ذلك ظهور جماعات متدينة متشددة، وأخرى ضالة منحلة ، والأكثرية بعد ذلك تسير فى وضح النهار تحت راية التوسط والاعتدال.

والتدين هو الإيمان والعمل بالدين بما يشمله من عقائد ومعاملات وعبادات ويوصف الاعتدال فيه بالتوسط قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (١).

(١) البقرة ١٤٣ .

أما التطرف فهو الابتعاد عن الوسط، والأخذ بالآراء المتشــددة، وإن كان فى مجال الفكر المحدود والتطبيق الضيق فخطورته أخـف، أما إذا تجاوز صاحبه حدود نفسه وحاول إلزام الآخرين بصحته قسرا وقهرا فإن الأمر يصبح جرما خطيرا يتعارض مع سماحة الإسلام٠

وقال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ (١).

والإرهاب : "كل استخدام للقوة أو العنف أو التهديد أو الترويـع يلجأ إليه الجانى تنفيذا لمشروع إجرامى فردى أو جماعى، إذا كان من شأن ذلك إيذاء الأشخاص أو إلقاء الرعب بينهم، أو تعريض حيـاتهم، أو حرياتهم، أو أمنهم للخطر"(٢).

والذين يمارسون الإرهاب ضد النظام أو الأمة بمـن فيهـا مـن طوائف وجماعات، وضد أية أنظمة خارجية ينقسـمون إلـى قسـمين رئيسيين:

١ – القادة أو الأمراء وهم من أنصاف المتعلمـين، ويملكـون مقدرة عجيبة على التأثير فى الآخرين الذين يقلون عنهم ثقافة، ويـدفع هؤلاء القادة تابعيهم إلى الإرهـاب الخفـى أو العلنـى ، ويرفضـون الحوار، ويظهرون فى أحوال وهم أبعد ما يكونـون عـن الإرهـاب والتطرف ، ويكتسبون ثقة من يتعامل معهم لما يقومون به من أفعـال خيرة خاصة فى البيئات الشعبية والفقيرة٠

---

(١) البقرة ٢٥٦ ٠
(٢) عن القانون ٩٧ لسنة ١٩٩٢م (قانون الإرهاب)٠

٢ – أما التابعون لهؤلاء القادة فهم ذوو ثقافة محدودة لا يستطيعون بها مناقشة الأمراء، وبعض هؤلاء من الأميين أو الفاشلين فى التعلم أو المرتزقة الذين يحتاجون إلى المال لصرفه على ملذاتهم وشهواتهم، والحياة ليست غالية عليهم، ولذلك يقدمون على قتل أنفسهم بقتل الآخرين.

إن الإسلام لا يقر العنف، ولا يدعو إلى الإرهاب وهو برئ من كل ذلك كما أنه يحترم أهل الأديان الأخرى قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (١).

ثم إن الاعتداء على الأجانب يتعارض مع العهد والأمان الذى أقرته الدولة بسماحها وإذنها لهم بالدخول إليها، وهذا العهد حق ثابت فى الشريعة الإسلامية، وقد اتبعه الرسول فى حياته مع بعض الطوائف من أهل الكتاب، إذ تعاهد مع اليهود فى المدينة ومع مشركى مكة فى الحديبية، وسار الصحابة رضوان الله عليهم على هذا المنهاج فى حياته وبعد مماته، فما لنا نأتى الآن، ونعتدى على الزائرين من أهل الأديان الأخرى وغيرهم، وكأننا نعطيهم إذنا أو مبررا للانصراف عنا وعدم التعامل معنا، والتعرف على عاداتنا وتقاليدنا وماضينا وحاضرنا وندفعهم للاعتداء على الأقليات المسلمة التى تعيش فى أوطانهم.

---

(١) الكافرون ٦ .

لقد دعا الإسلام إلى التواصل والتعارف بين الشعوب، وحض على السير في الأرض والبحث عن الرزق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ (٢).

وقال الشيخ محمد الغزالى رحمه الله : "إن السائح ضيف ورجل غريب عن بلادنا ومن حقه علينا أن نحفظ دمه وماله وعرضه" (٣).

وما ذنب أى زائر أجنبى للوطن إذا كان هؤلاء المتشددون يقصدون ضرب النظام السياسى أو عزل نظام الحكم، ثم إن إرادة التغيير، تبدأ فى التشريع الإسلامى بالرفق واللين والكلمة الطيبة، وما على الهيئات الحاكمة إلا أن تستمع للرأى الآخر والحوار الهادئ من خلال أبناء الأمة مباشرة أو من خلال ممثليهم المختارين بنزاهة وصدق ليسفر كل ذلك عن إحلال الرفق محل العنف.

قال رسول الله ﷺ : "إن الرفق لا يكون فى شيىء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه" (٤).

---

(١) الحجرات ١٣ .
(٢) غافر ٢١ .
(٣) انظر جريدة اللواء الإسلامي العدد ٥٦٤ فى الثانى عشر من نوفمبر عام ١٩٩٢م ، وارجع ص ١٧٨ من هذا الكتاب.
(٤) رواه مسلم .

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ...﴾ (١).

وقـــال : ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (٢).

ونؤكد أن الاعتداء على غير أبناء الـوطن يـؤذى الإسـلام ولا يفيده، وهو يقوى الفكرة ويشـعل الفتنـة التـى يرددهـا الكـارهون الحاقدون من أن الإسلام دين العنف والتطرف والإرهاب، وإذا كانت هذه الرؤيا بالغة السوء سيئة التأثير فإننا نحن الذين نقدم هذا الانطبـاع الظالم لمروجيه، ولا يصح لأحد أن يتفهم أخلاق الإسلام وسماحته عن طريق بعض الغلاة والمتشددين الذين ينظرون لأهل الأديان السـماوية على أنهم أعداء لا يجوز التعامل معهم ــ وهذا خطأ ــ إن علينـا ألا نثق فى دعاوى هؤلاء الأميين فى دينهم، وألا نثق فى صدق معتقداتهم، وعلينا أن نلتزم بما اتفقنا عليه معهم، وألا نلحق بهم أضرارا ما داموا لم يعتدوا علينا .

---

(١) سورة التوبة ٦ .
(٢) الممتحنة ٨، ٩ .

وقد خاطب القرآن الكريم أهل الكتاب فنهاهم عن الغلو والتشـــدد أيضا فقـــال تعـــالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (١).

إن أحكام الإسلام وقوانينه ظاهرة لكل راغب لمعرفـــة مجالاتـــه الرحبة الفسيحة من حيث العلاقة بين أهله وأهل الأديان الأخرى؛ لذلك فهؤلاء المتشددون لا يعبرون إلا عن معتقداتهم الضالة التى يكفـــرون بها شرائح من المجتمع أو يفرضون آراءهم بالقوة أو القهر.

والتاريخ الإسلامى مليىء بالمواقف المختلفة والحالات المتعـــددة للتسامح والعفو، والدعوة إلى الله بالكلمة الهادئة والأسلوب الهادف ونبذ الخلاف والعنف وهو دين ليس حكرا على أحد ، وليس فيه رجال دين (كهنوت) بل به علماء ومفكرون متخصصون فى أحكام الدين.

إننا لا ندافع عن تجاوزات ترتكب تحت رايـــة نظـــام أو حكـــم، ونشفق فى الوقت نفسه على كثير من الأجيال الجديـــدة التـــى ضـــلت الطريق، وفهمت أن الصواب هو الجهاد ضد الدولة، وتكفير المجتمـــع والهجرة منه ريثما تتغير أحواله من أجل العودة إليه.

ونؤكد من واقع ما نطلع عليه وما نشاهده ونسمعه فى الوســـائل الإعلامية المختلفة، ومن خلال البيئة التى نحيا فيها أن الكثيرين مـــن

---

(١) المائدة ٧٧ .

الشباب المتدين الملتزم بخير ، وليسوا قتلة ولا سفاكى دماء، وأن الجماعة المتشددة لا تعبر عنهم، ولذلك وجب التفريق بينهم؛ لأن الشباب الملتزم يمثل الأغلبية وهو الذى يحفظ القرآن الكريم ويعمل به ويلتزم بالسنة ويدعو إليها ويسعى للعمل ، وبذل الجهد فى مجاله، ويؤمن بأن دينه هو دين الفطرة كما قال الله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وقال: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (٢).

وقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (٣).

فهذه الآيات تؤكد ضرورة الالتزام بالحوار الهادف والدعوة إلى الله بالحسنى، ونبذ التشدد والتطرف والعنف، والتعامل مع الآخرين بأخلاق الإسلام التى ينبغى أن تكون ظاهرة واضحة لنا ولغيرنا، حتى نبدل الصورة التى ألصقت بقصد أو بدون قصد بديننا الإسلامى، والله يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه.

---

(١) سورة الروم ٣٠ .
(٢) سورة آل عمران ١٥٩ .
(٣) النحل ١٢٥ .

الحياة الإسلامية بين الاعتدال والتطرف

قدم الدكتور/ يوسف القرضاوى للمكتبة العربية كتابا متميزا يمكن أن يكون معبرا عن الحالة التى تعانى منها الصحوة الإسلامية فى السنوات الثلاثين الماضية، ولذلك فإننى عندما أبدأ فى كتابة هذا الموضوع أرى نفسى مدينا بالكثير للشيخ القرضاوى وكتابه [الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف].

١ ـ مفهوم التطرف:

التطرف: الوقوف فى الطرف بعيدا عن الوسط، ......، وانتقل إلى المعنويات كالتطرف فى الدين أو الفكر أو السلوك"[١].

والتطرف يختلف عن الجريمة أو الإرهاب؛ لأنه عبارة عن اتجاه فى الفهم والتناول للنصوص المكتوبة، والعادات المتبعة فى سائر مناحى الحياة ،ويخالف هذا الاتجاه ما سار عليه أكثر الناس واقتنعوا به وارتضوه لأنفسهم، وخاطبوا الآخرين على أساسه.

ويبرز التطرف فى المذاهب السياسية والفكرية والاجتماعية لكن خطره شديد جدا إذا تمثل فى التطرف الدينى .. لماذا؟ لأن الفرد يبدأ متدينا، ثم يتجه إلى التشدد مع نفسه، ويواصل مسيرته إلى أن يصدر أحكاما قاطعة بالإدانة على من لا يتابعه فى مسيرته"[٢].

---

(١) انظر الصحوة الإسلامية للدكتور/ يوسف القرضاوى صـ٢٣ .
(٢) انظر حوار لا مواجهة للدكتور/ أحمد كمال أبىالمجد صـ٥٢ .

وأكثر الذين يكتبون عن هذا الموضوع ويتحاورون فيه يسارعون إلى وضع التطرف فى قفص الاتهام، وربما عجـز المتشـددون فـى الدفاع عن أنفسهم وشرح آرائهم ؛ لأن الطرف الآخر وهـو السـلطة أقوى منهم، وركب الموجة كثيرون ، وأنكروا هذا السلوك على الشباب دون أن ينكروا على أنفسهم التفريط والتسيب.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده .:. ولا الصـبابة إلا مـن يعانيهـا

وألصقت بالشباب تهم كثيرة، وحملوا أوزارا عظيمة، وخاضـت أقلام مختلفة فى هذا الموضوع بغير علم ولا هدى ولا كتـاب منيـر، وإنما بكراهية حمقاء وشعارات سوداء، وكان عدد المدافعين من أهـل العلم بالإسلام قليلا .

وأخذ بعض العلماء المجاهدين يصرخ للناس قائلا:

"إننا نطالب الشباب بالاعتدال والحكمة والعدول عـن التطـرف والتشدد، ولا نطالب الشيوخ والكبار أن يطهروا أنفسهم مـن النفـاق وألسنتهم من الكذب وحياتهم من الغش وأعمالهم من التناقض ... يجب أن نكون شجعانا، ونعترف بأن كثيرا من تصرفاتنا هى التى دفعت هذا الشباب دفعا إلى ما نسميه التطرف، فنحن ندعى الإسلام ولا نعمل به، ونقرأ القرآن ولا نطبق أحكامه، ونزعم حب الرسول ولا نتبع سـنته، ونسجل فى دساتيرنا أن دين الدولة هو الإسلام ولكننا لا نعطيه حقه فى الحكم والتشريع والتوجيه"[1].

---

(١) الصحوة الإسلامية للدكتور/ يوسف القرضاوى صـ١٨ .

٢ـ التطرف له جذور عميقة:

إن التشدد في الرأى والتطرف فى السلوك له جذور عميقة فـــى التاريخ الإسلامى وغير الإسلامى، ولم يظهر دين أو مذهب أو نظـــام إلا كان من بين أنصاره متطرفون ومعتدلون، ثم ينمو نظرا للتشجيع أو التعاطف مع دعاته، وهذا يحول دون رؤية الانحراف أو الشطط فـــى سلوكهم، أو فى مناهج بعضهم •

لقد بدأ الخلاف بين المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ ، وتجلى فـــى النزاع المحدود بين المهاجرين والأنصار على شخص الخليفة لرسول الله، وحسم الأمر بتحمل أبى بكر الصديق مسئولية الخلافـــة لجدارتـــه بها، ولإشارة الرسول إليه فى التوصية بأن يكون إماما للمسلمين فـــى الصلاة، ثم نامت الفتنة، وهدأت الأمور إلى أواخر عهـــد عمـــر بـــن الخطاب حيث اشتعلت نارها فى قلوب بعض العناصر الحاقدة، التى لم تكن قد آمنت بالإسلام، فقتل الخليفة عمر رضي الله عنه الذى كان نموذجا فريـــدا للعدل والرحمة•

وتولى عثمان بن عفان (ذو النورين) الخلافة وكان كبير السن، ووثق فى بعض الرجال من بنى أمية، فألب عليه ذلك بعـــض الثـــوار الطامعين فى السلطة والراغبين فى الغنائم، فحوصر رضي الله عنه فى منزله إلى أن قتل بسيوف الغدر والخيانة ، وتلطخ قميصه بدمه الزكـــى، وحمـــل معاوية بن أبىسفيان القميص إلى الشام، فزادت الثورة وانتشر الخلاف وبويع على بن أبى طالب البيعة العامة فى مسجد رسول الله صلى الله

عليه وسلم بالمدينة ، كما بايع له أهل البصرة ، وبايع له طلحة والزبير بالمدينة المنورة • وامتنع معاوية وأكثر أهل الشام وبنـو أميـة عـن البيعة حتى يؤخذ القصاص من القتلة•

ولكن عليا كرم الله وجهه طلب منهم التأنى والصبر؛ حتى تهـدأ الأمور فرفضوا ذلك، وعلا صوت الخلاف واشتد النزاع •

ووقعت أحداث حرب الجمل بين على وجيشه من ناحية وطلحـة بن عبيدالله والزبير بن العوام والسيدة عائشة وجيوشهم من ناحية ثانية وانتصر على وجيشه، وضرب الجمل الذى كانت تركبه السيدة عائشة فى عرقوبه وقتل طلحة والزبير ، وانتهت المعركة، وعـادت السـيدة عائشة إلى المدينة وذلك فى سنة ست وثلاثين مـن الهجـرة بعـد أن اطمأن عليها أمير المؤمنين على بن أبىطالب•

ثم كانت موقعة صفين حيث التقى جيش على وجيش معاوية سنة سبع وثلاثين فلم يزالوا يقتتلون بها أياما، وممن قتل فى هـذه الحـرب عمار بن ياسر وهو من أصحاب على الذى قال الرسول فـى حقـه : "تقتلك الفئة الباغية"•

ولما أوشكت الحرب أن تنتهى، ولاح النصر فيها لجند على رفع أهل الشام المصاحف على أسنة الرماح يدعون إلى الحكم بمـا جـاء فيها، وكانت تلك كما قال بعض رجال التاريخ: مكيدة من عمرو بـن العاص أشار بها على معاوية ومن كان معه،فكره الناس الحرب ودعوا إلى الصلح واختاروا حكمين للفصل فى هذا النزاع، وكان أبو موسـى

الأشعرى نائبا فى الحكم عن على كما كان عمرو بن العــاص حكمــا نائبا عن معاوية وافترق المسلمون وإن كنا نرى أن ما جرى فى هــذه الحرب [صفين] لا يخضع لروايات دقيقة من بعض المؤرخين إذ تشكك البعض فى رفع المصاحف على أسنة الرماح ،ولم يكــن عمــرو بــن العاص بالسوء الذى يخدع به أبا موسى الأشعرى، ولم يكن أبو موسى بالحالة التى يسيىء فيها التصرف، ويخطئ التقدير، ويفتقــد الأهليــة للإنابة عن على كرم الله وجهه، ورجع معاوية مــن العــراق مزهــوا بالألفة بين أهل الشام، بينما انصرف على إلــى الكوفــة بــالاختلاف والدخل فثار عليه بعض جيشه، وبرزت من هذا الجيش جماعة نــادت بقولها: لا حكم إلا الله، وسموا بالخوارج، وعسكروا فى مكان يســمى حروراء، وسموا بالحرورية أو بالشراه الذين باعوا أنفسهم فى ســبيل الله وفى هذه الأحداث تفصيلات تنم عن مآس كثيرة تمخضــت عــن أخطر شيىء هدد الأمة آنذاك وهو الخلاف الذى جعلهم شيعا وأحزابا٠

وكان من أخطر ما ووجه به على بن طالب هو انقســام جيشــه، وتمزق قوته، ومناداة الخوارج وتمســكهم بــالقول: "لا حكــم إلا لله" وتشددهم فى تفسيرها دون قبول للنقاش الهادئ، ثم دعوا إلى الهجــرة من المجتمع، وإلى مجموعة من الآراء فى الخلفاء الأربعة، ومعاويــة ابن أبىسفيان، ثم تآمرت جماعة منهم على قتل على ومعاوية وعمرو ابن العاص، وقد قتل على فى الليلة المحددة وهى السابعة عشرة مــن شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة ، بينما نجا الآخران من الموت٠

وهكذا تحول الخلاف فى الرأى إلى قتال راح ضحيته آلاف مؤلفة، ولم تتوقف المسيرة الإسلامية عن مواصلة الفتوح ونشر الدين شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، ولم تسلم مع ذلك من الجمود والتطرف، وسوء التقدير، ونعمت فى مواطن كثيرة بالهدوء والتسامح، وكانت السمة الغالبة هى التوسط والاعتدال، كما علا صوت الفكر المتشدد فى بعض الأوقات حيث كان العنف يطفو أحيانا على سطح الحياة الدينية، إلى أن كانت الحال فى القرون الأخيرة التى أخذت طابعا مختلفا عما كان عند السابقين.

٣ - أسباب التطرف الدينى :

ينشأ التطرف الدينى لأسباب متعددة، ويرجع بعضها للمجتمع والظروف المحيطة بالمتطرف، فعندما يزداد الفراغ لدى الشباب، وينقطع الحوار بينهم وبين الكبار، وتتوارى الحرية بعيدا عن الاستفادة بها وتوظيفها لخدمة الفكر والثقافة، وتسوء الظروف الاقتصادية، وتنمو الآراء الشاذة أو المتشددة، وتصير محلا للإعجاب لدى الشباب الذى لا يلبث أن يتحول إلى ناقم على الأوضاع، ورافض لآراء أهل الخبرة والاختصاص، وربما لا يكتفى بذلك فيحاول أن يفرض آراءه ومعتقداته المتشددة مع الآخرين.

إذن فهو يفسر النصوص الشرعية تفسيرا يتواكب مع هواه، أو يأخذ بآراء بعض المتشددين فى تناول هذه النصوص، ويحرص على سماع آراء الذين عرفوا بمواقفهم الرافضة للممارسات الدينية المعتدلة، ويترتب على ذلك أن يثق فى قائده أو أميره ثقة تامة، خاصة إذا كانت

معارف المتطرف محدودة أو قاصرة، ثم إن بعض أتباع الجماعات الدينية يلجأون إلى العزلة عن المجتمع؛ لما فيه ــ حسب رأيهم ــ من مفاسد؛ ولأنه يمارس فى عزلته عقيدته كما فهمها ، بعيدا عن المجتمع الذى قد يوصف بالكفر، وهذا أقصى ما يصل إليه المتطرف فى اعتقاده، لكنه قد يتحول فى نقمته إلى كراهة المجتمع، ومحاولة تغيير ما يراه من منكر بالقوة على من ليس له ولاية عليه، وعند ذلك يظهر العنف الذى يأخذ أحيانا صورة تعرف بالإرهاب.

عيوب التطرف :

تحدث الدكتور/ القرضاوى فى كتابه الصحوة الإسلامية... عن عيوب التطرف، وذكر أنه منفر وقصير العمر، ولا يخلو من جور على حقوق الآخرين.

فهو منفر لا تحتمله طبيعة البشر العادية، وقد روى أن الرسول ﷺ قال فى إحدى المناسبات لرجل يؤم الناس : "إن منكم منفرين ... من أم الناس فليتجوز، فإن خلفه الكبير والضعيف وذا الحاجة"(١).

وفى رواية أخرى قال:"إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير..وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء"(٢).

ومن التشدد محاسبة الناس على النوافل كأنها فرائض ، وعلى المكروهات كأنها محرمات مع أن الثابت أن الإسلام دين التيسير ، قال رسول الله ﷺ : "إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه"(٣).

---

(١) رواه البخارى.
(٢) رواه البخارى.
(٣) رواه البخارى والنسائى عن أبىهريرة.

وقد قال أحد الحكماء: "ما رأيت إسرافا إلا وبجانبه حق مضيع"٠

ومن مظاهر التطرف الدينى أيضا التعصب للرأى والهروب من المناقشة الجادة وهذا مخالف لنصوص الشريعة الغراء، قال رسول الله ﷺ : "يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا"(١) وجاء فى الحديث أيضا: "ما خير رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما"٠(٢)

وإذا تشدد المسلم على نفسه فله أمره، لكنه لا يقبل أن يلزم بذلك غيره من سائر المسلمين٠

ومن مظاهر التطرف ــ كما قال الدكتور/ القرضاوى فى كتابه المذكور ــ (الغلظة فى التعامل، والخشونة فى الأسلوب، والفظاظة فى الدعوة) وهذا مخالف لما جاء به كتاب الله وسنة رسول الله ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (٣).

ومن تلك المظاهر أيضا سوء الظن بالآخرين، فالمتطرف يرى فساد العبادة لدى الآخرين، ويحكم عليهم حكما متشددا ويسوء ظنه بهم،

---

(١) متفق عليه ٠
(٢) متفق عليه ٠
(٣) آل عمران ١٥٩ ٠

وهذا مخالف للحديث النبوى الذى قال فيه الرسول : "إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم"(١).

وأخطر مظاهر التطرف تكفير المجتمع وهـذا يجعلنـا نتـذكر الخوارج ــ أو جماعات منهم ــ الذين كانوا متشددين فى موقفهم مـن المجتمع الإسلامى فى زمن على بن أبى طالب وبعده ، حيـث حكـم بعضهم على المجتمع بالكفر، وخرجوا عليه، وكانوا متشـددين علـى أنفسهم فى العبادة، ولذلك لم يكونوا إجمالا كالجماعات الإرهابية [الآن] عقيدة وعملا.

٤ـ الإسلام ينبذ التطرف :

إن الإسلام دين اليسر والسماحة والتوسط والاعتدال، وإن الغلـو والتطرف والانحراف مرفوض شرعا مهما كانت الأسـباب ، فمـنهج الإسلام منهج وسط سماه الله تعالى [الصـراط المسـتقيم]، فالوسـطية إحدى الخصائص العامة للإسلام قال تعـالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (٢).

وينبغى الاحتكام إلى القرآن والسنة عند أى خلاف فى ضوء قول الله تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (٣).

---

(١) رواه مسلم .
(٢) البقرة ١٤٣ .
(٣) النساء ٥٩ .

وقوله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أى القرآن والسنة فلا ينبغى مثلا أن يتشدد المسلم ويتمسك بلبس الجلباب بدل القميص والبنطلون، أو أن يلزم المرأة بارتداء شيىء فيه خروج عن العرف ما دامت ملابسها لا تشف ولا تكشف عن مفاتنها، ولم تخالف بها ما حدده الإسلام فى هذا الأمر، أو أن يجبر أحدا بالأكل على الأرض بدل المائدة [السفرة] أو ركوب الدابة بدل الطائرة إذا صح أن بعض المتشددين يرون ذلك فلربما نقل هذا عنهم زورا وبهتانا ... وهنا ندعو دائما إلى مناقشة المتشددين فى أفكارهم وآرائهم ودعوتهم إلى التيسير بالموعظة الحسنة.

فالغلو فى الدين ظاهرة أصيب بها أتباع الأديان السابقة وكان سبب هلاكهم ودمارهم قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ (١).

ولم يفرض الإسلام الرهبانية التى توجه الإنسان للعزلة عن المجتمع وإنما دعاه إلى العمل وتعمير الأرض والسير فيها والاستمتاع بزينة الحياة.

قال تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ

---

(١) المائدة ٧٧ .

ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

ولابد فى ظلال الدعوة الإسلامية من توجيه خطابنا الدينى توجيها يتواكب مع الحياة المعاصرة بما فيها من حوار بين الحضارات، وتقدير لأصحاب الفكر الإسلامى المستنير، وطلب العلم بوعى وفهم وإدراك، حتى تتوحد كلمة العرب والمسلمين؛ تمهيدا لفتح قنوات متصلة من الحوار مع سائر دول العالم؛ لنعرف بعروبتنا وإسلامنا تعريفا صحيحا؛ وحتى تنتصر كل المعانى الإنسانية النبيلة لتحل محل التشدد والتطرف والإرهاب الذى ينمو فى العديد من المجتمعات.

---

(١) الأعراف ٣١، ٣٢ .

دروس من الزلزال

لقد ضرب زلزال شديد أرض مصر فى هذه الأيـــام[١] فســقطت العمـــارات، وتهــدمت البيــوت، وتصــدعت المــدارس والمســاجد والمستشفيات، وقتلت الأنفس، وأصيب الألــوف، وتشــردت الأســر، وارتاع الناس فى القاهرة والجيزة وبعض المحافظات الأخرى، وهجر الكثير منهم المنازل المتصدعة والسليمة أيضا؛ للخوف الذى اســتولى عليهم من شائعات ترددت بأن زلزالا عنيفا آخر سيعقب الأول، ثم عاد الهدوء وأخذ الناس يتحدثون عن هذه الكارثة التى لحقت بهم، وبدأ كل واحد يروى قصته للآخرين؛ لأن حكايته ــ بالطبع ــ تختلــف عــن حكاياتهم فلم يكن الإحساس بالصدمة واحدا، وأذكر أنى كنت فى قريتنا بالشرقية، وكان شعورى به لا يختلف عن هــزات أخــرى أو زلازل صغيرة عشتها فى مراحل من طفولتى وشبابى٠

وما كاد الناس ينسون الزلزال الأول؛ حتى كانت الهزات الأخرى المتتابعة تشدهم إليه وتذكرهم به فسقطت نفوسهم فى أعماقهم، وتجلت صور كثيرة للصبر والإيمان بالقضاء، والرضا بالقدر، والخوف مــن الله، والبذل والعطاء والإيثار، وأيقن الناس أن مــا فــى الــدنيا إلــى

---

(١) وذلك يوم الاثنين ١٢ من أكتوبر ١٩٩٢م الساعة الثالثة وعشــر دقــائق، وكان مركزه شمال شرق جبل قطران بالقرب من بحيرة قــارون بــالفيوم، وكانت قوته ٥,٨ بمقياس ريختر، واستمر لمدة دقيقة وجاءت بعده عدة زلازل (توابع) في حدود أربع درجات بالمقياس المذكور أبرزها يوم ١٢/ ١٠/ ٩٢ و٢٢/ ١٠/ ١٩٩٢م٠

وكثرت، وأن يوم القيامة قريب، وأن الإنسان مهما زاد علمه وزادت أمواله وكثرت تجاربه ضعيف أمام الغيب، وأن معارف الكثيرين عن باطن الأرض لا تتعدى حدود التوقعات التى قد تصيب وتخطئ؛ لأنه مهما حصّل من العلم الذى دعا إليه القرآن والسنة، وحثت عليه الأديان الأخرى، فسوف تبقى أمامه بعض الأمور التى لا يستطيع القطع فيها والحكم عليها .

لقد أخذ كل واحد فى ذلك الوقت يراجع نفسه، وزاد إقبال المسلمين على الصلاة والتبرع بالدم والمال والكساء، وتنوعت أفعال الخير، وعاد الناس إلى خالقهم عودة هادئة مصاحبة لهذه الكارثة، وعلينا أن نقف مع أنفسنا ونراجع سجل أعمالنا؛ حتى تتضح لنا الدروس التى يمكن أن نستفيد بها ونتعلم منها .

١- حديث القرآن عن الزلازل :

لقد عرض القرآن الكريم لثلاثة أنواع من الزلازل.

أ - **الزلزال النفسى**، وهو المفهوم من قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (١) .

---

(١) البقرة ٢١٤ .

وقوله تعالى:﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[١]

والآيتان تتحدثان عما لحق بنفوس المسلمين فى غزوة الأحزاب حيث أثر القتال عليهم، إذ كانوا آنذاك ضعافا لا يملكون الإمكانات المادية والبشرية التى تجعلهم فى أمن من كفار مكة ويهود المدينة؛ إذ أن هذا النوع من الزلزال يعترى الإنسان فى المواقف التى يعجز فيها عن المقاومة، وتخور قواه عند فقد عزيز عليه، أو عند خسارته فى تجارة وما شابه ذلك .

ب - **زلزال الدنيا** وهو : "هزة أرضية طبيعية تنشأ تحت سطح الأرض"[٢].

وعبر القرآن عن هذا المضمون بالقصم والخسف، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ [٣].

أما الخسف فقد تكرر ذكره فى القرآن الكريم فجاء عن قارون : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [٤] .

---

(١) الأحزاب ١١ .
(٢) المعجم الوسيط جـ١ صـ٣٩٧ .
(٣) الأنبياء ١١ .
(٤) القصص ٨١ .

وجاء عن قارون وفرعــون وهامــان: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١).

وقال تعالى فى شأن هــذا النــوع أيضــا: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢).

جـ - زلزال الآخرة وهو : إما زلزال الساعة وقد جاء فى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (٣) .

---

(١) العنكبوت ٤٠ .
(٢) النحل ٤٥ وانظر مادة خسف فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.
(٣) الحج ١، ٢ .

أو زلزال البعث والذى أبانته سورة الزلزلة فى قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (١) أى حركت من أصلها ٠

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أى موتاها أو كنوزها ٠

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا﴾ الإنسان : ابن آدم الكافر، وقيل أراد كل إنسان يشهد ذلك عند قيام الساعة فى النفخة الأولى من مؤمن وكافر و"مالها" أى مالها زلزلت؟ أو ما لها أخرجت أثقالها ؟

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أى تخبر الأرض بما عمل على ظهرها٠

وقيل: تحدث أخبارها بقيام الساعة إذا قال الإنسان مالها، فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى، وأمر الآخرة قد أتى، فيكون ذلك منها جوابا لهم عند سؤالهم، ووعيدا للكافر وإنذارا للمؤمن٠

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أى أنها تحدث أخبارها بوحى الله لها أى إليها، وقيل أوحى لها: أمرها ٠

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أى فرقا : جمع شت عن موقف الحساب، فريق يأخذ جهة اليمين إلى الجنة وفريق آخر يأخذ جهة الشمال إلى النار٠

---

(١) الزلزلة ١ ٠

وقيل: يرجعون عن الحساب بعد فراغهم من الحساب.

﴿ لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ أى ثواب أعمالهم .

وقيل: إن هذا الصدور إنما هو عند النشــور ، يصــدرون مــن القبور ، فيصار بهم إلى موقف الحساب؛ ليروا أعمالهم فى كتــبهم، أو ليروا جزاء أعمالهم .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

جاء فى تفسير القرطبى ما يأتى : "كان ابن عباس يقــول : مــن يعمل من الكفار مثقال ذرة خيرا يره فى الدنيا، ولا يثاب عليــه فــى الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرة من شر عوقب عليه فــى الآخــرة مــع عقاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يــره فــى الدنيا، ولا يعاقب عليه فى الآخرة إذا مات، ويتجاوز عنــه، إن عمــل مثقال ذرة من خير يقبل منه ويضاف له فى الآخرة[١].

وهذا مثل ضربه الله تعالى فى أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة وهو مثل قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[٢].

---

(١) تفسير القرطبى "الجامع لأحكام القرآن" جـــ٢٠ صــــ١٥٠ .
(٢) النساء ٤٠ .

وروى عن معمر بن زيد بن أسلم: أن رجلا جـاء إلـى النبـى ﷺفقال : "علمنى مما علمك الله، فدفعه إلى رجل يعلمـه فعلمـه ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ حتى إذا بلـغ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ ٠

قال حسبى، فأخبر النبى ﷺ فقال : "دعوه فإنه قد فقه"[١] وقيل إن الزلزلة تكون بعد قيام الناس من قبورهم حتى يوم القيامة ٠

وقيل إنها زلزلة الأرض ٠

وقيل إن هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمـر الـدنيا وأول أهـوال الساعة[٢].

نسأل الله تعالى أن ينجينا من هول الموقف ٠

٢ـ البذل والعطاء والترابط والمحبة وتوجيه العمل الجماعى:

لقد كشف حادث الزلزال عن صـور متعـددة للبـذل والعطـاء والإنفاق فى سبيل الله ، فعندما انتقل المصابون إلى المستشفيات هـب الناس للتبرع بدمائهم، حتى امتلأت الثلاجات عـن أخرهـا، وأسـهم الكثيرون بتقديم الكساء والغطاء للمنكوبين، كمـا أسـرعت جماعـات متعددة للتبرع بالمال فى جمعية الهلال الأحمر وفى البنوك والجمعيات

---

(١) تفسير القرطبى جـ٢٠ صـ١٥٣ ٠
(٢) انظر جريدة اللواء الإسلامى ـ يوم الخميس ٢٢ من أكتوبر سـنة ١٩٩٢م العدد ٥٦١ ٠

الخيرية، وقام الناس بزيارة المرضى وتقديم المساعدات لهم، ونهضت الحكومة والهيئات المختلفة والأفراد بواجبهم، غير أن الأزمة كانت أكبر من الإمكانات المحلية مما جعل الدول الإسلامية والصديقة والهيئات الأجنبية ترسل مساعداتها على عجل من خلال الجسور الجوية الممتدة فى السماء.

ونتمنى أن يخرج هذا التكافل فى صورة منظمة ؛ حتى يستمر العطاء وتعطى المساعدات إلى مستحقيها؛ خاصة أن بعض ضعاف النفوس ومستغلى الأزمات ينتهزون هذه المواقف، فيأخذون ما لا يستحقونه بكذب الإدعاء وغياب الضمير.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مثل المؤمن فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[١].

وقد حثنا الإسلام على الجود والسخاء والإيثار خاصة فى المواقف التى تتطلب الإسراع والنجدة قال تعالى : ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [٢] .

---

(١) متفق عليه.
(٢) سورة آل عمران ١٠٣ .

وإذا رجعنا إلى سيرة الرسول ﷺ فسوف نراها عامرة بالشواهد المتعددة والمواقف الدالة على جمع الكلمة وتوحيد الصف والمعاونة على نوائب الحق.

كما أن السيدة خديجة بنت خويلد قد استقبلت الرسول بعد نزول الوحى عليه، وبشرته ببعض الخصال التى سوف يدعو إليها ويؤمن بها فقالت له : "أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق"(١).

رضى الله عن أم المؤمنين خديجة التى كانت نعم الزوجة لسيدنا رسول الله ﷺ .

٣ - مجانبة الكذب والاستغلال وترديد الشائعات :

إذا كانت مصر بكاملها قد هبت لمساعدة المنكوبين فإن بعض ضعاف النفوس قد استغلوا الأزمة فحصلوا على أموال ومساكن بدون وجه حق ، لكن بعضهم قد استيقظ ضميره فأعاد ما كان قد تسلمه من الهيئات المسئولة، بينما كان ذلك خوفا من العقوبة المقررة حسبما أكدت الشواهد ذلك، وقد لجأ بعض المنحرفين إلى ترديد الإشاعات بأن قالوا مثلا إن زلزالا سيقع فى ساعة كذا ـــ وربما ترتب على هذا الكذب ضرر كبير على نفوس النساء والأطفال، والكلمة الطيبة أمانة

---

(١) فى البخازى ومسلم .

والإشاعة كذب وخيانة، قال ﷺ : "آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان"(١)٠

ومن الممكن أن تبلغ الإشاعة حدا خطيرا فقد تجاوب الناس بعد حادث الزلزال المذكور مع إشاعة ذكرت أن يوم القيامة يصادف يوم ٢٨/ ١٠/ ١٩٩٢م وأصيب الكثيرون بهلع شديد، بل إن جماعات من متوسطى الثقافة ولديهم أمية دينية، بدأوا يعدون لهذا اليوم العدة حتى جاء التاريخ المذكور، ومر بدون أن تقوم الساعة٠

٤ـ الإيمان بالغيب والخوف من الله والتذكير بيوم القيامة :

كان الزلزال مفاجئا للجميع ولم يستعد له أحد، ولم تخبر الأجهزة العلمية الحديثة عن قرب وقوعه، وعندما ارتجت الأرض واهتزت هزتها العنيفة تصرف كل واحد بما أملاه عليه عقله، ففريق افتقد القدرة على الفعل والحركة ولم يدر كيف يتصرف، وأكثر الذين كانوا فى المنازل خرجوا منها بالصورة التى كانوا عليها عندما أحسوا بالزلزال٠

ولازال الزلزال نوعا من الغيب المخبأ عن إدراك البشر، ولم يستطع أحد أن يحدد تاريخا ثابتا لوقوعه ٠

ومن هنا تأتى أهمية إيمان الإنسان بنوع من الغيب المحيط به مثل الحوادث العامة والرزق والموت وغيرها٠

---

(١) متفق عليه ٠

والزلزال لون من ألوان التخويف والتنبيه والتذكير بـــالله، وهـــو دعوة صريحة إلى الإيمان بيوم القيامة رغم الفارق الكبير بـــين هـــزة الأرض وقيام الساعة، مع أن كثيرا من الناس اعتقدوا أن القيامـــة قـــد قامت، وأن ساعة الحشر قد حل أوانها، ثم هـــدأت الأمـــور، وانتشـــر الأمن بعد أن أصيب من أصيب، ومات من مات ، قال تعـــالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (١) .

وإذا كان الناس قد تذكروا يوم القيامة بهذا الزلزال المدمر فلعلـــه يكون درسا نافعا يؤمنون بعده بهذا اليوم، الذى يغفل عنه الكثيـــرون، ولا يتذكرونه إلا فى ساعة الضيق والعسرة قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ (٢).

وقال:﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾(٣).

كما أن الخوف من الله والتفكير فى يوم القيامة يستتبع الاجتهـــاد للآخرة بالأعمال الصالحة التى تقرب العبد من ربه.

قال صاحب رسول الله ﷺ عمرو بن العاص حسبما ورد : "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا".

٥ - الصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء :

---

(١) السجدة ١١ .
(٢) لقمان ٣٤ .
(٣) الروم ٥٥ .

لقد أصيب كثير من الناس فى أنفسهم وذويهم وفى أموالهم وعقاراتهم فخرج بعضهم عن شعوره فأخذ يحطم بعض المنشآت فى حى [بولاق] بالقاهرة، كما خضع بعضهم مستسلما لطغيان الحزن عليه، فافترشوا الشوارع وناموا فى العراء، ولكن الأكثرية قد استعانت بالصبر الجميل، ورضيت بقضاء الله، ولم تخضع لليأس فتحول نشاطها إلى قوة فاعلة، وحركة بناءة، وكان إسهامها نابعا من الإيمان بالله فى ضوء قوله تعالى : ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) .

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (٢) .

والصبر على ضياع المال وفقد المسكن يكون بالعمل الجاد والنشاط المحمود؛ لتحقيق الكسب، وإصلاح ما تهدم.

أما الصبر على الموت فيكون بالإيمان الحقيقى بالله، والتوكل عليه قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣).

وقد جاء الصبر ومشتقاته فى القرآن الكريم تسعة وتسعين مرة، وأكثر ما يرد فى الأمور التى يمكن للإنسان أن يستعين عليها بالعمل

---

(١) التوبة ٥١ .
(٢) البقرة ١٥٣ .
(٣) سورة النحل ٤٢ .

والاجتهاد، مثل فقد المال، وضعف الصحة أحيانا، وهموم الحياة المتنوعة، والصبر بهذا المعنى يختلف عن الابتلاء الذى يفهم بأنه اختبار عملى للمسلم فى مدى التزامه بجوهر الدين، حيث يشمل كل ما يمنحه الله للإنسان ويقدره للعباد من خير أو شر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾(١).

والصبر على المصائب فى مقدمة الفضائل التى يجب على الإنسان أن يتمسك بها فى الدنيا، وهو سلاح معنوى فاعل يقاوم المؤمن به الشدائد والنكبات التى تعترض مسيرة الحياة؛ حتى يكون على اتصال دائم بالخالق الوهاب .

وقد روى أن الرسول ﷺ دخل على جماعة من الأنصار فقال : "أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا فقال عمر: نعم يا رسول الله . قال وما علامة إيمانكم؟ قالوا: نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء، فقال ﷺ مؤمنون ورب الكعبة"(٢).

وقال الشاعر:

اصبرْ لكل مصيبةٍ وتجلدْ ∴ واعلم بأن المرءَ غيرُ مُخلَّد

فالصبر فضيلة من الفضائل، والغضب نوع من الخفة والنزق، ولذلك كان الصبر مظهرا للقوة النفسية، فإذا عرضت للإنسان شدة من

---

(١) الملك ٢ .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط .

الشدائد أو أزمة من الأزمات، فمن يملك منهم ضبط النفس والتذرع بالصبر هو القدير على التصدى والمقاومة ؛ حتى تنجلى الغمة وتزول الكارثة.

قال الله تعالى فى الحديث القدسى : "إذا وجهت إلى عبدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا"(١).

والصبر دليل على سعة الأفق وبعد النظر، والرضا بالواقع ريثما تسمح الفرصة بتغييره ولذلك كان الصبر نعمة كبيرة وعلاجا مفيدا فى الكوارث والدواهى :

يابائعَ الصبر لاتُشْفق على الشارِى ∴ فدرهمُ الصبر يَسْوى ألفَ دينار

ثم إن ثواب الصبر كبير جدا عند الله تعالى حيث قال : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢).

وفى رفض الصبر والاستهانة به وعدم الاستجابة له نوع من الاعتراض على قضاء الله، وضعف فى علاقة الإنسان بربه سبحانه وتعالى وفى البلاء والابتلاء تكفير للذنوب، وارتقاء عند الله واختبار للإيمان، ودعوة للعمل للدنيا وللآخرة .

---

(١) رواه ابن عدى من حديث أنس وانظر القرطبى حـ٦ ص ٥٨٨٥ طبعة دار الغد العربى .
(٢) سورة الزمر ١٠ .

٦ ـ الحرص على العلم وضبط القوانين:

إن الزلزال مظهر من مظاهر الطبيعة حين تقسو وتشتد على الناس وهى فعل من أفعال الله التى لا تخلو من حكمة وعظة، كما أن المفاجأة التى حل بها على الناس تؤكد أن علم البشر لم يزل محدودا، وأن معارفه لا تتجاوز حدود التوقع والاحتمال فى هذا الأمر الذى يصدق أو لا يصدق ٠

وقد جاء فى مقالة للأستاذ إبراهيم نافع ما يأتى: "إن العلم فى أرقى دول العالم وأكثرها خبرة بالزلازل لم يصل إلى التنبؤ الدقيق، أو حتى القريب من الدقة بها، وغاية ما وصل إليه من دراسة التربة وتاريخ النشاط الزلزالى فيها وعلاماته وتسجيل ما يعتريها من هزات خفيفة، هو ترجيح احتمال وقوع نشاط زلزالى فى بقعة معينة من الأرض خلال فترة زمنية غير محددة لا باليوم ولا بالأسبوع ولا بالشهر ولا بالسنة، وقد يصدق هذا الاحتمال أو لا يصدق"(١).

لكن ليس معنى ذلك أن نفقد الثقة بالعلم أو نتجاهله، فنقف عند مرحلة معينة من التفكير ، كلا ، فالإسلام لا يدعو إلى ذلك وإنما يطالب بالبحث عن الحقيقة، والأخذ بالأسباب، ومواصلة العلم الذى جعله ديننا السمح فريضة على كل مسلم ومسلمة ٠

---

(١) جريدة الأهرام فى ٣٠/ ١٠/ ١٩٩٢م٠

قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [1].

إن العلم البشرى فى أعلى درجاته لم يصل إلى التنبؤ الدقيق بالزلزال ولم يتجاوز تلك المرحلة التى أشرنا إليها وهى التوقع الذى يصدق أولا يصدق ، وعشنا فى الأسبوع الماضى خبر التنبؤ بزلزال كاليفوونيا ولم يقع ذلك الزلزال الذى حدث به العلماء وخاب اجتهادهم وينبغى أن يسخر العلم فى التأمين من الكوارث التى تأتى بغتة كالزلازل والبراكين والأعاصير، وذلك من خلال الحرص على معدلات الأمان فى المنشآت الحديثة ومراعاة غضب الأنهار وثورة الطبيعة وغير ذلك مما يقع فى أنحاء الكرة الأرضية.

وقد ذكر كثير من العلماء أن عددا كبيرا من الأبنية قد انتهى عمرها الافتراضى، وأن الأبنية الحديثة لم تكن مصممة لاحتمال وقوع زلازل، وأن المواد المستعملة ليست على درجة من الكفاءة المطلوبة فلذلك ظهر أثر الزلزال كبيرا مع أنه لم يكن عنيفا بالمقياس العالمى.

فالمساكن إما أنها عشوائية وإما أنها مخالفة لشروط البناء الصحيح، خاصة أن كثيرا ممن لا يفهمون فى مهنة العمارة دخلوا فيها بتخبط وجهل ولابد ــ هنا ــ من تسخير العلم المتاح لخدمة الإنسانية

---

(١) فصلت ٥٣، ٥٤ .

فى مجال الإسكان والتأمين ضد المخاطر، فضلا عن المخالفات الناجمة عن التقليل أو الغش فى مواد البناء ؛ رغبة فى تحقيق المكسب والثراء الفاحش، كما أن كثيرا من المنازل لا تتحقق لها الصيانة اللازمة لعدة أسباب منها، قانون الإسكان القديم الذى يقطع الصلة بين المالك وبيته ويسلم العقار للمستأجر وورثته من بعده ، فالمالك لا ينهض بالصيانة المطلوبة ؛ لأنه يتقاضى مبلغا ثابتا لا يساير حركة الغلاء، والساكن ليس من واجبه أن يصلح البيت بكامله خاصة أنه يستأجر شقة يدفع الإيجار عنها أول كل شهر، ومن هنا تزداد المشكلة تعقيدا وتخرب البيوت على رؤس السكان، وربما كان معهم الملاك أيضا الذين ضاعوا بين القوانين المتعاقبة التى لم تغير من أوضاعهم، ولم تنصفهم باستثناء القوانين الجديدة فى المساكن الخالية والمستحدثة.

كما أن أزمة الإسكان جعلت الناس تبنى بدون إمكانات وبدون التزام بالشروط المنصوص عليها فى القانون فتاهت الأمور، وتشابكت الهموم وكثرت وكثرة الضحايا ثم جاء الزلزال فكشف عن أمور كثيرة وخطيرة تستحق الدراسة والحركة واتخاذ القرار، وحل المشكلة التى أثرت فى حركة الحياة بصورة لم تكن فى التقدير والحسبان ، وندعو الله عز وجل أن ينقذنا من كل سوء ومكروه، وأن يبصرنا بما يفيد الوطن والمواطنين والله هو الولى وهو نعم المولى ونعم النصير.

كتب للمؤلف

الكتاب	السنة
١ - شعر الحماسة فى العصر العباسى الثانى	١٩٨٤
٢ - ياقوت الحموى أديبا وناقدا	١٩٨٨
٣ - امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين	١٩٨٩
٤ - الغموض فى شعر أبى تمام	١٩٨٩
٥ - شعراء الطائف فى الجاهلية والإسلام	١٩٨٩
٦ - فن الرواية فى المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور (الطبعة الأولى)	١٩٨٩
٧ - من روائع الأدب العربى فى العصرين العباسى الثانى والأندلسى	١٩٩٠
٨ - من روائع الأدب العربى فى العصرين الأموى والعباسى.	١٩٩١
٩ - أوزان الشعر - دراسة فى العروض والقافية	١٩٩٤
١٠ - فن الرواية فى المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور (الطبعة الثانية)	١٩٩٥
١١ - دراسات فى الأدب الجاهلى	١٩٩٨
١٢ - أطوار الأدب العربى فى العصر الإسلامى	١٩٩٩
١٣ - دراسات فى الأدب الأندلسى	١٩٩٩
١٤ - مناهج البحث فى الأدب واللغة والتربية	٢٠٠٠
١٥ - رحيق المعرفة	٢٠٠١

الكتاب	السنة
١٦ - تاريخ الأدب الجاهلى.	٢٠٠١
١٧ - أدب البيئة بين الأصالة والمعاصرة.	٢٠٠٥
١٨ - دراسات فى الأدب الحديث (الطبعة الأولى).	٢٠٠٥
١٩ - الثروة فى الإسلام .	٢٠٠٦
٢٠ - قطوف من السيرة والدعوة.	٢٠٠٦
٢١ - أصوات الأرض والحب والثورة.	٢٠٠٦
٢٢ - قضايا ثقافية .	٢٠٠٦
٢٣ - ألوان من الأدب والفكر والحياة .	٢٠٠٦
٢٤ - دراسات فى الأدب الحديث (الطبعة الثانية) .	٢٠٠٧

تطلب الكتب المذكورة من دور الطبع والنشر الآتية :

١- المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ٩٠ درب الأتراك خلف الأزهر الشريف ت ٠٥١٢٠٨٤٧ /٠٢

٢- مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلى بالقاهرة ت: ٠٢/٣٩٥٦٧٧١

٣- مكتبة الآداب ٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة، ت ٣٩٠٠٨٦٨ / ٠٢

فهرس الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠٦/١٣٧٧٩م